لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

الثورة الفرنسية

تأليف

حسن جلال

رئيس مكتب وزير الحربية



أرسطو : المعلم الأول

سلسلة المعارف العامة

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م

*

كلمة اللجنـــة

قامت لجنة التأليف والترجمة والنشر منـذ أنشئت الى اليوم بإخراج نحو ثلاثين كتابا . أكثرها مدرسى ولمـا كانت غاية اللجنـة خدمة العلم ونشر الثقافة بين جمهو ر المتعلمين من غير تقيـد بدائرة المدارس الضيقة ، قررت أخيرا أن تخرج سلسلة كتب مبسّطة تتناول مختلف الموضوعات العلمية والتاريخية والأدبية . ووكلت الى جماعة من أعضائها معالجة تلك الموضوعات بطريقة مبتكرة روعيت فيهـا عدّة اعتبارات منهـا أن يكتب كل عضو فى الفرع الذى خصص نفســه له حتى تخرج رسالته ثمـرة ناضجة لاطلاعه الطويل وخبرته المـاضية — وأن يفترض المؤلف فى القارئ أنه لم يسبق له علم بموضوع كتابه فيصوغ رسالته بلغة سهلة و يجعلها وحدة مستقلة قائمة بذاتها لا تستدعى ممن يطالعها أن يراجع غيرها ليكمل نقصا فيها أو يستوضح غموضا بهـا . وأن [يمصر] موضوعه جهد الطاقة فلا يدع سبيلا الى المقارنة بين ما ينشر من المعلومات و بين ما هو واقع فى مصر دون أن يسلكه .

وفى الجملة كانت غاية اللجنة أن تقوم بإعداد مائدة تبسط عليها صنوف العلم فى أشهى مظاهرها وفى أسهل تراكيبها وأقربها للهضم والتمثيل .

وهى تغتبط اليوم بتقديم باكورة جهدها فى هذا السبيل وتسأل الله أن تكون قد وفقت للوصول الى غايتها . وأن يكون التوفيق حليفها فيما تخرجه بعد اليوم من الحلقات الأخرى فى هذه السلسلة .

---

*

فهـــرس الكـتاب

صحيفة

---

(١) الصواب الباب الثالث .

صحيفة

الباب الخامس[1] — الجمعية الوطنية تضع الدستور —

الباب السادس[2] — الحكومة الدستورية —

---

(١) الصواب الباب الرابع .

(٢) الصواب الباب الخامس .

صحيفة

الباب السابع[1] — الجمهورية —

الباب الثامن[2] — الديركتوار (حكومة الادارة) —

(١) الصواب الباب السادس . (٢) الصواب الباب السابع .

*

الثـــورة الفرنســـية

*

الباب الأول

تمهيدات عامة

---

(١) الثورة الفرنسية :

الثورة : انقلاب فى النظم القائمة المعروفة . فقديما كان يسافر الناس على دوابهم وفى العربات فلما اكتشفت قوة البخار وآخترعت القاطرات البخارية حدثت « ثورة فى طرق المواصلات » .

وقديما كان الناس يجزون الصوف بأيديهم عن ظهور أغنامهم ويغزلونه بمغازلهم . ثم ينسجونه فى بيوتهم . لا يعتمدون فى صنعه إلا على أيديهم . فلما آخترعت آلات الغزل والنسيج . ولم يكد يبق فى العالم صغيرة ولا كبيرة إلا والآلات تصنعها ، وقع ما يعرف باسم « الثورة الصناعية » .

وغير هاتين الثورتين أنواع أخرى من الثورات لم يشهر فيها سيف ولم يطلق فيها مدفع . ولكنها لا يزال يتحدث الناس عنها بأنها ثورات .

والثورة الفرنسية ثورة تشترك مع باقى الثورات فى خواصها فهى لم تزد على كونها انقلابا فى النظم التى كانت معروفة فى فرنسا قبل وقوع الثورة .

وتمتاز الثورة الفرنسية بأنها لم تكن ثورة سياسية ترتب عليها انقلاب فى حكومة فرنسا فحسب ولكنها كانت ثورة سياسية اجتماعية اقتصادية .

فأما كونها ثورة سياسية فلأنها انتهت بقلب نظام الحكم الملكى فى فرنسا الى نظام جمهورى .

وأما كونها ثورة اجتماعيـة فلأنها أدّت الى إلغاء امتيازات الأشراف ورجال الدين ومحت الفوارق التى كانت قائمة بين طبقات الشعب الفرنسى وجعلت فرنسا كلها طبقة واحدة بعد أن كانت ثلاث طبقات متباينة .

وأما كونها ثورة اقتصادية فلأنها غيرت نظام الضرائب والرسوم الجمركية وألغت نظام الاحتكار ومحت القيود التى كانت على الصناعات وانتزعت أملاك الكنيسة وجعلتها ملكا للأمة . ولعل هذه الصفة الجامعة من بين صفات الثورة الفرنسية هى أهم ما جعلها تنفرد فى التاريخ بتلك المكانة التى تشغلها؛ فالتاريخ كما لا يخفاك حافل بأخبار الثورات ولا يكاد يخلو تاريخ أية دولة

من ذكر ثورة انتابتها . ولكنك لا تتحدث عن « الثورة » أو عن أمر وقع فى « عصر الثورة » إلا وينصرف الحديث على الأكثر الى « الثورة الفرنسية » .

على أن فرنسا نفسها وقع فيها أكثر من ثورة واحدة فهناك (ثورة الأيام الثلاثة) التى وقعت سنة ١٨٣٠ وهناك ثورة سنة ١٨٤٨ عدا الثورة الأولى التى وقعت سنة ١٧٨٩ ومع كل ذلك فهذه الثورة الأولى هى التى ينصرف اليها الحديث كلما جرى ذكر « الثورة الفرنسية » . وذلك لأنها هى أساس كثير مما حدث بعدها فى أوروبا كلها بل وفى جهات أخرى من العالم من حروب وثورات كما أنها أساس لشىء غير قليل مما انتشر بعدها من المبادئ والإصلاحات .

(٢) روح الجماعات :

وعلى الرغم من وقوف الثورة الفرنسية فى تاريخ العالم هذا الموقف الفذ فقد ضل كثير من المؤرخين المعاصرين لها فى فهمها وتعليلها . وجهروا بآرائهم فيها فقالوا : (إن الثورة الفرنسية كانت صنفا من الجنون تحولت معه فرنسا وبعض بقاع المعمورة الى مارستان) وكان هذا مذهب العدد العديد من الانجليز، وفلاسفتهم .

ولهم العذر فى هذا الخطأ الفاحش الذى وقعوا فيه لأنهم أرادوا أن يحكموا على أعمال فرنسية بعقل انجليزى مع ما هو معروف من البعد بين نفسية الشعبين وعقليتهما . ولم يكن الانجليز وحدهم هم الذين أساءوا فهم روح الثورة بل شاركهم فى ذلك الألمان . ومما يروى فى ذلك أن الأستاذ المؤرخ الألمانى (نيبور) كان يرى رأى الانجليز فى الثورة أيضا إلا أنه غالى فى حكمه فقال : "إن الثورة الفرنسية فلتة جنون تبرأ منها فرنسا ولا يعود بمثلها الزمن أبدا ! " فلما بلغه نبأ الثورة الفرنسية الثانية وثبت له خطل رأيه تولاه الكمد . واعتل على أثر ذلك وقضى نحبه قتيلا بداء (الأيام الثلاثة) وهو اسم ثورة سنة ١٨٣٠ لما رأى أن أبناء رجال الثورة الأولى وأحفادهم قاموا يبررون عمل آبائهم وأجدادهم ويأبون إلا تمسكا به وإصرارا عليه .

ولكن علم النفس تقدم بعد الثورة الفرنسية وأصبح يبحث فى نفسية الجماعات بعد أن كان مجاله قاصرا على البحث فى نفسية الأفراد وقام من علماء فرنسا أنفسهم من درس نفسية الجماعات دراسة علمية وشرح خواصها ومميزاتها ، وبحث فى مشاعرها وأخلاقها وطرق تفكيرها ووسائل إقناعها وتقلب معتقداتها وغير ذلك مما سهل معه تفهم روح الثورة والوقوف على بواعثها

وإدراك حقيقــة أسبابها وتتبع أطوارها فى ضوء هــذه البحوث الكاشفة المنيرة .

وإليك بعض تلك المبــادئ التى تعينك على مسايرة الثائرين فى عجيب ما صــنعوا دون أن تضيق صــدرا بأعمالهم ومن غير أن يعجزك فهم فعالهم .

فاعلم أوّلا أن الجماعة هى كل لفيف من النــاس جمعتهم غاية واحدة . وأن الفرد فى الجمــاعة يخالف ما كان عليــه قبل أن يندمج فيها .

وأن أهم ما تمتاز به الجمــاعة وجود (روح عامّة) تجعل جميع أفرادها يشــعرون ويفكرون ويعملون بكيفية تخالف تمــام المخالفة الكيفية التى يشعر ويفكر ويعمل بها كل واحد منهم على انفراده . وسترى بين رجال الثورة الفرنســية أفرادا يحبــذون القسر والفتك كانوا فى زمن السلم قضاة من ذوى الفضــل أو علماء أولى سكينة وهدوء فلما سكنت العاصفة عادوا الى هدوئهم وادعين .

والسبب فى ذلك أن النــاس يتفاوتون فى عقولهم ولكنهــم يتشابهون فى مشاعرهم الفطرية . فاذا انضم بعضهــم الى بعض غلبت صفاتهم المشتركة على صفاتهم الخاصة ، وانزوت شخصياتهم الفردية تحت الشخصية العامّة ، وأصبح الحكم فى الجماعة للشاعر

ولم يبق للعقل عليها كبير سلطان . فهى تندفع بمشاعرها ولا تستطيع أن تقف لتفكر . ولذلك كان من أخص صفات الجماعة أنها أقدر على العمل منها على التفكير .

فاذا عرفت ذلك فاعرف أيضا أن الجماعة أقدر على التدمير منها على الإصلاح والتعمير . وذلك راجع الى أن الجماعة لا تأتلف عادة إلا هضيمة الجانب سليبة الحق . فاذا آجتمع أفرادها وأحس كل واحد بالقوة التى اكتسبها من اجتماعه بغيره . ثم رأى أن تلك المسئولية التى كانت تحكم أعماله وهو فرد قد زالت عنه تقريبا بحكم اندماجه فى الجماعة وسرت اليه فوق كل ذلك عدوى المتحمسين من زملائه، وأصابته تلك النوبة المغناطيسية التى تستولى عادة على عواطف الجماهير . فاسأل الله السلامة لعباده من شر ما خلق . فليست تلك إلا عاصفة بشرية عاتية والويل كل الويل لما تجرر فوقه أذيالها .

قال جوستاف لوبون صاحب كتاب "روح الاجتماع" :

[يهبط المرء بمجرد آنضمامه الى الجماعة عدّة درجات من سلم المدنية ولعله كان رجلا مثقف العقل مهذب الأخلاق فى نفسه ولكنه فى الجماعة ساذج تابع للغريزة ففيه اندفاع الرجل الفطرى وشدّته وفيه عنفه وقسوته وفيه حماسته وشجاعته . وفيه من سهولة

التأثر بالألفاظ والصور ما لم يكن يتأثر به وهو خارج الجماعة تم فيه الانقياد بذلك الى فعل ما يخالف منافعه البدهيـة ويناقض طباعه التى اشتهرت عنه] .

هذه بعض المبادئ الهامة التى تحكم سير الجماعات . فاذا أنت رعيتها فسيسهل عليك أن تعرف كيف كان كل فرد من أفراد (المؤتمر الوطنى) رجلا متنورا سليم الطبع فى ذاته فلما اجتمع بغيره من الأعضاء لم يحجموا فى جملتهـم عن تقرير أفظع الأعمـال حتى أسـلموا للإعدام أطهر النـاس براءة من الآثام . وسيسهل عليك كذلك أن تفهم كيف تحمس الأشراف ليلة ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ الشهـيرة ونزلوا للشعب عن امتيازاتهـم وهم أحرص النـاس عليها ولو أن ذلك طلب اليهـم فرادى لمـا كان له عنـدهم غير الرفض البـات .

ولكن وجها آخر لنفسية الجمـاعات أريد أن ألفت نظرك اليه وهو أنه اذا صح أن الجماعة شريرة فى كثير من الأحيان فمن الصحيح أيضا أنها تمتاز بشىء غير قليل من الفضائل فى أحيان كثيرة أخرى . وتلك حال الجماعات التى يسـتفزها قوادها الى الجهاد فى سبيل الله أو فى سبيل المجد والرفعة أو للذود عن الوطن وسترى فيما يأتى من التفصيل كيف استطاعت فرنسا الجائعة المفلسـة المضطربة أن

تقف بشجاعة فى وجه أوروبا الغنيـة الهادئة المنظمة . ثم كيف استطاعت أن ترد هجماتها ، وتصدها ، وتتغلب عليها .

(٣) المقارنة بين فرنسا وغيرها من دول أوروبا :

ولقد كانت فرنسا قبيل الثورة فى حالة يرثى لها وكان الناس يتوقعون أن تحدث فيها انقلابات سياسية خطيرة . غير أنه لم يكن أحد يستطيع أن يحدّد بالدقة نوع تلك الانقلابات . وإن كان الناس كلهم مجمعين على أن كارثة لا بد أن تحل بتلك البلاد . فان حكومتها لم تكن تعير شكايات أهلها الصارخة أى اهتمام . ولقد حققت الأيام جميع هذه المخاوف إذ تحرجت الأمور فى سنة ١٧٨٩ ووقع الانقلاب فى صورة بشعة هدمت النظام الاجتماعى والسياسى فى تلك البلاد من قواعده حيث قام الناس ينتقمون لأنفسهم ولأسلافهم من تلك النظم الاستبدادية التى ظلوا يرزحون تحتها أجيالا طويلة فى شخص رؤسائهم الذين كانوا يعاصرونهم .

* * *

وبينما كانت تجرى هذه الحوادث فى فرنسا كانت انجلترا فى أثبت حال من الاستقرار والهدوء . ولم يكن ذلك نتيجة لتمتعها بقوانين معتدلة حكيمة فحسب ؛ ولكن لحصول أهلها على تلك

الحقوق التي هي مطمع كل حي والتي ينفي وجودها كل تظلم وكل شكاية .

فكان الناس بوجه عام يتمتعون بحق المساواة أمام القانون .

وكانت حرية الرأي والاجتماع مكفولة لهم .

وكانت طبقة الأشراف عندهم منتشرة في طول البلاد وعرضها تتولى بنفسها زعامة الرأي العام فيها .

وكانت أبواب المجد والشرف مفتوحة أمام أصحاب الكفايات مهما كان منبتهم وضيعا حقيرا . فكان أحط الناس نسبا إذا توفرت له أسباب النبوغ في أي فن من الفنون يجد الطريق فسيحا أمامه والمستقبل بساما له ويتلقاه الأشراف في زمرتهم بالبشر والترحيب .

وكان التعليم منتشرا في أنحاء البلاد وكان من أقوى مميزات الشعب الانجليزي تفوقه على كافة الشعوب في ولائه لمليكه واحترامه للقانون .

* * *

وعلى عكس ذلك كانت الحال في فرنسا .

فكان الأشراف يتمتعون بامتيازات واسعة . وكانوا يهجرون مزارعهم ويقيمون في باريس حيث اللهو وحياة البذخ والرفاهة

تاركين رجالهم من ورائهم فريسة لأطماع جباة الضرائب الذين لم يكونوا يتقيدون فى عملهم وعسفهم بعرف ولا قانون .

وكانت المراكز السامية فى الجيش والبحرية ودور القضاء وقفا على الأشراف ولم يكن يطمع واحد من أهل الطبقة الوسطى فى أن يرقى الى طبقة أعلى مهما كانت قدرته وكفاءته .

أما الطبقة السفلى فكانت تتمرغ فى حمأة الجهل والفقر .

وكان رجال الدين فى نعيم لا يتفق مع من صناعته بيع الدنيا وشراء الآخرة وكان أصحاب المناصب العالية منهم يحيون حياة بعيدة كل البعد عما هو مفروض على مثلهم من الواجبات .

وفضلا عن كل ما سبق فان حرية التدين كانت معدومة فى فرنسا . فلم تكن تريد حكومتها أن تعترف بغير الكاثوليكية مذهبا دينيا فيها . وبعد أن أمر هنرى الرابع سنة ١٥٩٨ بالتسامح مع البروتستانت جاء لويس الرابع عشر ومحا هذا الحق وأصبح محرما على البروتستانت ممارسة مذهبهم فى فرنسا . وأخرج الناس من ديارهم ألوفا ألوفا منفيين بسبب اختلافهم فى الدين عن بقية أهل تلك البلاد .

ولم يكن الناس يعرفون حرية الرأى فى ذلك العصر العصيب .

ولا كان للنـاس ما يكفل لهم شيئا من حريتهم الشخصية . فكان كل انسان عرضة لأن يلقى القبض عليه و يطرح فى السجن بغير تحقيق الى أجل غير محدود . وكان التعذيب بجذب الأوصال ونزع الأطراف من بين العقوبات الشرعيـة التى تحكم بهـا محاكم ذلك العصر .

وكانت لشركات الاحتكار الكلمة العليا فى أسواق فرنسا .

وكان لا يدفع الضرائب للحكومة إلا طبقـة العمال ومن فى درجتهـم . أما الأشراف فكانوا معفين من ذلك . بل إنهـم كان لهم الحق فى جباية الضرائب لأنفسهم غير ما كان يجبى للحكومة . وكانوا فوق كل ذلك يسخرون العامة فى فلاحة أرضهم و فى القيام بخدمتهم من غير أجر ولا جزاء .

* * *

أما فى معظم دول أوربا الأخرى كروسـيا و بروسيا فربمـا كانت الحال أسوأ ممـا كانت عليه فى فرنسا . وانمـا ثارت فرنسا ولم تثر تلك الشـعوب على الرغم من انتشار الظلم فى أنظمتها لأن الظلم فى ذاته لا يحدث الثورات وانمـا يحدثها الإحساس بالظلم .

ولقـد توفرت لفرنسا طائفـة من الفلاسفة والكتاب الذين تمكنوا بكتاباتهم من خلق هـذا الإحساس . ثم ولى الحكم فيهـا

لويس السادس عشر الذى كان يترع بفطرته الى الإصلاح . فلما توجه الشعب اليه شاكيا سوء حاله . وأخذ هو فى معالجة تلك الشكايات وتذوق الناس نعمة الإصلاح اشتطوا فى مطالبهم وبالغوا فى التشبث بتحقيقها كلها مرة واحدة . وادعوا لأنفسهم ما لم يقل أحد بأنه من حقوقهم فوقع بينهم وبين أولياء الأمر فيهم ذلك النزاع الذى لم يلبث أن تطور الى ثورة عنيفة أكلت نارها الحاكم والمحكوم .

(٤) الحكومة :

تنظر حولك فى جميع جهات العالم فلا تجد إلا دولا قامت فيها طبقة من الحكام على شئون طبقات الأمة الأخرى واختصت نفسها بالسلطة فيها . فكيف نشأ هذا النظام ؟ وكيف أجمع العالم على اتباعه ؟ وهل هو ضرورى للمجتمعات ؟ ولماذا اتخذت الحكومات صورا مختلفة فى البلاد المختلفة فهنا جمهورية وهنالك ملكية وهنالك غير ذلك ؟ وهل تستوى هذه الصور كلها فى صلاحيتها للقيام بما قصدت له الحكومة أم منها الصالح ومنها الفاسد ؟ وهل على الحكومة من واجبات حيال الأمة كما على الأمة واجبات حيال الحكومة ؟ وما هى هذه الواجبات ؟

كل هذه الأسئلة وأشباهها مما بحثه الفلاسفة المتقدمون والمتأخرون . ولكل طائفة من هؤلاء وأولئك آراء ونظريات سيطرت على العالم فى العصور المختلفة .

فقال بعضهم بنظرية القوة والتغلب ومؤداها أن السلطة تأتى من طريق الغلبة والقهر واستعباد الانسان للانسان واستبداد القوى بالضعيف وطموح رئيس القبيلة الى نشر سلطانه على القبائل المجاورة حتى يتم له الملك وأن حكومات العالم نشأت عن هذا الطريق !

وقال آخرون بنظرية التفويض الإلهى وخلاصتها أن الله اصطفى الملوك للحكم بين الناس وأيدهم بروح من عنده فهم خلفاؤه الموكلون بالقيام على مصالح البشر . وليس ينبغى لأحد إلا أن يكون لهم سميعا مطيعا .

وقال غيرهم بنظرية التطور الاجتماعى ومحصلها أن الأسرة أول جرثومة تكون منها نظام هذا الاجتماع البشرى وأن سلطة الأب على أفراد أسرته هى أول سلطة عرفت فى تاريخ الاجتماع ومن تلك السلطة نشأت سلطة رئيس العشيرة وسيد القبيلة وأن القبيلة متى أصبحت أمة أصبح رئيسها ملكا .

وادّعى آخرون بأن الحكومة أنما نشأت بتعاقد الناس على أن يحكمهم واحد منهم . وتعرف هذه النظرية بنظرية العقد الاجتماعى .

وقال غير هؤلاء كلاما غير هذا الكلام . وليس من شأننا الآن أن نقف عند قول كل واحد من هؤلاء فنوازن بين ما قالوا ونعرف أيهم أخطأ وأيهم أصاب . ولكن الذى يعنينا هو أن نرجع الى رأى الفلاسفة الذين مهدوا للثورة بنظرياتهم فى هذا الموضوع وأن نرى كيف تطوّرت أذهان الناس بدراسة هذه النظريات . فأحدثت فى التاريخ ذلك الحادث العظيم الذى نحاول اليوم دراسته .

وأخص هؤلاء الفلاسفة وأبعدهم أثرا فى تهيئة نفوس الفرنسيين للثورة التى قاموا بها هو چان چاك روسو صاحب كتاب (العقد الاجتماعى) .

(٥) روسو وكتاب العقد الاجتماعى :

فأما روسو فرجل سويسرى الأصل . وفد على فرنسا وضاقت به سبل العيش حتى أظلمت الدنيا فى عينيه وامتلأ عليها حقدا وغلا . وجعل دأبه أن يحمل على تلك المدنية التى ملأت حياة

الانسان بالقيود وحرمته من نعيم وحشيته الأولى حيث مرافق الحياة سهلة ميسرة للجميع وحيث لا تفاضل ولا تنافس ولا تطاحن على أعراض الدنيا وأسباب الرزق . ولقد نال بكتاباته هذه شهرة واسعة وأصاب منها فى آخر عمره رزقا عظيما وأصبح فى عداد الفلاسفة الأفذاذ . وتتجلى لك روح فلسفته وأسس تعاليمه وقوة تأثيره فى هذه السطور التى افتتح بها كتابه المشهور فى التربية (إميل) . حيث يقول :

"يخرج كل شىء من يد الطبيعة حسنا جميلا . ولكنه ينحط ويفسد متى تناولته يد الانسان . فالانسان يحمل تربة هذه البلاد على أن تغذو نبات بلاد أخرى ويقضى على شجرة أن تحمل ثمار شجرة غيرها ويكون سببا فى اختلاط العناصر والأجواء والمواسم . ويمسخ خلقة كلابه وخيله وعبيده ويأتى على كل شىء خلطا وتشويها كأنما لا يلتذ إلا بكل أشوه ممسوخ ويأبى أن يترك شيئا واحدا على ما صورته يد الطبيعة حتى الانسان نفسه فأنه يجبله على الطريقة التى يهواها كما يصنع بسرج فرسه ويطبعه بالطابع الذى يريد كما يفعل بأغصان بستانه ...

يولد الانسان المدنى ويعيش ويموت وهو فى حالة رق واستعباد تخاط حوله اللفائف عند مولده . ويختم عليه الكفن عند وفاته .

وهو فيما بين هـذا وذاك يرسف فى قيود من النظم والتقاليد . وإنا لنسمع أحيانا من القابلات من تدعى أنها ستصوغ رأس الطفل فى أحسن من قالبه الذى نزل عليه بأن تضغط على جوانبه وتعيد تشكيله . بل انا لنسمح لهن أن يصنعن ذلك كما لو كان بارئ الكائنات جلت قدرته قد صور رءوسنا فأساء تصويرها فهى فى حاجة إلى التعديل والتهذيب يتولى ظاهرها القابلات ويتولى باطنها الفلاسفة ! " .

هكذا كانت حملة روسو على مدنية عصره واستهزاؤه بنظمها واتهامه إياها بالفساد . وهكذا كانت دعوته الى التخلص منها والعودة الى الطبيعة والفطرة الأولى حيث الحرية والمساواة حتى لقد ثبت فى نفس قرائه البسطاء أن الشرور والمنازعات ستظل غالبة فى هذا العالم مادام بنيان تلك المدنية قائما . فاذا ما وفقوا إلى هدمه وإزالته فإنهم واجدون من ورائه دار السلام والهناء والرخاء . فهب الشعب الفرنسى فعلا واضعا نصب عينيه ذلك السراب البراق الذى أبدع روسو فى تصويره وتمنيقه حتى إذا ماحطم أسوار المدنية التى قامت دونه وجاءه لم يجده شيئا ووجد عنده الفوضى والاضطراب وضل فى سبيله ضلالا بعيدا .



روســـو

*

وأما نظرية (العقـد الاجتماعى) فمحصلها أن تاريخ الانسان ينقسم إلى قسمين : قسم سابق على وجود الحكومة وقسم لاحق لها .

أما فى العصر الأول فكان الانسان فى حالته الطبيعية غير مقيد بقوانين وضعية ولا خاضع لغير أحكام القانون الطبعى المنبث فى نفس كل إنسان بمقتضى الفطـرة ولكن الانسان اضطر إلى الخروج من هذه الحالة الطبيعية واتفق مع بنى جنسه على إيجاد نظام اجتماعى يخضع فيـه كل فرد إلى حكم المجموع مقابل قيـام المجموع بحمايته وتنازل فيه عن حريته الطبيعية مقابل تمتعه بالأمن المكفول له من بنى جنسه . وبذلك أبدل القانون الطبعى بقوانين بشرية وأصبح على الأفراد واجبات للمجتمع ولهم حقوق قبـله . وهـذا الاتفاق يشبه التعاقد ومضمونه كما رأيت مبادلة واجبات بمـزايا (١) .

ولقد تناول هذه النظرية غير روسو كثير من الكتاب والفلاسفة ولكن كان كل واحد منهـم يصوغها فى القالب الذى يطابق هواه تأييدا للمذهب السياسى الذى يريد الدفاع عنه .

---

(١) مذكرات احمد بك أمين فى علم سياسة الدول .

وكان مبدأ روسو الذى ينادى به ويدعوا إليه هو "سيادة الأمة" فصاغ النظرية فى القالب الذى يتفق مع هذا المبدأ . فقال إن حالة الطبيعة الأولى كانت أسعد حالات الانسان لأنه كان متمتعا فيها بكل حريته وقواه ثم كثر بنو الانسان ، واشتبكت مصالحهم فوقع بينهم التنافس ووجد بين الناس الغنى والفقير والقوى والضعيف وزادت عوامل الشرور باعتداء بعض الأفراد على بعض حتى كادت تقوى عاطفة الشر المكتسبة على عاطفة الخير التى فطر عليها الانسان . فاضطر إلى مغادرة هذه الحالة الطبيعية وتكوين مجموع يتعاون أفراده للتغلب على تلك الصعاب التى أصبحت تعترض بقاء الفرد وسلامته والتى أصبح لا قبل للفرد بالتغلب عليها وحده فتنازل كل فرد عن حريته وحقوقه الطبيعية الى ذلك المجموع وتعهد المجموع بصيانة هذه الحقوق ومنع اعتداء الفرد على الفرد . وبذلك تمت المساواة بين الجميع لأنه إذا أطاع كل فرد المجموع فكأنما أطاع نفسه وبقى حرا كما كان . وكان من نتيجة هذا التعاقد إيجاد "إرادة عامة" هى إرادة المجموع أو إرادة الأمة صاحبة السلطة على الجميع . أما الملك فليس طرفا فى العقد وانما يتولى منصبه بارادة المجموع فهو وكيل عن الأمة صاحبة السلطة ومنفذ لادارتها ولذلك كان من حقها عزله متى شاءت لأنها هى التى ولته .

ومن السهل الهين أن يقدّر الانسان بأى حماسة قوبلت هذه الآراء التى تجعل الأمة فوق الحكومة من شعب كالشعب الفرنسى الذى كان ينقم من ملوكه استبدادهم ويسخط عليهم لتفريطهم فى القيام بواجباتهم .

على أنه يجدر بنا قبل أن نختتم هذه الكلمة عن الحكومة ونشأتها أن لاننسى أن النظريات السابقة كلها ولا سيما نظرية (العقد الاجتماعى) لم تزد على كونها أراء خاصة قصد بها أصحابها تأييد نوع من الحكومة كانت لهم مصلحة فى تأييده وأن معظمها لا أساس له من الحقيقة وأن التاريخ لم يرو لنا متى وقع هذا العقد الاجتماعى مثلا . ولا كيف نزل الوحى على الملوك بتفويض السلطة إليهم نيابة عن الله سبحانه وتعالى ولا غير ذلك .

وربما كانت أقرب تلك النظريات الى الصحة نظرية التطور الاجتماعى كما أنه أقرب إلى الصواب أن أول حكومة ظهرت فى التاريخ كان ظهورها بعد أن عرف الانسان الأول فن الزراعة واستبدل حياة البداوة وانتجاع الكلأ والتنقل المستمر فى الغابات بحياة الاستقرار والتقيد إلى جانب حقله واحتياجه الى من يحرس له زراعته ويحمى ملكه ، ويدفع عنه غارات جيرانه .

(٦) أنواع الحكومات :

لما كانت الثورة انقلابا فى الحكومة كان من الواجب على من يدرس تاريخ ثورة من الثورات أن يكون ملما بأنواع الحكومات ليعرف حقيقة الانتقال الذى أحدثته الثورة .

والحكومات أنواعها كثيرة ولكنها يمكن إجمالها فى قسمين رئيسيين وهما :

(١) الحكومة الاستبدادية .

(٢) الحكومة الديمقراطية .

فالأولى ما انحصرت قوة السلطان فيها فى يد فرد واحد والثانية ما كانت قوة السلطان فيها فى يد جمهور الأمة أو نوابهم .

ثم إن الدول الاستبدادية قد تكون (ا) مطلقة أو (ب) مقيدة .

وهذه فى الحقيقة تفرقة سطحية لا ترجع الى أساس تركيب الحكومة وانما يراد بالأولى الدولة التى لا يتقيد الحاكم فيها بشىء من القوانين فتكون شريعته هواه ودستوره إرادته . ومن الصعب التمثيل لهذا النوع الآن لأن لكل دولة شيئا من النظم تسنها لتجرى عليها ولو الى أجل .

ويراد بالثانية الدولة التى أخذ حاكمها على نفسه إدارة الأمور على مقتضى قوانين يشرعها لتنظيم الأعمال . ولكن بقاء هذه القوانين على كل حال أو زوالها معلق على محض مشيئته [(١)] .

وقد كان هذا شأن معظم الحكومات قبل القرن التاسع عشر . وأقربها الى عهدنا حكومة قيصر روسيا وسلطان تركيا وشاه الفرس . وكلها قد زالت بعد الحرب العظمى ولكن ما زال الحكم المطلق قائما فى سيام وفى بعض إمارات الهند .

وأما الحكومة الديمقراطية فتنقسم بدورها الى (أ) ملكية دستورية و (ب) جمهورية .

فالأولى ما كانت الرياسة الاسمية فيها للملك يتولى العرش وراثة عن آبائه ، والثانية ما أسندت فيها الرياسة لحاكم غير وراثى يتقلد منصبه لأجل معين أو طول حياته .

وفى الحكومة الدستورية يحكم الملك أمته بالاشتراك مع البرلمان ويكون تحديد سلطة كل واحد من الشريكين بواسطة قانون الدولة النظامى أو «الدستور» وليس للملك أن يحيد عن قواعد هذا الدستور بعد أن يعترف به ويقسم اليمين على احترامه والعمل بقواعده .

(١) كتاب (ليكوك) فى علم سياسة الدول .

والحكومة الانجليزية أقدم الحكومات الملكية الدستورية فى العالم وقد هدّمت الحرب الأوربية أكثر من عشرة عروش كان ملوكها دستوريين اسما ولكنهم لم يحترموا قواعد دستورهم وساروا على غير رأى الأمة التى يتولون أمرها . فلم يحمهم الدستور لهذا السبب . وانما بقى بعد الحرب الملوك الدستوريون بالفعل . وهؤلاء ما زالت عروشهم ثابتة لم تتزعزع .

وأما فى الحكومة الجمهورية فان السلطة تكون فى يد الشعب الذى ينتخب رئيسه بنفسه والذى تكون الرياسة فيه موكولة الى شخص يستخدمه الشعب لتولى هذه الرياسة . ويكون له حق عزله كما أنه هو صاحب الحق فى توليته وهذا النظام الجمهورى هو الوجهة التى توليها معظم الحكومات فى الوقت الحاضر .

ولقد قامت الثورة فى فرنسا على حكومة ملكية كانت السلطة فيها بيد ملك مستبد يعين وزراءه ويعزلهم كيف شاء ويمحو ويثبت من قوانين دولته ما أراد ، فقلبتها أوّلا الى حكومة ملكية دستورية ، وأصبحت السلطة فيها مشتركة بين الملك ونواب الأمة ثم ما لبثت أن قلبتها مرّة أخرى الى جمهورية كان الشعب فى أوّل أيامها صاحب السلطة المطلقة . ولو صح لنا أن نسمى الأشياء بحقيقة أسمائها لكانت هذه الجمهورية الفرنسية الأولى خير

مثال للحكومة الدكتاتورية ، وأوضح مثال لالتقاء الأضداد ؛ حيث فر الشعب الفرنسى من استبداد ملوكه وارتمى فى أحضان زعمائه الذين تولوا الدكتاتورية عليه واحدا بعد واحد ، وجعلوا شعار جمهوريتهم الجيلوتين !

(٧) الإقطاع :

كانت أغلبية الحكومات فى (القرون الوسطى) وهى الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الرومانية فى الغرب وابتداء النهضة الحديثة (٥٠٠ — ١٣٠٠ م تقريبا) من النوع الاستبدادى الذى يحكم فيه الملك رعيته بمحض مشيئته و يتصرف فى شئونهم تصرف المالك فى ملكه ، وكان يحيط بالملك أمراء الدولة وأشرافها الذين لهم الامتياز على من عداهم من طبقات الأمة ؛ فكان يحدث أحيانا فى بعض الممالك أن يجلس على العرش ملك ضعيف ليس فى قبضته من القوة ما يستطيع معه أن يحتفظ بسيادته على أولئك الأشراف فكانوا يظهرون بنفوذهم عليه ويتولون السلطة من دونه وتنعكس الآية فيصير الملك لهم تبعا ويذعن لرغباتهم و يقطعهم القطائع الواسعة لتكون لهم ولذريتهم وليتولوا الأمر فيها كما لو كانوا ملوكا عليها . ولا يكون للملك

غالبا بعد ذلك من حق على هؤلاء الأشراف إلا أن يمدوه بالمال يجبونه من قطائعهم وإلا أن يقدّموا له الجنود يجمعونها من رجالهم ويبقى لهم هم السيادة فى تلك القطائع يفصلون فى خصومات الناس ويتولون حمايتهم من عدوان غيرهم عليهم . ولذلك كانوا يقيمون فى أراضيهم الحصون ويشيدون القلاع ويتخذون الجند والحرس ويجبون الضرائب وكثيرا ما كان يشتد بأس واحد من هؤلاء الأشراف ويكثر أعوانه فيطمع فى ملك من يجاوره فيشن عليه الغارة ويغزو أرضه ويضم قطيعته الى ملكه . ويعرف هذا النظام باسم النظام الإقطاعى .

وكان عهد الإقطاع مملوءا بالحروب الأهلية المتسلسلة التى يثيرها الأشراف بعضهم على بعض فلا تكاد تخبو نار الحرب فى ركن من أركان الدولة حتى تدور رحاها فى جانب آخر من جوانبها . ولقد عانى الملوك المصلحون الذين جاءوا بعد ذلك عناء عظيما فى القضاء على هؤلاء الأشراف والتخلص من امتيازاتهم وإعادة الرخاء والسلام الى بلادهم التى أرهقتها حروبهم وأعنت أهلها نظام السخرة الذى كان منتشرا فى عهد سلطانهم .

ولقد بقى هذا النظام سائدا فى فرنسا حتى أدركه لويس الحادى عشر (١٤٦١ — ١٤٨٣) فجعل دأبه أن يستعيد السلطة

من أشراف فرنسا ويركزها فى يد الملك ، ولقد أصاب فى هـذا المسعى شيئا كثيرا من التوفيق . فلما أصبح الأمر لرشليو (١٦٢٤ — ١٦٤٢) كاد يأتى على مابقى من نفوذ الأشراف بما سن من المرسومات التى تحدّ سلطانهم وتهدم شوكتهم حيث أمر بإزالة الحصون والقلاع ونظم جيشا مستديما يركن اليه وقت الحاجة وجاءت الضربة القاضية عند ما استبدل بالأشراف غيرهم فى جميع الأقاليم ووضع مكانهم حكاما ينصبون من قبل الملك مباشرة [١] .

وجاء بعد ذلك لويس الرابع عشر فكان لا يرى فى الأشراف الا أنهم زينة لمجالسه ومواكبه وبذلك قضى على كل استقلال كانوا يعتزون به ودعاهم اليه صاغرين فى قصره بفرساى وعلمهم كيف يجب أن ينكروا أمام عظمته كل عظمة سواها ، وكيف يتقربون اليه بعبارات هى أقرب الى العبادة منها الى الملق . وهكذا انعدم نفوذ الأشراف حتى لم يبق لهم فى عهد الملك لويس السادس عشر الا بعض امتيازاتهم القديمة كحقوق الصيد وجباية الضرائب الاقطاعية واختصاصهم ببعض المناصب السامية وإعفائهم من دفع الأموال الأميرية ، ولقد كان الأشراف يتمتعون

(١) تاريخ أوربة الحديثة تأليف عمر السكندرى وسليم حسن .

بهذه الامتيازات وأمثالهـا أيام سطوتهم ومجدهم فى نظير ما كانوا يقومون به من الواجبات العامة كواجب الدفاع والنظر فى خصومات الأفراد وغير ذلك . وكان الشـعب يغضى عن تلك الامتيازات المرهقة ولا ينازعهـم فيها لمـا كان عليهم أن يقوموا به نحوه من الخدمات . فلمـا ضعف نفوذهم وهلك عنهم سلطانهم ، وتولت الحكومة عنهـم حراسة الشـعب والقيام على مصالحه واسـتنارت عقول الشعب بمـا كتبه الفلاسفة ، كان بقاء امتيازاتهم لهم تحديا لشعور الطبقات الأخرى و إحراجا لصدورهم وأثقالا لمـا يقع على كواهلهم من التكاليف العامة ؛ وكان ذلك من أهم العوامل التى حركت الثورة فى نفوس الناس ودفعتهـم الى المطالبة بالغاء هـذه الامتيازات ، ثم بمطاردة أصحابها وتعقبهـم حتى لم يبـق على ظهر فرنسا منهم شريف .

(٨) حقوق الأفراد :

فى ٢٦ أغطس سنة ١٧٨٩ قررت الجمعية الوطنية فى فرنسا مبادئ « حقوق الانسان » لأنهـا رأت أن ما ينزل بالمجتمع الإنسانى من المصائب والشقاء وفساد الحكومات يرجع الى سبب واحد وهو جهل هذه الحقوق أو تجاهلها أو العبث بها ، فأصدرت الجمعية بها بيانا عاما يكون أساسا لمطالب الشعب وقواما لنصوص

الدستور وضمانا لسعادة المجموع ، وكانت أوّل قاعدة قررتها الجمعية أن الناس يولدون و يعيشـون أحرارا متساوين في الحقوق . ثم قررت غير ذلك من القواعد ولكنها كلها جاءت تخصيصا بعـد تعميم وتفريعا من هذا الأصل الشامل، اذ نص فيه على حقين من أظهر حقوق الانسان وأهمها أعنى حق الحرية . وحق المساواة .

واذا ذكرت الحرية فلا ينبـغى أن يخطر بالبال أنهـا الحرية المطلقة ، فالحرية المطلقة ليس لها الا معنى واحد وهو الفوضى . إذ لو ترك كل انسـان يفعل ما يشـاء دون أن يحول بينـه و بين غرضه حائل فإنه سـيرى نفسـه فى أقرب حين وقد تعارضت رغبته مع رغبات غيره ، والأمر يومئـذ للقوى القادر فهو وحده الذى يتمتع بالحرية المطلقـة و يبقى حوله العجـزة الضعفاء وليس لهم من الحرية الا ما يتركه لهم الأقوياء .

وكذلك المساواة فهى مسـتحيلة على إطلاقها اذ الفروق بين بنى الانسان كبيرة وليس فى اسـتطاعة أية سـلطة محوها مهما بلغ نفوذها ما دامت الطبيعة قد فرقت بين الناس فى المواهب والمدارك .

اذن لا بد من تحـديد الحرية وتحديد المساواة بمـا يتفق مع المصلحة العامة لا مصلحة الأفراد .

فالحرية الصحيحة الممكنة هى أن يكون لكل انسان الحق في أن يفعل ما يشاء ما لم يترتب على فعله انتقاص حرية الغير . والحرية بهذا المعنى لا تنافى وجود السلطة بل هى لا تتم إلا بها، اذ هى الكفيلة بمنع عدوان الأفراد بعضهم على بعض ، ووقف حرية كل فرد عند الحدّ الذى لا تتعارض فيه مع حرية غيره .

وللحرية مظاهر متعدّدة أهمها :

(١) الحرية الشخصية — وهى أن يكون الانسان حرا في غدوّه ورواحه وألا يكون عرضة للقبض عليه ما لم يكن لذلك مسوّغ من القانون .

(٢) حرية المسكن — وذلك ألا يباح لأحد الدخول في مسكن من المساكن الخاصة إلا فى الأحوال التى يجيزها القانون .

(٣) حرية الملك — أن يكون الانسان حرا فى اقتناء مايشاء وألا يحرم منه إلا بمسوّغ من القانون .

(٤) حرية العمل والصناعة والتجارة — وهى أن يكون للانسان أن يشتغل بما يشاء من الأعمال وأن يتجر بما يشاء من السلع إلا ما حرمه القانون .

(٥) حرية الفكر — أن يعتنق الانسان ما يشاء من العقائد ويجاهر بأفكاره قولا وكتابة فى حدود القانون وتشمل حرية الفكر حريات أخرى كحرية الدين ، وحرية الاجتماع والصحافة ، وحرية التعليم والتعلم .

أما المساواة فقد اتفق الناس كذلك على تحديدها وقالوا بوجوبها فى الأحوال الآتية :

(١) المساواة فى القانون — بحيث توضع نصوصه لكل الناس وما يقرره القانون كحق يكون حقا للجميع على السواء .

(٢) المساواة أمام القضاء — فلا ينبغى أن يميز فى المعاملة بين الغنى والفقير ولا أن توجد جهات قضاء مختلفة للطوائف المختلفة .

(٣) المساواة فى الضرائب — فيشترك فيها جميع الأفراد كل بنسبة ثروته .

(٤) المساواة فى الوظائف — بأن تكون حقا للجميع على السواء متى توفرت فيهم الكفاءة المطلوبة فلا يحول دين الانسان أو رأيه أو انتماؤه الى طبقة خاصة من أن يشغل أى منصب من مناصب الدولة تؤهله له كفاءته .

---

*

الباب الثانى

أســـباب الثورة الفرنســية

الفصل الأول

حالة الشعب الفرنسى قبل الثورة

(١) التفرقة بين الطبقات :

كان الشـعب الفرنسى ينقسم الى ثلاث طوائف متميزة : (الأولى) طبقة الأشراف. (والثانية) طبقة رجال الدين. (والثالثة) طبقة العامة .

فأما طبقة الأشراف فإنها كانت لا تزال تتمتع بكثير من امتيازاتها التى ورثتها عن عهد الإقطاع والتى كانت فى مقدمة ما يشكوه الشعب الفرنسى من آثار العهد القديم . ولقد اطلعت

على كراسة احتجاجات قدمها أهالى منطقة (كاركاسون) الانتخابية الى الملك لويس السادس عشر وضمنوها بيان شكاياتهم المختلفة وليس أفصح من هذا المستند التاريخى فى الدلالة على ما كان عليه الشعب الفرنسى فى ذلك العصر من سوء الحال — وها أنا أنقل اليك ما جاء فى هذه الكراسة لتسمع بأذنك أنة من تلك الأنات البائسة التى كانت تذهب أدراج الرياح :

« إن الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون تريد أن تقدم الدليل الثابت على ولائها واحترامها لمليكها المحبوب وأن تتعاون مع الأمة بأسرها فى تدارك النكبات المتعاقبة التى حلت بالبلاد وخيمت عليها منذ زمان بعيد أملا منها فى إحيائها وٱستعادة مجدها التالد بأن تصرح لجلالتكم أنها على يقين من أن سعادة الشعب مرتبطة بسعادة مليكه وثبات حكومته والمحافظة على النظام والقانون .

« ونظرا لما فى تقدير الدين وٱحترام الحرية المدنية والمحافظة على حقوق الملكية والاستناد الى أساس عادل فى تقدير الضرائب وفرضها واتباع وسائل الاقتصاد فى نفقات الحكومة ، والأخذ بسبل الإصلاح فى جميع فروع الادارة من العوامل التى لا بد من توافرها لصيانة الحكومة الملكية واستقرارها ، تتقدم الطبقة الثالثة من منطقة كاركاسون الانتخابية بكل خضوع الى جلالتكم راجية أن

توضع هـذه المسائل كلها موضع اعتباركم السـامى وتوزن بميزان تقديركم الحكيم لينشرح صدر الشعب بقيام دليـل على اهتمامكم بشئونه وتوليكم له بحسن رعايتكم .

« ولما كانت قد صـدرت أوامر جلالتكم بوجوب رفع شكاياتنا الى مسامعكم الأبوية وعرض ما يلتمس لهـا من وجوه العلاج فانا نعتقـد أننا نقوم بالواجب علينا حينما نلجأ الى ما يكنه صدركم من العطف والعدل نحو شعبكم بعرض ما يأتى :

(١) ينبغى ألا يقام جهارا من الشـعائر الدينية إلا ما كان خاصا بالمذهب الكاثوليكى .

(٢) ولكن لا ينبغى أن يكون لذلك أدنى مساس بمـا لغير الكاثوليك من الحقوق الدينية .

(٣) ينبغى أن يوقف دفع ما هو مفروض على فرنسـا للبابا من المخصصات السنوية .

(٤) ينبغى ألا تفرض على الأمة ضريبة إلا بعد موافقتها على تحصيلها .

(٥) وأن يوضع نظـام معين محدود لانعقاد الجمعيـة العموميـة .

(٦) ولكى يتوفر للطبقة الثالثة ما هو حق لها من الدفاع عن مصالحها ينبغى أن يؤخذ عند الاقتراع على المشروعات بنظرية التصويت الفردى .

(٧) لا حق لطائفة أو جمعية أو فرد فى أن يعفى من دفع الأموال الأميرية بل ينبغى أن يكون نظام الضرائب عاما على الجميع .

(٨) ينبغى أن تلغى القيود التى تحرم أهل الطبقة الثالثة من الحصول على بعض الوظائف والرتب التى تعتبر للآن وقفا على الأشراف وذريتهم . ولا بد من صدور قانون يفسح لأهل الطبقة الثالثة طريقا الى هذه المراكز ما دامت تتوفر فيهم الكفاءة لها .

(٩) نظرا لما بين الحرية الفردية والحرية القومية من الصلة الوثيقة نلتمس من جلالة الملك أن يوقف العمل بنظام (الخطابات المختومة) التى تقضى على الحرية الفردية وترمى الى السجن بأى إنسان من غير تحقيق ولا محاكمة » .

هذا بعض ما ورد فى تلك الكراسة من المطالب وكل واحد من هذه المطالب يعتبر علاجا لشكاية من شكايات الشعب .

(٢) الخطابات المختومة :

ولكى تقف على تاريخ هذه الخطابات المختومة التى ورد ذكرها فى الفقرة الأخيرة وتعرف مقدار خطرها أورد لك فيما يلى ترجمة

الاحتجاج الذى قدمته إحدى المحاكم الفرنسية للملك لويس الخامس عشر فى شأن رجل اسمه "مونرا" اتهمه جباة الضرائب بالتهريب لحصلوا من الملك على (خطاب مختوم) استعانوا به على القائه فى السجن حيث بقى عشرين شهرا ثم خرج فرفع الدعوى على أولئك الجباة يطالبهم بتعويض مالى باهظ نظرا لأنه حبس ظلما لمجرد اشتراكه فى الاسم مع غريم الجباة الذى كان يقصد حبسه . فلما قضت له المحكمة بالمبلغ الذى طلبه احتمى الجباة (بمجلس الملك) فألغى الحكم . فأحدث ذلك فى نفوس الناس ولا سيما المحكمة التى أصدرت الحكم اشمئزازا ترى مرارته فى عبارة الاحتجاج التالية التى وجهتها للملك على أثر هذا الحادث :

« مـــولاى :

نظرا لما يحول دون قيام هـذه المحكمة بواجبها القضائى من العقبات الغير الشرعية والتى لا يمكن أن تصدر عن جلالتكم شخصيا . نرجو أن نرفع بكل خضوع واحترام هذا الاحتجاج .

قبض جباة الضرائب على رجل اسمه "مونرا" من غير مراعاة الاجراءات القانونيـة التى يجب اتباعها فى مثل هـذه الأحوال . وألقى الرجل فى السجن بعد ذلك بقليل حيث قضى عشرين شهرا . وكان ذلك بناء على أمر صادر باسم جلالتكم ولسنا نقدم هذا

الاحتجاج على طول المدّة التى قضاها ذلك الرجل فى سجنه ولكن ذلك السجن يشتمل على حفر معتمة أعدّت للجرمين الذين صدر عنهم عفو بعد الحكم عليهم بالاعدام وكان سبب العفو اعترافهم على زملائهم الذين اشتركوا معهم فى جرائمهم . ولعل الدافع الى الحكم عليهم بالحياة فى هذه الحفر هو حملهم على أن يختاروا لأنفسهم الموت راضين بعد صدور العفو عنهم . ولما كان لا بد من توصيل شىء من الهواء الى تلك الحفر مع بقائها فى ظلام حالك ركبت فيها أنابيب توصل اليها القليل من الهواء دون أن تسمح بنفاذ شىء من الضوء وكان يشد وثاق أهل تلك الحفر الى جدرانها بسلسلة ثقيلة ؛ ولم يكن يسمح لهم فيها بغير شىء تافه من القش والخبز القفار . ولا شك أنكم ترون جلالتكم أن تهمة التهريب لا تكفى لأن يطرح انسان فى هذا القبر المريع شهرا واحدا .

ولقد روى "مونزا" نفسه — وأيد قوله الشهود — بأنه بعد إخراجه من هذا الكهف الدفين أدخل غرفة أخرى أقل منه ظلاما وقضى فيها زمنا غير قصير . ولقد كان هذا الاحتياط لصالح السجين نفسه فقد دلت التجارب الأليمة السابقة على أن من الخطر البين أن يبعث الانسان دفعة واحدة من جوف تلك الحفر الى ضوء النهار والهواء الطلق .

فلما خرج مونزا من سجنه رفع الدعوى على الجباة يطالبهم بالتعويض على ما وقع له لا سيما وهو ما برح يؤكد أثناء سجنه وبعد ذلك أنه لم يكن هو المقصود بالسجن ولا شك أن جلالتكم وأنتم تصدرون أمر الحبس لم يكن فى نيتكم أن يبقى المتهم نزيل السجن زهاء عامين حتى تجتمع الأدلة على إدانته .

ومع ذلك فقد جرت عادة الجباة كلما اتهموا إنسانا بالتهريب وأعوزهم الدليل القاطع على إثبات التهمة عليه أن يلجأوا الى استصدار أوامر جلالتكم المعروفة باسم « الخطابات المختومة » لتوقيع العقاب على ذلك البائس .

وهكذا تكون هذه الأوامر التحكمية سببا فى انتهاك أقدس الحريات ويسير ضحيتها الى قبره وهو لا يعلم من الذى يطارده . فاذا كان يستطيع من يحصل على هذه « الخطابات المختومة » أن يحتمى بجلالتكم من أحكام القضاء فكيف يتسنى لنا يا مولاى أن ندعى أننا نعيش فى حماية القانون وتحت ظله لا سيما بعد أن كثر استعمال هذه « الخطابات » وأصبحت تمنح لكافة الأغراض ولاعتبارات شخصية محضة . لقد كان استعمال هذه الخطابات يا مولاى فى بدء الأمر قاصرا على الحالات السياسية وكان من واجب المحاكم إذ ذاك أن تحترمها وترضخ لأحكامها ولكنها لم تلبث

أن تطوّرت فأصبحت تمنح فى حالات خاصة يتأثر فيها الملك بدموع أسرة تخشى على سمعتها الفضيحة والعار (كما كان يحدث عند ما يلوث بعض الأبناء سمعة أسرتهم بسوء سلوكهم). أما اليوم فقد أصبحت ضرورة لازمة كلما لحقت بعض ذوى الاعتبارات أية إهانة من أحد العامّة كأن ليس لدى هؤلاء (المعتبرين) ما يكفيهم من الامتيازات !

وإن كثيرا من هذه الأوامر التى توقعونها جلالتكم تحمل من الأسماء النكرة ما لا يمكن أن يكون قد وصل يوما الى سمع جلالتكم وذلك لأنها تحت تصرف وزرائكم بل وكتاب وزرائكم أيضا كما يبدو من كثرة ما يوزع منها . ولا شك أنها أصبحت تصل الى كثير من الأيدى بعد أن رأيناها فى يد الجباة . وفى يد عملائهم ووكلائهم .

والنتيجة يا مولاى أن أحدا من أفراد رعيتكم لن يشعر بأنه آمن على حريته مع وجود هذه « الخطابات » إذ من ذا الذى يدعى العصمة من الوقوع يوما ما فيما يدعو الى غضب بعض الوزراء أم من ذا الذى تبلغ به الضعة أن لا يحتك بكاتب أو عامل من عمال الخراج ؟ سوف يأتى يا مولاى ذلك اليوم الذى ترون فيه من سوء أثر «الخطابات المختومة» ضرورة القضاء على هذا النظام الذى

لا يتفق مع قوانين المملكة وروح الحرية التى يجب أن يتمتع بها رعاياكم . اهـ [1] .

(٣) حق الصيد :

ولقد تردّد على فرنسا فى تلك الفترة سائح انجليزى اسمه أرثريَنج (Arthur Young.) ووصف حالة الشعب الفرنسى ، وما كان فيه من الجهل والضنك ؛ وحالة بعض البلاد وما كانت عليه من الحقارة والقذارة . وفيما يلى بعض ما كتبه عن حق الصيد الذى كان يتمتع به الأشراف :

كان الملك يمنح أمراء بيته حق الصيد فى ضيعة من الضياع لا هى من ملك الملك ولا هى من ملك الأمير . وكان معنى هذا الحق أنه يصبح محظورا على أى انسان غير هذا الأمير أن تمس يده شيئا من الصيد الذى يوجد بهذه الضيعة طيرا كان أم وحشا . وكثيرا ما كان ذلك سببا فى تلف الزراعة كما كان أيضا سببا فى تعمير السجون بأصحاب الحقول التعساء الذين كانوا يقدمون على قتل تلك الحيوانات إبقاء على ما تخرجه الأرض من طعام نزر لهم ولأبنائهم البائسين .

---

(١) Readings in European History. (Robinson.)

وكان يتمم هـذه الحقوق عدة لوائح توجب على أصحاب تلك الضياع أن يحافظوا على الصيد فكان ممنوعا عليهم تنظيف الحقول وتنقيتها مما ينبت فيها من الحشائش خشية تنفير أفراخ الطير وكان محظورا تسميد الحب خشية أن يكون فى ذلك أذى للطيور وكان لا يجوز قطع البرسيم وغيره قبل موسم خاص كان تأخره يضر بكثير من الحاصلات كما كان لايسمح بتقليع الجذور من الأرض اذا كان بقاؤها ينفع الطيور كمثوى تأوى إليه .

(٤) تعاسة العامة وبذخ الأشراف .

ذلك ماقاله (يونج) عن حق الصيد . ودونك ماقاله أيضا عن باريس ووصف شوارعها فى سنة ١٧٨٧ :

« إن هـذه المدينة العظيمة هى آخر مدينة تصلح للاقامة فيها بين كل المدن التى زرتها . فالطرقات غاية فى الضيق . وكثير منها شديد الازدحام وتسعة أعشارها قذر وكلها من غير إفريز يسير عليه المـارة فى راحة واطمئنان والمشى الذى يمتاز فى مدينة لنـدن بأنه لذيذ نظيف حتى إن السـيدات يخرجن للتروض به كل يوم هو فى هذه المدينة عناء ومشقة تثقل كاهل الرجال . أما السيدات فمن المستحيل أن تقدم منهن واحدة على هذه الرياضة وعليها ثوب

نظيف . والعربات كثيرة العـدد ولكن ما هو شر من ذلك كثرة العجلات ذات الحصان الواحد التى يسوقها (فتيان العصر) كالمجانين، بسرعة مزعجة تجعل عابر السبيل فى خطر محقق . ولقد شاهدت بعينى إحدى هذه العجلات تدهس صبيا وربما تكون قد أزهقت روحه .

أما عن نفسى فقد كثر ما أصابنى من رشاش الوحل الذى ترمى به هذه العجلات » اهـ .

وليس أفكه بعد هذه الصورة القذرة من أن أقدم لك رسالة كتبتها (مدام دى سيفينى) تصف فيها سويعات من زيارة قام بها الملك لويس الرابع عشر لقائده العظيم (أمير كوندى) فى (شانتيلى) كيما ترى الفرق بين حياة الطبقتين . حياة العامة . وحياة الأمراء وعلى رأسهم الملك :

« وكان الطريق مفروشا بزهر النرجس ، وسار كل شىء على ما يرام، ثم جاء العشاء ولم يكف الشواء نظرا لحضور ضيوف لم يكن يتوقع أحد حضورهم، فطار لذلك لب (فاتيل) — أمير الطهاة — ولقد سمعته يصيح أكثر من مرة . (لقد قضى على شرفى ولن تقوى نفسى على احتمال هـذه النكبة) وسمعته يقول (لجورفيل) "أحس بمخى يسبح فى جوف رأسى . لم أنم منذ اثنتى عشرة ليلة،

ساعدنى فى تنفيذ أوامرى" . فواساه جورفيل بأرق الحديث ، ولكن الشواء الذى لم يقدم على المائدة — لا مائدة الملك ولكنها المائدة الخامسة والعشرون — كاد يذهب بعقله .

وحمل جورفيل الخبر إلى القائد الأمير . فذهب (كوندى) إلى غرفة (ڤاتيل) الخاصة وقال له : " كل شىء على ما يرام ياڤاتيل . ولا شىء أحسن من عشاء الملك هذا المساء" . فأجابه شيخ الطهاة :

— " يا مولاى إن رقتك تخبلنى . إنى أعرف أن الشواء لم يقدم على مائدتين ! " .

— " لا شىء من ذلك يا رجل ! لا تزعج خاطرك . إن كل شىء على ما يرام ! " .

وانتصف الليل ، ولم تنجح الألعاب النارية لأن سحابة ظللتها (وكانت تكاليف هذه الألعاب ١٦,٠٠٠ فرنكا) وفى الساعة الرابعة صباحا كان ڤاتيل حائرا حائما يجول فى كل مكان والناس جميعا فى سبات عميق . فالتقى بمتعهد صغير ومعه حملان من السمك فسأله : أهذا كل شىء ؟ فأجاب الرجل : نعم يا سيدى ! ولم يكن يعرف أن ڤاتيل أرسل الى جميع الموانى الفرنسية فى طلب السمك لوليمة الملك . وانتظر ڤاتيل قليلا ولكن لم يرد من المتعهدين الآخرين

أحد . فاضطربت أعصابه وظن أنه لن يحصل على غير ما حمل اليه هذا المتعهد من السمك . والتقى بجورفيل فقال له . "لن أستطيع الحياة يا سيدى بعد هـذا الخزى العظيم" . فضحك من كلامه جورفيل . غير أن ڤاتيل صعد الى غرفته ووضع سيفه فى الباب ثم أقبل عليه بصدره فأغمده فيه . ثم خر على الأرض قتيلا !

وفى خلال ذلك كان السمك يتوافد من كل فج والناس يبحثون عن ڤاتيل لتوزيعه . فصعدوا اليه فى غرفته وطرقوا بابها ثم كسروه فوجدوا المسكين غارقا فى دمه ، فأرسلوا الى الأمير فتملكه اليأس وحمل الخبر الى الملك العظيم وهو يقطر حزنا . واتفق الجميع على أن المأساة ترجع الى أن مستوى الشرف الذى كان يعمل ڤاتيل بمقتضاه كان من السمو بمكان وامتدحوا شجاعة الرجل ! وان كان لم يخل من لومهم إياه . وقال الملك إنه أخر موعد هذه الزيارة خمس سنوات لعلمه بما سوف تحدثه من المشقة الهائلة ثم قال للأمير إنه كان ينبغى عليه أن يعد مائدتين اثنتين دون أن يثقل كاهل نفسه بحمل مسئولية كل انسان وانه لن يسمح للأمير بأن يفعل ذلك مرة أخرى ! ولكن هذه التدبيرات جاءت متأخرة جدا بالنسبة لڤاتيل المسكين .

على أن جورفيل حاول أن يسد مسد ڤاتيل ونجح فعلا فى ذلك فكان الغـذاء فاخرا ، وكذلك كان العشاء . ولقد قام الجماعة فمشوا

ولعبوا وخرجوا للصيد . وكانت رائحة النرجس تملأ الجو ، وكان كل شيء على ما يرام ! " اهـ .[1]

هكذا كان الفرق جسيما بين حياة الطوائف فى فرنسا . فالأمراء والملوك فى كظة متخمة والعامة من تحتهم فى مخمصة مؤلمة . وهكذا كان يعيش أهل الطبقة العليا على لحوم الطيور المغردة ، ويسيرون على أوراق الزهر الناضرة بينما كان أهل الطبقة الدنيا يعيشون فى بيوت كأوجار الكلاب لا مداخن لها ولا نوافذ . ويخطرون فى أسمال بالية لا شبيه لها إلا صبرهم الممزق النافد مما هم عليه من سوء الحال !

(٥) الفوضى العامة وفوضى الضرائب :

وخلاصة القول أن فرنسا لم تكن تشكو فى سنة ١٧٨٩ فساد النظم فيها ، ولكنها كانت تشكو عدم وجود شيء من النظم . كانت تشكو الفوضى فى كل شيء ، الفوضى فى الحكومة حيث كان للبلاد مجلس نيابى ولكنه لا يجتمع ، والفوضى فى المجتمع حيث كان الأشراف يتمتعون بامتيازات عهد الإقطاع ولا يقومون بشيء من عمل أمراء الإقطاع ، والفوضى فى الضرائب حيث كانت تجبى

(١) Readings in European History. (Robinson.)



لويس الرابع عشر

*

من فريق دون فريق وتجبى فى أوقات لا يعرفها إلا الجباة ، وبمقاديرهم الذين يقدرونها حسب أهوائهم ، والفوضى فى القوانين حيث كان لكل ولاية قانونها الخاص الذى يخالف قانون جاراتها ، والفوضى فى التجارة حيث كانت تجبى الرسوم والجمارك على السلع التى تنتقل من ولاية الى أخرى كما لو كانت خارجة من حدود البلاد كلها أو داخلة اليها .

على أن أقسى صنوف هذه الفوضى كانت فوضى الضرائب ، فقد كان توزيعها غاية فى الظلم وسوء التدبير ؛ كان الأشراف يملكون نصف أرض فرنسا تقريبا وهم لا يزيدون عن ٣٠٠,٠٠٠ بينما كان النصف الثانى ملكا للشعب وعددهم يربو على ٢٥ مليونا . ومع ذلك فكان الأشراف لايدفعون شيئا من الضرائب على أرضهم فى حين كان يدفع الفلاح ضريبة ثقيلة فادحة عما يملك . ولقد كان الفلاح يدفع هذه الضريبة على عقاره ويدفع ضريبة غيرها على الملح اسمها (جابيل) وكانت الحكومة تحتكر بيع الملح فى ذلك الوقت وتفرض على كل انسان أن يشترى منه قدرا معلوما كل عام سواء أكان فى حاجة اليه أم لا حاجة له به . وكان الثمن على الرغم من تحديد الحكومة له يختلف باختلاف الأقاليم . فأقبل الناس على تهريبه من جهة الى أخرى وكانت تمتلئ السجون بمهربيه من

جزاء ذلك . وليت الأمر كان قاصرا على ذلك ولكن كان على الفلاح أن يدفع ضريبة ثالثة للكنيسة، وضريبة أخرى للشريف . ولقد قدر أن الفلاح كان يدفع من كل مائة فرنك تصل الى يديه ٥٣ فرنكا للحكومة و ١٤ للكنيسة و ١٤ للشريف، والتسعة عشر فرنكا الباقية هى التى كانت تترك فى يد المسكين لسد حاجاته وحاجات أهله (١) .

ولكن مهما يكن من بؤس الفلاح الفرنسى فلا شك أنه كان أحسن حالا من أمثاله فى البلاد الأخرى عدا انجلترا وانما قامت الثورة فى فرنسا دون تلك البلاد للأسباب الآتية :

(أولا) لما امتازت به النفسية الفرنسية من الخفة وسرعة التأثر. ولتوفر عوامل الثورة الأخرى فى فرنسا (سوء تصرف الحكومات الماضية، وهبوط سمعة الملكية، وتأثير الكتاب والمفكرين ، وسريان عدوى الثورة الأمريكية الى فرنسا عن طريق المتطوعين الذين اشتركوا فى حرب تحرير أمريكا ؛ وغير ذلك من الأسباب التى سنفصلها فى الصفحات التالية) .

(وثانيا) لأن ما كان يتمتع به الشعب الفرنسى من الرفاهية النسبية فى عهد لويس السادس عشر ووزرائه الأول المصلحين

(١) تاريخ القرن التاسع عشر للاستاذين قاسم وحسنى .

آثار فى النفوس الرغبة فى المزيد فلم يكد يتنفس الشعب الصعداء بعد لويس الخامس عشر ويتذوق طعم الحرية والاصلاح فى بدء حكم لويس السادس عشر حتى قويت رغبته فى الحصول على حقوقه كلها كاملة غير منقوصة . وقديما قيل :

* إن الطعام يقوى شهوة النهم *

*

الفصل الثانى

حكومة فرنسا قبل الثورة

---

(١) لويس الرابع عشر يستنفد موارد بلاده :

لقد بيّنا فى الكلمة التى كتبناها عن نظام الإقطاع أن حكومة فرنسا ظلّت تحت تأثير هـذا النظام عصرا طويلا كانت السلطة فيه موزعة بين الأمراء، وأن لويس الحادى عشر تمكّن من أن يردّ على المالكية شيئا من هيبتها الضائعـة . ولكن فرنسا بقيت تمزقها الانقسامات الدينيـة زمانا طويلا ، وليس فى الناس من لم يسمع بكاترين دى مديتشى أرملة هنرى الثـانى ملك فرنسـا وما وقع فى عهدها من الحوادث الفظيعة التى سببها تعصبها الشـديد للكاثوليكية وعداؤها للهيجونوت (البروتستانت) وأخص هـذه الحوادث بالذكر مذبحة سنت برثلميو سـنة ١٥٧٢ التى فنى فيهـا ما لا يقل عن ٢٠,٠٠٠ بروتستانتى .

وبقى مركز الملكية فى فرنسا من جراء تلك القلاقل مزعزعا غير ثابت حتى أدركه هنرى الرابع سـنة ١٥٨٩ فعمـل على تثبيته بمـا أوتيه من الحزم وإصالة الرأى فقضى على عوامل النزاع الدينى

الذى أنهك قوى البلاد، وسلك فى مناوأته للأشراف طريقا فعالا عنيفا سار على أثره فيه ريشليو ومزران فمهدا بذلك للويس الرابع عشر أحسن تمهيد حتى أنه لما استقل بالأمر كان لا يرتفع فى فرنسا كلها صوت الى جانب صوته ولا يعلو فيها رأس أمام عظمته، عنه وحده يصدر كل رأى نافذ واليه وحده يرجع الأمر كله .
ولا شك أن هذا الملك العظيم آنس كل هذه القوة فى نفسه وعرف مقدار سلطانه وبأسه حين قال : "الحكومة ! إنى أنا الحكومة !" بل إنه كان فوق ذلك كثيرا ! إنه كان الروح المحركة للسياسة الدولية فى عصره حتى ليسمى تاريخ القرن السابع عشر كله بعصر لويس الرابع عشر !

ولكن لا ينسى المؤرخ وهو يصور عظمة لويس الرابع عشر ويبين كيف ارتفعت سمعة الملكية فى عهده أن يصور كذلك مجهود الشعب الفرنسى التعس وهو يحاول تغذية كبرياء هذا الملك العظيم وإشباع أطماعه المنهومة، وأن يبين كيف قبضت يد لويس الحديدية على فرنسا وهى غصن أخضر وضرع درار، نخلفتها بالاسراف وكثرة الحروب عودا يابسا وعينا ناضبة .

لقد نجح لويس العظيم فى أن يجعل باريس عاصمة أوروبا وأن يملأ اسمه فراغ القرن السابع عشر بأكمله، ولكنه لم يحصل

على ما حصل عليه إلا بدم شعبه وأمواله ؛ فلم تلبث تلك الجذوة الوهاجة التى أضرمتها أنفاسه القوية أن استحالت بعد موته رمادا ولم يلبث ذلك الملك الواسع الذى كان يسنده عاتقه العريض أن انهار وآستحال أنقاضا .

(٢) لويس الخامس عشر :

(١) يقضى على سمعة الملكية

بينا كيف كانت فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر فى حالة يرثى لها وكيف كانت تئن أنينا مفجعا تحت تأثير جراحها المنهورة ، ولكن أناتها ضاعت وسط أناشيد النصر الذى أحرزه لويس ، وجروحها اختفت تحت أكاليل الغار التى غمرتها بها يداه . بيد أن الدهر دار دورته وآنقضت أيام لويس العظيم فمات ودفن ، ودفنت معه أناشيده وأكاليله ، وآنكشفت فرنسا الكليمة المسكينة على حقيقتها بين يدى لويس الخامس عشر ، فاذا هى أضيع تركة وقعت لأعبث وارث ؛ فانه لم يكن يفكر إلا فى نفسه وفى خليلاته وقضى عمره فى عبادة شهواته ، وترك الملك لعشيقاته يدرنه كما شاءت أهواؤهن المتقلبة .

ولقد انهارت السلطات المعروفة كلها فى عهد هذا الملك الخليع ، فالملكية التى كانت عالية الرأس أيام لويس الرابع عشر والتى

اجتمعت فى يدها كل السلطات تراخت وانتكس رأسها فى عهده ولم يبق للملك أية سلطة على أحد من رعيته السابقة اللهم إلا رجال صيده وخيله . وانحصرت فى هذا الوسط الضئيل دائرة عمله حتى لقد كان يقال عنه يوم لا يخرج للصيد: "إن جلالة الملك لا عمل له اليوم" .

والكنيسة التى كان يصغر أمامها كبرياء الملوك والتى كان لها من السلطة ما جعل أحد العواهل العظام يقف تحت الثلوج بملابس التكفير ثلاثة أيام سويا وهو عارى القدمين أصبحت اليوم تغتبط أن ترتمى فى أحضان تلك الملكية المتداعية لتستمد منها النفوذ .

والفرسان من الأشراف الذين كان لهم من النفوذ ما يهز قوائم العرش تحت أقوى الملوك فى الأجيال الماضية أصبحوا مشردين يأبى عليهم الملوك أن يتخذوا سروجهم وسيوفهم مرتزقا لهم ، وانزووا فى ساحات البلاط الملكى ولاذوا بكنفه وباتوا بعد حياة البطولة والشهامة يتنافسون فى ميادين الذلة والملق لينالوا الحظوة عند صاحب العرش (١) .

---

(١) French Revolution. (CARLYLE)

(ب) الكتّاب والمفكرون يكونون فى ظل غفلته رأيا عاما مستنيرا

ولكن إن تكن هـذه السلطات قد انهارت فقـد قامت على أنقاضها سلطات أخرى تتفق مع روح العصر وحاجاته ؛ فهنـاك قامت سلطة رجال القانون الذين نسجوا فيا بعـد للثورة شرائعها ووضعوا قوانينها ، وهناك قامت سلطة رجال التجارة الذين تحكموا بأموالهم فى مستقبل البـلاد ، وهنالك قامت كذلك سلطة أخرى كانت أقل السلطات ظهورا ولكنها كانت أبعدها أثرا : تلك سلطة رجال الأقلام الذين خلقوا بكتاباتهم فى فرنسـا رأيا عاما . كانت أولى صفاته التشكك وعدم اليقين واتهام كل ما أحاط به من النظم بالفسـاد .

ولقد رأيت مثالا من كلام هؤلاء الكتاب فيا أوردته لك عن روسو ونظرياته السياسية ولايفوتنى هنا أن أذكر لك أسماء ڤولتير، ومنتسكيو، وديدرو، ودالمبير؛ لتعرف أى الأقلام تلك التى حملت لواء الديمقراطية أمام دول الأرض وسارت بالقافلة التى تبعتها ذلك الشوط البعيد .

فأما ڤولتير فهو تلك القوة الهائلة التى كان يرهبها كل ذى سلطان فى القرن الثامن عشر ، نشأ فى أواخر أيام ملك فرنسـا العظيم

لويس الرابع عشر فلفت نظره ذلك السلطان الواسع وأنانية صاحبه الى حدّ مصادرة كل من يجرؤ على ادعاء شيء من السلطة سواه ؛ كما لفت نظره سلطان رجال الكنيسة وتعصبهم لمذهبهم الى حدّ تعذيب كل من يجرؤ على اعتناق أى مذهب آخر فسخر من هذه العظمة المزيفة التى تقوم على القهر واستهزأ بأصحابها وجعل دأبه مناهضة هذا السلطان الغشوم المستبد، وبدأ حياته وهو فى العشرين من عمره برسالة عرّض فيها بالكنيسة ولويس الرابع عشر وكان جزاؤه عليها بضعة أسابيع قضاها فى سجن الباستيل ؛ ولكنه خرج بعد هذه الأسابيع القليلة وقد كتب على نفسه عهدا أن يجعل مواهبه وقفا على هدم تلك الأسوار التى تحجب من ورائها رجال الكنيسة والملك ويرمون من خلفها صواعق نقمتهم على أعدائهم؛ وأصبح ڤولتير فى عصره (رسول التسامح والاصلاح) ولكن كان للتسامح عند الكنيسة اسم آخر هو (الإلحاد) وكان للاصلاح عند الملوك اسم آخر هو (الثورة)؛ فعاش ڤولتير فى نظر السلطات (ملحدا ثائرا) ولاقى منهم ما أعدّوه من العذاب للملحدين الثائرين . ولكنه عاش كذلك فى نظر الناس فيلسوفا حرا ولاقى منهم ما أعدّوه من التعظيم والتقدير للفلاسفة الأحرار !

ولكى ترى مثالا من حملاته على رجال الدين وتقف على وجهة نظره فى الاصلاح ، أقتبس لك شيئا مما كتبه تحت كلمة «قانون» فى قاموس فلسفى صغير نشره سنة ١٧٦٤ :

[— كل ما هو خاص بالزواج ينبغى أن يرجع فيه الى السلطة المدنية ، وليس على القسيس إلا أن يبارك الزوجين .

— ينبغى أن يخضع القسس للحكومة لأنهم أفراد من الرعية التابعة للـــدولة .

— ليس فى مقدور القسس أن يحرموا أى انسان شيئا من حقوقه بدعوى أنه خاطئ ، فان القس بحكم كونه حتما من الخاطئين ينبغى أن يقصر عمله على الاستغفار للخاطئين دون أن ينصب نفســه لمحاكمتهـــم .

— ينبغى على الموظفين والعمال والقسس جميعا أن يشتركوا فى دفع الضرائب للدولة لأنهم جميعا أفراد فيها .

— ليكن عقاب المجرمين نافعا ؛ إن الرجل الذى يشنق لا يصلح لشىء، أما الرجل الذى يحكم عليه بالأشغال الشاقة فانه يظل خادما لبلاده ويبقى مثلا حيا يتعظ به الناس .

— ينبغى أن يكون القانون واضحا عاما دقيقا ، فان آفة القوانين تفسيرها .

— لا ينبغى أن تجبى ضريبة إلا اذا روعى فيها أن تتناسب مع موارد الشخص الذى فرضت عليه .

غير أن ڤولتير لم يكن فيلسوفا جافا كما اعتاد غيره من الفلاسفة أن يمتازوا بالجفاف ، ولكنه كان ظريفا فكها خفيف الروح فى كلامه بحيث تتفتح له الآذان وتنشرح لوقع ملاحظاته الصدور وكانت هذه الخاصة فى أسلوبه أقوى دعامة قام عليها نفوذه الهائل وتأثيره العظيم .

وأما منتسكيو فقد طاف كزميله ڤولتير بجميع الدول الأوروبية ثم استقر فى فرنسا ووضع كتابه الذى أسماه (روح القوانين) . وقد جمع فيه تواريخ أنظمة الحكومات وأنواعها وعدد مساوئ كل منها ومحاسنه ونصح أخيرا بوجوب اشتراك الملك مع الأشراف والعامة فى حكم البلاد على مثال الدستور الانجليزى .

وأما ديدرو ودالمبير فقد تعاونا فى وضع دائرة المعارف الفرنسية التى كان لها أعظم أثر فى نشر العلوم وتثقيف الأذهان وإعدادها لفهم المشكلات .



لويس الخامس عشر

*

(٣) مارى انتوانت ولويس السادس عشر :

(ا) زوجين

نقول مارى ولويس ، وكان حقا أن نقول لويس ومارى لولا أن الأميرة كانت صاحبة اليد العليا فى هذه الشركة وأنها ما لبثت أن غادرت أمها مارية تيريزا أمبراطورة النمسا ودخلت البلاط الفرنسى عروسا لولى عهد فرنسا لويس السادس عشر حتى جعلت زوجها تابعا لها وفردا من أفراد حاشيتها ؛ فلما انقضت أيام جده الفاجر لويس الخامس عشر ودوت فى أرجاء القصر تلك الصيحة القديمة « مات الملك فليحى الملك » . تقدمت هى على زوجها وتولت عنه حكم الشعب الفرنسى وأصبحت منذ ذلك الحين القوة المحركة لسياسة فرنسا والعامل الأكبر فى وقوع ما ألم بها من الخطوب ؛ فهى التى تولت انتخاب سلسلة الوزراء الذين تعاقبوا فى مستهل حكمهما لعلاج الأزمة المالية التى كانت تشكوها البلاد ، فلم يفلحوا وفتحوا للشعب بتناقض سياستهم سبيل التمرد والثورة ؛ وهى التى عينت (نِكَر) وزيرا ثم أقالته ثم استرجعته ؛ وهى التى أشارت باتباع وسائل القمع لمقاومة الجمعية العمومية بعد اجتماعها الأول ؛ وهى التى أشرفت على فكرة فرار الأسرة المالكة من فرنسا ؛ وهى التى رسمت الخطط بعد فشل هذه الفكرة لتحريض

حكومات أوروبا على رجال الثورة؛ وهى التى أوحت بما هو معروف فى التاريخ « بتصريح برنزويك » ، وأوعزت بتهديد باريس بالتخريب والتدمير اذا لم يعمل رجال الثورة على إعادة الحال الى ما كانت عليه قبل الثورة [(١)] .

ولكن لندع الخوض فى هذا الحديث الآن ولنعد قبل الاسترسال فيه الى طفولة مارى أنتوانت لنرى كيف نشأت ولنعرف أى الظروف تلك التى جعلتها ملكة على فرنسا لتلق حتفها على يد ذلك الشعب الذى اختارت أن تحكمه .

كانت مارى انتوانت ابنة مارية تيريزا امبراطورة النمسا ، وكانت النمسا فى ذلك الوقت على رأس الدول الأوروبية فى عظمتها وسلطانها ، وكانت لا تزال مصائر الشعوب رهن إرادة الملوك العظام وكان التملك عليها موضوع أحلام بنات القصور العريقة ؛ فجلست مرية تيريزا تداعب ابنتها يوما بسؤالها عن الشعب الذى تطمح الى التملك عليه ، فأجابتها مارى انتوانت أريد أن أحكم الشعب الفرنسى الذى حكمه هنرى الرابع ولويس الرابع عشر .

---

(١) (French Revolution). (Bellock.)



مارى انتـــوانت

*

وشاءت الأقدار أن تتفق هـذه الأمنية مع سياسـة لويس الخامس عشر الذى أراد أن يتخذ النمسا حليفة لفرنسا ضدّ بروسيا عدوّته ، فلم ير وسيلة لتحقيق ذلك خيرا من تزويج حفيـده وولى عهـده من الأميرة النمساوية الشابة فبعث الى سفير فرنسا فى النمسا يستشف رأيه فى أمر هـذا القران لجاءت إجابة السفير باعثة على أشدّ الاطمئنان والارتياح حيث قال فى معرض حديثه عن الأميرة — : " إنها كاملة الجمال من خلق ومن خلق ، ذات ذكاء نادر وخلال سامية تفيض نفسها الشابة غبطة وابتهاجا وطربا وهى ميالة الى الحصول على رضاء الناس ، وفيها من الخصال التى تكفل سعادة الزوج أبدعها وأوفرها " .

فسر الملك الشيخ لهذا التوافق ولم تنقض على ذلك إلا أسابيع معدودة حتى أعلنت الخطبة رسميا ، ثم جاء موعد الزفاف وسافرت الأميرة الى زوجها ، ووصل موكبها الفخم الى ستراسبورج فى اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٧٧٣ حيث استقبلها عظماء البلاط الفرنسى ؛ ومن ثم سار الموكب الى ڤرساى بين الهتاف المتواصل والحفاوة البالغة . وفى ١٦ مايو سنة ١٧٧٣ احتفل بعقد الزواج ، وظلت الحفلات والمراقص قائمة أياما عديدة الى أن انتقلت الأميرة الى باريس فى ٨ يونيه بين أفخم مظاهر الهتاف والترحيب .

ولقد كان من تأثر الأميرة بتلك الحفاوة التى لاقاها بها الشعب الفرنسى أنها كتبت الى أمها تقول : « لست أستطيع أن أصف لك يا أمى العزيزة مظاهر السرور والعطف التى أغدقت علينا ولقد كنا نصافح الشعب بأيدينا ، وكان ذلك من أعظم بواعث السرور. وما أسعدنا إذ نستطيع أن نحصل على حب الشعب بذلك الثمن البخس ! ومع ذلك فليس ثمة أنفس من هذا الحب ؛ لقد شعرت بهذا ولن أنساه قط » .

والواقع أن تلك الأميرة الخلابة استطاعت أن تمكن لنفسها فى نفوس الفرنسيين بما كانت عليه من المحاسن والظرف وساعدها على ذلك ما هو معروف عن ذلك الشعب من تمجيده لتلك الخلال وتأثره بالمجاملة ورقة الشمائل .

واستطاعت الأميرة كذلك أن تفتن رجال البلاط ونساءه وأصبحت فى منزلها الجديد موضع عطف الجميع وإعجابهم .

غير أن ذلك الفوز الباهر لم يلبث أن أثار الغيرة فى صدور الحساد أمثال (مدام دوبارى) خليلة الملك لويس الخامس عشر وغيرها فأخذوا يدسون لها الدسائس وساعدتهم هى بتصرفاتها الطائشة ؛ فأنها على الرغم من كل ما عرفت عنها كانت لا تخلو من نقائص تشوب خلق أمثالها المدللات فكانت متشعبة الأهواء



ما دام دى بارى

*

متقلبة النزعات ، وكانت تصغى أحيانا الى نداء أهوائها المجردة ؛ وقد وفدت على بلاط يموج بالرذيلة والخلال الفاسدة وهى طفلة لا تحسن خوض هذه الغمار الخطرة فكانت هذه الخفة من جانبها سببا فى إثارة عاصفة من الأقاويل والمفتريات حول سيرها وتصرفاتها ؛ وهى عاصفة لم تلبث أن جازت القصر الى الخارج ، وهبت بين طوائف الشعب تحمل ضروبا شتى من الاتهام والقذف ، كانت سببا فى ازدياد سخط العامة على الملكية وأهلها كما ستراه مفصلا فيما يلى من الحوادث .

تلك كانت مارى انتوانت (١) ولم يكن أليق لها من زوجها ولى عهد فرنسا ، فانه لم يكن يسع نقائصها هذه إلا صدره السمح الواسع ، ولم تكن تطيق سمعتها المثلوبة غير أذنه الثقيلة القليلة الاكتراث ، ولا كان يحتمل حدتها العنيفة مثل طبعه البارد البليد . لقد كانت الأميرة كثيرة الزهو شديدة الكبرياء ميالة الى الغزل واللهو فكان لا بد لها من الأصدقاء ، وكان لا بد لها من التلهى ، وكان لا بد لها أيضا من زوج ضعيف هادئ ينكسر على لين طباعه شذوذها ، ولكن الطبيعة حابتها الى النهاية القصوى فى منحها هذا الزوج الممتع الذى لم يخلق لغيرها ، فإنه فضلا عن

(١) قضايا التاريخ الكبرى للأستاذ عنان .

كل ما وصفناه لك به كان ذا ميزة عظيمة أخرى ؛ ربما كان من عدم اللياقة التاريخية ذكرها والافصاح عنها ولكن يكفيك أن تعلم أنه عولج من ذلك المرض وأنه استطاع أن يعاشر زوجته معاشرة الأزواج للمرة الأولى بعد سبع سنوات من زواجها ! ولقد بقى ذلك (الرجل المسكين) كما كانت تسميه الأميرة متأثرا طول حياته بتلك الحالة التى كان عليها فى مستهل شبابه ولعلها تفسر كثيرا من طباعه التى اشتهر بها كعدم ثقته بنفسه، وسهولة انقياده لغيره ، وأخذه بكل يد تمتد له ، وتقلبه تبعا لارادة كل ناصح ومشير [1] .

بقيت مارى مع زوجها على هذه الحال حتى مرض جده الشيخ مرضه الأخير فى أواخر أبريل سنة ١٧٧٤ ثم وافاه أجله المحتوم فى العاشر من شهر مايو سنة ١٧٧٤ فهرعت الجموع الى القصر الملكى للتهنئة والتعزية ، وأقبل الشعب المضنى يحيي العهد الجديد بعد أن ذاق فى العهد الماضى صنوف الذلة والإرهاق . وأقبلت مارى انتوانت ويدها فى يد زوجها نخرا على ركبتيهما داعيين " اللهم سدّد خطانا وتولنا بحمايتك فإننا سنحمل أعباء الحكم صغيرين جدا " !

(١) الثورة الفرنسية (بلوك) .



" اللهم سدد خطانا ! سنتولى الحكم صغيرين "

ولقد كانا حقا صغيرين فان الملك كان فى العشرين من عمره أما الملكة فإنها كانت فى الثامنة عشرة من عمرها ولم تك بعد بلغت هذه العشرين .

(ب) مارى انتوانت ولويس السادس عشر

(ملكين)

انقضى بموت لويس الخامس عشر دور ولاية العهد وأقبل دور الملك والسلطة ، انقضى دور العبث وجاء دور الجد ، وانقضى دور الخلو وجاء دور المسئوليات ! ولعل خير ما يصوّر لك نفسية الملكين الشابين فى هذه الفترة ما كتبته الملكة لأمها فى الرسالة التالية :

شوازى فى ١٤ مايو سنة ١٧٧٤

سيدتى وأماه العزيزة :

لا شك أن الكونت (ميرسى) — [سفير النمسا الذى اختارته مارية تيريزا ليكون مستشارا لابنتها الصغيرة فى فرنسا] قد أخبرك بتفصيل ما جرى فلقد ظل الملك حافظا لشعوره الى آخر لحظة من عمره وكانت خاتمة حياته عبرة لمن شاء أن يعتبر ، ويخيل الى أن الملك الجديد قد استولى على قلب الشعب فانه قبل وفاة جده بيومين قام

بتوزيع مائتى ألف فرنكا على الفقراء وكان لذلك أحسن الأثر، وهو منذ وفاة الملك يعمل من غير انقطاع ويجيب بخط يده على ما يكتبه له وزراؤه الذين لم تتح له الفرصة لرؤيتهم بعد. وهو يرد كذلك بنفسه على رسائل كثيرة أخرى ومما لا شك فيه أنه يحب الاقتصاد وأن أقصى همه أن يوفر أسباب الرفاهية لشعبه وليس يوازى اهتمامه بالتعلم إلا رغبته فى الاستفادة . وإنى أسأل الله له فى ذلك كل توفيق .

وإن الجمهور ليتطلع الآن الى كثير من التغييرات ولكن الملك اكتفى بأن أرسل مدام دو بارى (محظية جده لويس الخامس عشر) إلى الدير وأن طرد من بلاطه كل من له اتصال بها .

ولقد منعت من أن أزور عمتى أديلايد لأنها تشكو الحمى وألما فى وسطها ويخشون أن تكون قد سرت اليها عدوى الجدرى وهى تقوم بتمريض الملك الفقيد .

ولقد خولنى الملك من السلطة بوصف كونى ملكة ما أستطيع معه أن أملأ جميع المراكز الخالية فى حاشيتى .

وإنى وإن كان الله قد منّ على بأن أولد لأشغل هذا المركز الذى أشغله اليوم لا أتمالك أن تتولانى الدهشة حينما أرى المقادير

تختاره ري بناتك لتجلس على أجمل عروش أوربا وإنى لأحس أكثر من قبل بكل ما أنا مدينة به الى عطف والدتى العظيمة التى تجشمت كل صعب فى سبيل إحراز هذا لى . وما أحسست يوما بما أحس به اليوم من الرغبة فى أن أطرح نفسى على قدميها وأن أقبلها وأكشف لها عن نفسى لترى الى أى حد هى مفعمة بالإجلال والحب وعرفان الجميل .

حاشـية بخط الملك

إنى ليملأنى السرور أن تتاح لى الفرصة يا أمى العزيزة لأعرب لك عن حبى وإخلاصى ؛ ومن لى بنصحك الغالى فى هذه الأيام العصيبة ! وإنى لأرجو أن أوفق الى ما فيه رضاؤك لأقيم من ذلك دليلا على مبلغ ما أنا مدين لك به من الشكر على إنعامك علىّ بابنتك التى لا أطمع فى سعادة وراء ما أنا متمتع به معها .

خاتمـة الرسالة بخط الملكة

لم يرض الملك أن أبعث اليك برسالتى دون أن يخط لك فيها كلمة بنفسه وإنى لموقنة أنه كان يجب أن يكتب لك رسالة كاملة ؛ ولكنى أرجو أن يكون له عندك بعض العذر نظرا لكثرة ما يقوم به من الأعمال بله ما فى طبيعته من الخجل والحياء الشديد . وإنك

لترين يا أماه مما ختم به عبارته أنه على الرغم من شدة محبته لى حريص على ألا يغدق علىّ من الثناء الفاتر ما تمتلئ به نفسى غرورا[1] .

هكذا بدأ هـذان الشابان حياتهما الملكية ! رغبة خالصة من الملك فى الاقتصاد وتوفير أسباب الرفاهة لشعبه ومعاونة قوية من الملكة فى تحقيق هذه الغايات .

ولكن ضعف الملك واستسلامه أفسحا الطريق أمام المتطفلين على موائد الحكم فلم يلبث أن دخل فى ميدان العمل وزراء منافقون أنانيون ، وكمنت فى زوايا القصر الملكى حاشية نفعية رجعية ؛ ثم غشى الجميع شعب جائع هائج فاختلط فى المعمعة الحابل بالنابل ، وانفجرت الفتنة على رأس الجميع .

ولكن عند انفجار الثورة لم يكن يفكر رجالها فى الوصول الى ما وصلوا اليه أخيرا ، وانما جاءهم ذلك عرضا ، وكانت كل خطوة يخطونها تسوقهم الى التى تليها وهكذا ؛ فلم يكن أحد منهم يفكر مثلا فى أول الأمر أن يغير نظام الحكم الملكى و يستبدل به نظاما جمهوريا ، ولكنهم كانوا يريدون أن ينشئوا حكومة حرة تحت لواء الملكية وكانوا يريدون تنظيم الملكية لا تحطيمها ، ولم يكن يسعى أحد

(١) Readings in European History. (Robinson.)

الى استدعاء طبقات الشعب الجاهلة للاشتراك فى حياة البلاد السياسية، ولكن مبدأ سيادة الأمة الذى كان يبشر به الفلاسفة والكتاب هو الذى أدى الى نشر روح الديمقراطية وصب الحكومة فى ذلك القالب الجمهورى الذى هو الصورة الطبيعية لنظام الحكم الديمقراطى .

---

*

الفصل الثالث

موقف الطبقات حيال حركة الاصلاح (١)

لقد كان لكل طائفة من طوائف الأمة موقفها الخاص حيال حركة الاصلاح التى بدأها لويس السادس عشر .

فأما الأشراف والاكليرؤس فكان جلتهم يريدون الاستمساك بالنظم العتيقة محافظة منهم على امتيازاتهم وحقوقهم، وهؤلاء كانوا عامل السوء وعنصر الرجعية ونذير الشؤم والخراب الذى حل بالبلاد. ولكن كانت فيهم أقلية تأثرت بكتابات المفكرين وأشربت روح العصر الحديث وانضمت الى طبقات الشعب فى المطالبة بالمساواة وضحت فى سبيل هذه الدعوة بصوالحها وامتيازاتها .

وأما طبقة الفلاحين والعامة من أهل المدن فهم الذين كانت تدور عليهم رحى البؤس وتطحنهم معاصر الشقاء ؛ عجاف أهزلهم جباة الضرائب ؛ ضعاف أثقلهم تكرار وقوع القحط ؛ فكانوا يستندون الى كل يد تمتد اليهم . وصاروا لهذا السبب ألعوبة فى أيدى ذوى الغايات من الزعماء السياسيين الذين أنجبتهم الطبقة الوسطى .

(١) كتاب تاريخ القرن التاسع عشر .

وأما هذه الطبقة الوسطى فهى طبقة المتعلمين الذين بعد أن هيأوا نفسهم للحياة وقف الأشراف فى سبيلهم وسدت الامتيازات طريقهم فحرموا من الوظائف والمراكز التى تؤهلهم لها كفاءاتهم فاستعانوا بأهل الطبقة العامة ليكونوا عدتهم فى نشر الفتنة وقلب النظام .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الطبقة هى التى بدأت الثورة وأوقدت نارها وظلت المعركة قائمة بينها وبين أصحاب الامتيازات زمنا كان الشعب فيه خارج الميدان يكتفى بمشاهدتها والتحمس لها فما هو إلا أن خرج من دور التحمس الى دور الاشتراك الفعلى حتى طم سيله وجرف تياره جميع الطوائف الأخرى ؛ فأصبح الحكم فى باريس لرعاعها ووقعت فرنسا كلها تحت سيطرة سوقتها وجهالها .

*

*

الباب الرابع

الثورة والقضاء على العهد القديم

من ٥ مايو سنة ١٧٨٩ — ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩

الفصل الأول

لويس السادس عشر والأزمة

ولى لويس عرش فرنسا سنة ١٧٧٤ كما أسلفنا فى العشرين من عمره وهو آخر من كان ينبغى أن يتقدم إلى تسيير سفينة الحكم فى ذلك الجو العاصف وتلك اللجة الفوارة لو أن فى الأمر خيارا لمن يتولى الملك . ذلك لأن الأزمة التى كان حتما عليه أن يعالجها كانت تستلزم رجلا ثاقب الرأى ماضى العزيمة فشاءت الأقدار أن يتولى علاجها عديم الرأى خائر الهمة وأن يتزوج من خرقاء فضولية حمقاء ، وأن يلتمس المعونة ممن حوله فلا يصيب إلا كل نفعى رجعى يعمل لمصلحة نفسه أولا ثم يعكس على الملك رغبة



لويس السادس عشر

فى الاصلاح ويجارى المملكة فى خرقها ويدفع الشعب المائج فى سبيل الثورة خطوة جديدة .

(١) فترة الاصلاح :

وجلس الملك فى بدء عهده يفكر فيمن يكون وزيرا له ورئيسا لحكومته فقر رأيه أخيرا على تعيين (ماشولت) ولكن أخته مدام أديلايد تدخلت فى آخر لحظة وأرسل نفس الخطاب الذى كان معنيا به ماشولت إلى الكونت (موريا) وهكذا تم تعيين رئيس وزراء لويس السادس عشر [1] .

وكان موريا هذا وزيرا فى عهد الملك لويس الخامس عشر ولكنه أقصى عن الحكم وظل مغضوبا عليه بقية أيام ذلك الملك فلما رشحته مدام أديلايد لهذا المركز الجديد جعل أوّل همه أن يتشبث به وأن يرسم خططه السياسية بما يتفق مع هذه الغاية الشخصية فكان لا يمتنع أن يرجع اليوم فى قضاء قضاه بالأمس متى آنس فيه خطرا على مركزه ولا يتردّد فى أن يخلع اليوم وزيرا عينه بالأمس فى وزراته متى أوجس منه خيفة على نفوذه . وظلت سياسة فرنسا تترجح وتتذبذب مع أهواء هذا الوزير حتى مات سنة ١٧٨١

---

(١) (Lodge.) Modern Europe.

فتولت الملكة بعده تسيير الأمور وتعيين الوزراء وكانت فى إشرافها على الملك أشأم من وزيره الذى عينته له أخته .

ترجـــو : (TURGOT)

غير أن موريا وإن كان فى نفسه قليـــل الاهتمام بالاصلاح لم يكن يرى بأسا من أن يقوم غيره بمـا لا يكون فى إجرائه خطر عليه هو شخصيا . فعين [ترجو] ليكون وزيرا للمـالية فى وزارته ، وترجو فى ذلك اليوم أقدر أبنـاء فرنسا على تولى شـئونها المـالية وتنظيم إدارتها ؛ وكان دخل الدولة عند تولية الوزارة ٢١٣ مليونا من الجنيهات والمنصرف نحو ٢٣٥ مليونا . فكان العجز حوالى ٢٢ مليونا ولكن لم تمض عليه فى الوزارة سنة ونصف ســنة حتى بلغ الوفر فى خزائن الدولة نحو ١١ مليون جنيها . غير أنه لم يكن ليصـل إلى هذه النتيجة السارة إلا بالتقتير والاقتصاد وهذا مادعا الى أن يغضب عليه رجال البلاط الذين لا مرتزق لهم من غير الاسراف والتفريط . واسـتاء الأشراف كذلك وأوجسوا من سياســته الاقتصادية على امتيازاتهم وسخط عليه رجال الدين أيضا ولاسيما لأنه كان صديقا حميما لڤولتير (الملحد) . وتصادف وقوع مجاعة زادت فى سخط الأهلين على الحكومة . وكانت مدعاة لقيام الفتن والمظاهرات . وأوشك ترجو أن يتزعزع مركزه بما سارع الأشراف إلى اتهامه به عند الملك

من سوء التدبير وتحميله مسئولية الموقف . ولكنه نجح أخيرا في استعادة مكانته عند الملك والحصول على رضاه مرة أخرى حتى لم يتردد لويس في إعلان إعجابه بسلوكه والتصريح بأن ليس على ظهر فرنسا كلها من يحب الشعب الفرنسي غيره هو ... وترجو .

فتألب عظاء الأشراف والاكليروس على هذا العدو المشترك وتآمروا عليه خشية أن يكون بقاؤه في مركزه قاضيا على نفوذهم وثارت الحزازات في نفوس الوزراء وبخاصة كبيرهم موريا فعوّل على التخلص منه بأى ثمن كان . وشرع يتصدّاه في جميع مشروعاته واصلاحاته ولكن ذهبت جهوده كلها عبثا في هذا السبيل ولما أعيته الحيلة في حمله على تقديم استقالته بنفسه . لجأ الى الوقيعة به والدس عليه . فاصطنع ورقة قلد فيها خط ترجو وضمنها قذفا في حق الملك والملكة ثم قدّمها للويس فثار لها واحتد . وأقال من خدمته الوزير الوحيد الذى كان يرجى له الخلاص على يديه . وهكذا انسحب ترجو مكرها من ميدان العمل وأدركته منيته بعد ذلك بقليل (سنة ١٧٨١) م .

نِكَرْ : (NECKER)

أسندت وزارة المالية بعد ذلك إلى نكر . وهو رجل سويسرى من كبار الماليين نشأ في مدينة چنيف بلدة روسو الكاتب القدير



نكر

ثم نزل بفرنسا كما فعل سلفه العظيم وكانت سمعته المالية الطيبة سببا فى إسناد هذا المنصب إليه . أما خطته فكانت ترتكز على تدبير دخل الدولة حتى يكفى حاجاتها العادية . فاذا قامت بالبلاد حاجة إلى مشروعات أخرى غير منظورة فالوسيلة إلى تحقيقها عقد القروض مع الدول الأخرى على أن تكون هذه القروض بأقل ربح ممكن . وكان لا بد لتحقيق ذلك من تحسين سمعة البلاد المالية فلجأ الوزير إلى خطة جديدة لم تكن اعتادتها البلاد من قبل وهى نشر حسابات الدولة على الجمهور حتى يطلع عليها الجميع وبذلك تنشأ الثقة المالية التى كان ينشدها . ولكى يضمن لهذا النظام أن يظل راسخا ثابتا رأى أن لا تجبى ضريبة جديدة إلا بعد موافقة الأهالى عليها . فكان عمله هذا تمهيدا لانعقاد [الجمعية العمومية] التى تعتبر فى التاريخ نذير الثورة وفاتحة عصرها .

ولقد كان من المنتظر أن تنقشع أمام هذه الخطة الحكيمة التى رسمها نكر أشباح الضيق المالى الذى كانت تعانيه فرنسا منذ زمان لولا اشتراكها فى حرب استقلال الولايات الأمريكية وتورطها فى ديون جديدة أفدحتها وكانت سببا فى زيادة تحرجها وارتباكها .

أما هذه الحرب فسببها أن انجلترا أرادت فرض ضرائب جديدة على مستعمراتها الأمريكية فنازعتها المستعمرات فى شرعية تلك

الضرائب وانتهى الأمر بوقوع الحرب بينهما فتطوع كثير من الفرنسيين للقتال فى صف الأمريكيين انتقاما لفرنسا من عدوتها انجلترا التى اغتالت كثيرا من مستعمراتها فى (حرب السبع السنوات). وظل تيار المتطوعين يتدفق ويطغى إلى أن تحرج مركز الحكومة. وأصبح من الحتم عليها أن تساير شعور الأمة. فتشترك اشتراكا رسميا فى هذه الحرب وأخيرا شجعها على خوض غمار هذه المعركة ماحصل عليه الثوار من الانتصارات الباهرة التى لم تدع شكا فى نتيجة الحرب وأنها سوف تدور الدائرة فيها على الانجليز. فقررت فرنسا الانضمام إلى الولايات الأمريكية ومن حسن حظها أن انجلترا لم تفلح فى الحصول على معاونة أية دولة من دول أوروبا. فكان أجل الحرب لذلك قصيرا. وخرجت منها فرنسا منصورة ظافرة. ولكنها خرجت كذلك وقد لوثت رجالها عدوى الثورة وأفرغت خزائنها نفقات الحرب.

وهكذا انعكست تدبيرات نكر ونقض غزله وبددت الحرب فى فترة قصيرة ما جمعته يداه فى الليالى الطوال (١٧٧٧ — ١٧٨١)م فلم ير أمامه مفزعا يرجع إليه إلا ما كان قد رسمه ترجو قبله من خطط الاقتصاد فى الوظائف والاقلال من الامتيازات فكان جزاؤه على ذلك ما جوزى به ترجو أيضا من قبل واعتزل الخدمة سنة ١٧٨١ م.

(ب) الوزراء المفسدون :

استقال نكرومات موريا بعده بقليل وظهرت مارى أنتوانت علنا فى ميدان السياسة والحكم . وكانت قد بدأت تفقد شخصيتها المحبوبة المحترمة فى نظر الشعب الفرنسى لكثرة ماذاع حول اسمها من التهم بالحق وبالباطل فكان بعض الناس يتهمها بأنها تكره الشعب الفرنسى بسبب جنسيتها النمساوية فبادلها كراهة بكراهة . وكان بعضهم يتهمها بتبديد مال الدولة على ملابسها ورياشها وخدمها وكلابها فبادلها تبديد مال بتبديد سمعة وكان بعضهم يتهمها بأنها تحتقر الملك وتخونه فكان نصيبها منهم التشهير والتعيير والاحتقار .

وولى وزارة المالية بعد نكر فى هذا العهد الجديد من لم يقم فيها غير شهور معدودة أضاف أثناءها إلى ديون المملكة ٣ ملايين من الجنيهات ثم استقال .

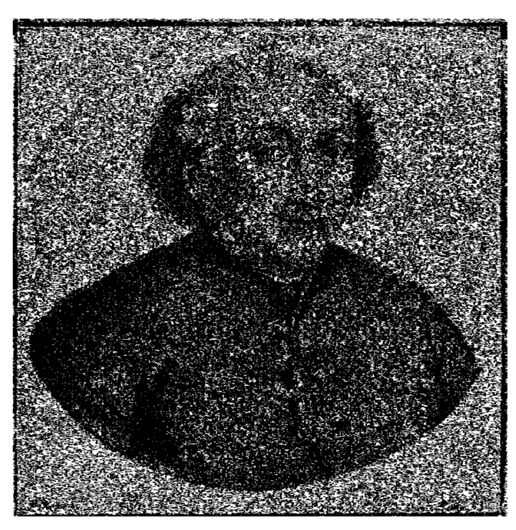
فجاء بعده آخر وطالت إقامته حتى بلغت سبعة شهور كان كل عمل من أعماله فى خلالها لسانا ناطقا بأن فرنسا تعلن إفلاسها للجميع وأخيرا جاء دوره فطرد وتقدّم نساء البلاط بالرجاء إلى الملكة لتأمر بتعيين (كالون) وزيرا للمالية فتم تعيينه .

أما الرجل فكان أسخف وأجهل من ولى الأمر فى محنة كالتى كان يجتازها الشعب الفرنسى فى ذلك العهد! جعل دأبه إخفاء

الحقيقة وهمه الأول إرضاء الملكة واجابة مطالب البلاط . وأكثر من الحفلات والزينات الى حدّ أدهش الناس جميعا وألقى فى روعهم أنه بز ترجو فى سياسة المالية وفاق نكر . ولكن تحقيقا أجرى بعد ذلك أسفر عن أنه عقد قروضا كثيرة . وأن العجز السنوى قد زاد زيادة عظيمة فثارت عليه الخواطر وأصبح موضع سخط الجميع واحتقارهم . فرفته الملك .

ورقى الوزارة بعده (برين) . وكان موقف البلاد المالى قد تعقد الى الحد الأقصى وبلغ ارتباكه الغاية التى ليس وراءها غاية فان الاقتصاد الذى كان خير علاج فى الماضى أصبح لا محل له فى الأزمة الراهنة . ولم يبق للنجاة غير طريق الضرائب وهو ما لا طاقة لدافعى الضرائب إذ ذاك باحتماله . أو طريق القروض وهو ما ليس اليه من سبيل بعد ضياع سمعة البلاد المالية . أو طريق التضحية من جانب أصحاب الامتياز وهو ما جعلته أنانيتهم حلما من الأحلام يراه الناس فى المنام .

وهكذا دفع برين قصر نظره الى ادخال رأسه راضيا مختارا فى هذه الشبكة المختبلة وكانت تخبطاته سببا فى أن تتفق كلمة (برلمان باريس) — وكان بمثابة محكمة عليا — (ومجلس الأعيان) والهيئات الدينية وعامة الشعب . على وجوب عقد الجمعية العمومية التى ما كادت



برين
(Brienne)

تجتمع حتى انصرفت وجهتها الى غير ما اجتمعت له وبدلا من أن تنظر فى علاج الأزمة المالية دخلت مع الملك فى نزاع سياسى أفضى الى عصيان أوامره والاشتباك معه فى تلك المعركة الدموية الطويلة التى تعرف فى التاريخ باسم الثورة الفرنسية .

وبيان ذلك أن برين تقدم الى برلمان باريس بمشروع قانون يقضى بأن تشترك طوائف الأمة جميعها فى دفع الضرائب فرفضه البرلمان واستنكره . ولم يكن هذا البرلمان هيئة نيابية كما يتوهم القارئ من اسمه ولكنه كان هيئة مؤلفة من بعض رجال القانون يستعين بها الملك فى إصدار أوامره . فنشأ أداة فى يده ومصنعا لعمل المرسومات والقوانين . ولكنه لم يلبث أن انقلب على الملك حربا . ذلك أن المراكز فيه أصبحت تباع لمن يدفع للحكومة ثمنها ومن حق من يدفع أن يدعى لنفسه شيئا من السلطة . وكانت العادة قد جرت بأن لا يصدر عن الملك أمر إلا بعد تسجيله فى هذا البرلمان واقرار أعضائه له . فاكتسب الأعضاء بذلك صفة تشريعية لأنهم لو امتنعوا عن الموافقة على أى قانون لتعطل أثره وبطل فعله . ولذلك رأى الملك أن يحتاط لمقاومة البرلمان واعتراضه . فابتكر إجراء آخر وهو أنه اذا حضر بنفسه نظر قانون من القوانين فلا بد

للبرلمان من اقراره والموافقة عليه و يعرف هذا الأجراء باسم (Lit de Justice) أو كما يسمونه "سرير العدل" .

ولقد انتشر هذا العرف فى الأقاليم فأصبح لكثير منها برلمانات يرجع اليها قبل اصدار القوانين الخاصة بتلك الأقاليم . واكتسب أعضاء هذه البرلمانات من الامتيازات ما جعل مصالحهم فى آخر الأمر تتضارب مع مصالح الملك والحكومة فانضموا الى قوة المعارضة التى كانت تحارب عسف التاج و وزرائه ولكن انضمامهم هذا لم يكن عن حب للشعب وتأييد لمطالبه وانما كان كما فهمت تحقيقا لأغراضهم الشخصية ومحافظة على مصالحهم المادية .

وفى عهد لويس الخامس عشر أراد الوزير (مُوپو) أن يتخلص من هذه البرلمانات جملة واحدة لتنطلق يده فى هذه البلاد بما يشاء سيده فقرر الغاءها وأنشأ مكان برلمان باريس هيئة أخرى مؤلفة من ٧٥ عضوا يعينهم الملك بنفسه وقد أطلق الناس على هذه الهيئة اسم (برلمان مو پو) استخفافا بها و بمنشئها .

فلما مات لويس وسقط مو پو ألح الناس فى طلب هذه البرلمانات واعادتها فاعترض ترجو وزير المالية على العودة الى تلك الهيئات الرجعية التى لم تكن تعرف غير مصالحها الخاصة . ولكن الشعب كان قد نسى عنها كل شىء . ولم يبق ماثلا فى ذهنه عنها



مـــــوبو

إلا قوة معارضتها للملك وأنها كانت ضحية من ضحايا استبداده . ولذلك أصر على إعادتها فأعادها موريا وزير لويس السادس عشر وهو لا يرجو بذلك إلا الحظوة عند الشعب والحصول على رضاه .

وأخيرا جاء برين الذى تحدّث عنه وعرض مشروعه الجديد على برلمان باريس هذا كما أسلفنا فرفضه البرلمان ولكن لويس استعمل حقه المعروف (بسرير العدل) فوافق البرلمان على المشروع غير أنه قدم احتجاجا على تصرفات الملك ووزيره فى هذا الموضوع وكان جزاؤه على ذلك أن نفى أعضاؤه من باريس ولكن برين عاد فوجد أنه لا غنى له عن البرلمان فيما ينوى اصداره من القوانين الأخرى فاستعاد الأعضاء من جديد وعرض عليهم مشروع قانون يخوّل للحكومة جباية ضريبة جديدة فرأى أعضاء البرلمان أن يكتسبوا عطف الأمة باحالة الأمر عليها والاشارة بوجوب استفتائها فى تقرير هذه الضريبة واقترحوا بناء على ذلك دعوة "الجمعية العمومية" وهى هيئة نيابية تتألف من نوّاب الطوائف الثلاث : الأشراف، والأكليروس، والعامة، ولكنها لم تكن دعيت للاجتماع منذ سنة ١٦١٤ وكانت فكرة برلمان باريس التى يرمى اليها من هذا الاقتراح هى كما أسلفنا الاحتماء فى الرأى العام . واحراج موقف الحكومة . ولكن ما كان ليبتئس لويس ولديه (سرير العدل) الذى ابتُدع لمثل هذا

الموقف ففاجأهم (بسرير) فوافقوا بعده على القانون ثم انتقم لنفسه من زعماء المعارضة بنفيهم فتعالت أصوات الاحتجاج وازداد عطف الأمة على البرلمان وأخيرا فكر برين التعس فى أن يقتبس عن موبو خطته الاستبدادية العتيقة و يلغى عمل البرلمان ولكن عاصفة السخط والاستنكار التى هبت فى وجهه عقب ذلك أرغمته على العدول عن رأيه والعودة الى العمل بمعاونة الهيئات الرسمية التى تعرفها البلاد . فعقد مجلسا من رجال الدين أملا منه فى الحصول على شيء من مال الكنيسة ولكن المجلس بدأ قراراته بطلب استدعاء الجمعية العمومية فلم يبق أمام الحكومة بد من الرجوع الى هذه الجمعية فصدر مرسوم الملك باجراء الانتخابات بحيث تنعقد الجمعية فى مايوسنة ١٧٨٩م واستقال بعد ذلك برين واضطر الملك لاستدعاء نكر من جديد .

---

*

الفصل الثانى

الجمعيـــة العموميـــة

لعلك لم تنس بعــد أن الحكومة فى فرنسا كانت حكومة استبدادية وأن سلطة الملك فيهــا كانت سلطة مطلقــة بمعنى انه يستطيع أن يعفى المدين من ديونه فلا يبقى لدائنه حق فى مطالبته بتلك الديون وأنه يستطيع أن يأمر بالقاء أى انسان فى السجن لغير سبب شرعى ومن غير أية محاكمة قانونية فيلقى فيه الى أن يشاء الله وأنه يستطيع كذلك أن يعترض تنفيذ أى قانون فيبقى معطلا كأن ليس له فى الدولة وجود . وصوّر لنفسك بعــد ذلك ما شئت من التصرفات التحكمية ثم انسبها الى سلطة ملك فرنسا فى ذلك العهد تكن غير متجاوز فى قولك حدود تلك السلطة .

ولكن الملك كان يرجع الى بعض الهيئات الاستشارية من حين الى حين للاستئناس برأيها فيما يريد أن يقــدم عليه من الأمور دون أن يتقيد برأى تلك الهيئات ودون أن يكون لها عليه أى سلطان . وكان من بين تلك الهيئات هيئة عامة تمثل طوائف الأمة الثلاث : الأشراف . ورجال الدين . والشعب . وكانت هذه الهيئة النيابية

العامة تسمى "الجمعية العموميـة" وكانـــ نوّاب كل طائفة من طوائفها يجلسون منفصلين فى مداولاتهم وقراراتهم . لكل جماعة منهم قاعة خاصة بهم لا يجالسهم فيها نوّاب الطائفتين الأخريين . وجرت العادة أن تعطى كل جماعة من هذه الجماعات صوتهـا فيما استشيرت فيه . فكان الرأى الراجح هوالذى يجتمع عليه صوت مجلسين من المجالس الثلاثة وكانت الأغلبية بذلك دائما فى جانب الأشراف ورجال الدين نظرا لاتفاق صوالحهم فى وجهـة نظرهم الى الأمور واختلافهم فى ذلك عن الطائفة الثالثة . وهى طائفة الشعب . ولقد انعقدت هذه الجمعية العمومية للمرة الأخيرة سنة ١٦١٤ م ثم لم تدع للانعقاد بعد ذلك حتى وقعت الأزمة المالية التى نحن بصددها فى عهد لويس السادس عشر وكانـــ ما كان من اصرار الهيئات الأخرى جميعها على وجوب استفتاء الأمة ممثلة فى هذه الجمعية فصدر قرار الملك فى ٨ أغسطس سنة ١٧٨٨م باجراء الانتخابات العامة وتحدّد يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ لانعقاد الجمعية فى قصرها بفرساى .

وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهى أن الشعب الفرنسى كان قد تطوّر تطوّرا جسيما منذ سنة ١٦١٤ م بحكم ما مر عليه من الحوادث الجسام فى عهد لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر وبحكم ما سبق لنا بيانه من العوامل عند البحث فى أسباب الثورة

فكان من غير الميسور أن تخرج فرنسا سنة ١٧٨٩م هيئة نيابية تشبه في خضوعها واستسلامها تلك الهيئات التي كانت تخرجها قبل سنة ١٦١٤ ولكن الملك ورجال البلاط نسوا هذا الاعتبار وأغفلوه أو قل أنهم تناسوه عامدين وتغافلوا عنه قاصدين . فأنهم حينما قرّ رأيهم على عقد هذه الجمعية ظلوا يرجون أنها تلتقي كما كانت تفعل في العصور الخالية ثم تنظر فيما يعرض عليها لتبدى رأيها فيه ثم تنفض عقب فراغها من الأدلاء بهذا الرأى .

أما الشعب فانه كان يتشوّق الى ذلك العصر الذى يستطيع فيه أن يحرر نفسه من قيود الماضى فيطلق صوته ليملأ به الأسماع ويطلق يديه ليملأ بها ميادين الأعمال . فما هو إلا أن دعا الملك الى هذه الانتخابات العامة حتى رأى الشعب أن الفرصة التي يترصدها قد حانت فشمر وتأهب حتى لا تفرّ منه وليأخذ بناصيتها وهى مقبلة . وأصر من البداية على أن يكون نوّابه قدر نوّاب الأشراف ورجال الدين مجتمعين حتى لا يضيع صوته بجانب صوتيهما . وكثرت فى هذا البحث كتابات المفكرين والعلماء وانضم نكر الى رأى الشعب ونصح بقبول مطلبه فتقرّر أن يكون عدد نوّاب الشعب مساويا لمجموع نوّاب الأشراف ورجال الدين . وكانت هذه أول حلقة فى سلسلة الانتصارات الطويلة التي أحرزها الشعب فى نزاعه مع الحكومة .

. ثم بدأت عمليـــة الانتخاب فى أنحاء فرنسا . وكان الناخبــون فى كل دائرة يجتمعون ويعلنون عن رغباتهم ومطالبهم قبل أن ينتخبوا نوابهم . ويدوّنون هـــذه المطالب فى محاضر لتكون بمثابة عهد على نوابهم فى الجمعية . وبذلك توفرت لفرنسا مجمــوعة كاملة وافية من تلك المطالب التى اعتبرت فيما بعد برنامجا عاما تولى رجال الثورة تحقيق ما جاء فيـــه رويدا رويدا . وإليك أهم ما دوّن من تلك المطالب :

(١) أن لا تقرّر الجمعيـــة العمومية ضريبة ما إلا بعـــد أن يحقق دين الحكومة وتضمن حرية الأفراد .

(٢) أن تتعهد الجمعية العمومية بوضع دستور للبلاد .

(٣) أن يتقرّر فى هذا الدستور :

(ا) مبدأ مسئولية الوزارة .

(ب) مبدأ سيادة الأمة .

(ج) مبـــدأ المساواة أمام القانون والمســاواة فى الضرائب والوظائف .

(د) وأن يكون الانتخاب أساس كل سلطة .

(٤) أن تجتمع الجمعية العمومية فى مواعيد محدودة دورية .

(٥) أن يلغى نظام (الخطابات المختومة) .

ما الحفلات الانتخابية فكانت الحماسة فيها بالغة أقصى حدودها ولم تكن تسمع من منابرها إلا أشد الحملات على النظم العتيقة ووجوب التخلص من الماضى ودفنه وابتداء حياة جديدة يكون عمادها صوت الشعب ويكون شعارها إرادته .

وهكذا كان الملك وحاشيته وأشرافه فى واد بالنسبة لهذه الجمعية العمومية والشعب فى جهة مقابلة يسير فى واد آخر .

وأخيرا حل يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ م وملأ الناس طرقات باريس المؤدّية الى فرساى واحتشدوا فيها مبكرين ليشهدوا ذهاب الأعضاء الى دار النيابة فكانوا كلما مر بهم نائب من نوّاب الشعب صاحوا باسمه وهتفوا بحياته و زوّدوه بعبارات التحية والتشجيع فاذا مر بهم نائب من نوّاب الأشراف أو رجال الدين أمسكوا ووجموا وقابلوه بالصمت الرهيب .

وأخيرا أيضا تكامل الجمع داخل القاعة واتخذ رجال الدين مقاعدهم على اليمين وجلس الأشراف على الشمال وكانت مقاعد نوّاب الشعب تجاه العرش فى مؤخر القاعة . ولما دخل نكرقو بل بالحماسة الشديدة . ولا غرو فانه كان رجل الساعة الذى تتجه اليه أنظار العامّة وينعقد حوله رجاءهم . ثم أقبل بقية الوزراء وجلس كل واحد منهم فى مكانه الذى أعدّ له . وعند ذلك ظهر الملك

وتبعته الملكة والأمراء ومن ورائهم حاشية فاخرة ساطعة لامعة . فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف عند دخول الملك وبعد أن استوى على عرشه ووضع قبعته على رأسه لبس النواب جميعا قبعاتهم على خلاف ما جرى به العرف من بقاء الطبقة الثالثة عارية الرأس أثناء الانعقاد . وهى ظاهرة تافهة ما كنا لنرويها فى هذا الموجز لولا ما توسمنا فيها من المغزى العميق الذى تتجلى فيه روح الشعب وعزمه على محو الفوارق والوقوف فى صف واحد مع بقية الطبقات .

واشرأبت الأعناق لاستماع خطاب العرش . فوقف الملك وتلا الخطاب الآتى بصوت تملأه العاطفة والانفعال :

" أيها السادة :

ها قد حل ذلك اليوم الذى طال شوقى لحلوله وهاءنا أرى حولى نواب تلك الأمة التى أرى من مجدى أن أكون عليها حاكما . ولقد طال المدى على آخر مرة انعقدت فيها هذه الجمعية حتى لقد وقع فى الحسبان أنها لن تلتقى بعد ولكنى لم أتردد لحظة واحدة فى العودة الى عرف قد تستمد الدولة منه قوة جديدة ويتحقق به للشعب عنصر جديد من عناصر السعادة .

... ...

وأنه ما من مقصد نبيل يرجى منه الخير للمصلحة العامة وما من واجب يقع على عاتق ملك بوصف كونه الصديق الأول لشعبه إلا ولكم أن تطمعوا فيه عندى وأن الأمل الذى يملأ قلبى والأمنية الحارة التى تملك علىّ نفسى هى أن أرى هذا المجلس وقد ساد فيه التفاهم والوفاق وأن أرى أن هذا الاجتماع يكون فاتحة عصر رخاء وسعادة لهذه البلاد . إن هذا يكون لى من الله خير جزاء على كرم مقاصدى وصدق محبتى لشعبى " اهـ .

فقابل النوّاب هذه الأمانى الطيبة والوعود الحسنة بالتقدير العميق والتصفيق الشديد . ثم قام وزير الحقانية وكان خطابه بمثابة استعراض لأفضال الملك وأنه لم يتردّد فى إجابة مطالب الشعب العادلة فبقى على الشعب واجب الحذر من الاستماع للمتهوّسين أصحاب البدع وأنصار التجديد ! والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يحدث انقلابا خطيرا فى نظم البلاد .

وخطب بعده نكر وكان الشعب يرتقب دوره بفارغ الصبر لعلو مكانته فى النفوس ولحسن بلائه فى المطالبة بتسوية نوّاب الشعب بنوّاب الطائفتين الأخريين ولكن نكر ظل يتكلم بالأرقام ويستعرض من حسابات الدولة ما أثقل به رأس الجميع وبعد أن استغرق حديثه فى هذه الشئون نحو ثلاث ساعات أجهد فيها أذهان

سامعيه وأكَّدَها ختم خطابه بكلام فاتر كان يراعى فيه أن لا يحرج مركز الحكومة وأن لا يتورط مع الشعب .

على أن المشكلة التى كان ينبغى أن يعالجها خطاب العرش وأن يناقشها الوزراء فى خطبهم التالية بقيت لم تمس . وكانت أوّل ما شغل المجلس بعد فراغه من الاستماع لتلك البيانات المطوّلة التى لم تصرف ذهنه عن الاشتغال بها . وذلك أن الشعب انما قصد الى الاشتراك مع نوّاب الأشراف و رجال الدين فى المداولات والتصويت حينما مهد لذلك بمطالبة الملك بأن يصدر ذلك القرار القاضى بأن يكون عدد نوّابه مساويا لنوّاب الطائفتين الأخريين .

ولكن الأشراف ورجال الدين أصروا على أن ينفرد كل مجلس بنفسه وأن تصدر الأصوات بالمجالس لا بالرءوس ليفسدوا بهذه الطريقة على نوّاب الشعب ما كسبوه بكثرة عددهم فبذل نوّاب الشعب ما استطاعوا من الجهود للتوفيق وتوحيد الكلمة ومحو الفوارق بين الطوائف فى الجمعية ولكن حبط سعيهم أمام عناد الأشراف وهكذا نشأت جرثومة ذلك النزاع السياسى الهائل الذى انتهى بقلب نظام الحكم فى فرنسا .

الفصل الثالث

الجمعيـــة الوطنيـــة

الثورة تبدأ يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ظل نواب الطبقات الثلاثة فى أخذ ورد نحو خمسة أسابيع خرجوا منها كما دخلوا فيها متنازعين غير متفقين . فعوّل نواب الشعب أخيرا على العمـل بمفردهم وقرّروا دعوة نوّاب الأشراف ورجال الدين الى الحضـور بقاعة الشعب للقيـام بالواجبات التى انعقدت الجمعيـة العمومية من أجلها وقرّروا كذلك أنهـم يمثلون نحو ٩٦ ٪ من مجموع الأمة فهم لذلك أصحاب السلطة الشرعيـة فيهـا . واجتمعوا فعـلا فى اليوم السابع عشر من شهر يونيـه (١٧ يونيه سنة ١٧٨٩) وأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية منكرين بذلك وجود الطوائف الأخرى .

وهنـا لا ينبغى أن تفوتك أهمية هـذا القرار فلقد كان الملك وحزبه يستندون الى أساس قانونى حين كانوا يقولون إنهـم هم أصحاب السلطة بحكم التقاليد وبحكم الواقع . أما الشعب فلم يكن

يستند إلا الى النظرية الحديثة . نظرية سيادة الأمة التى تلقاها عن روسو وغيره من الكتّاب . فترى من ذلك أن الصراع فى الحقيقة كان قائما بين القانون القديم الذى جرى العمل به ونظرية سياسية حديثة يريد الشعب أن يتمسك بها و يحلها محل ذلك القانون القديم .

قرارات ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ :

ولقد أعلن نوّاب الشعب فى يوم ١٧ يونيه أنهم هم " الجمعية الوطنية " . وقرّروا بعد ذلك فى نفس الجلسة عدم شرعية الضرائب الحالية ولكنهم مع ذلك قرّروا الاستمرار فى جبايتها مادامت الجمعية منعقدة وضمنوا بهذا القرار الحكيم أن لا يفاجأوا بمرسوم يحل مجلسهم و يكون سببا فى إيقاف دفع الضرائب . وقرّروا كذلك انشاء لجنة للتموين كى تنظر فى مشكلة الغذاء وقلته وما يتهدّد البلاد من المجاعات وكانت هذه القرارات أوّل صوت رفعه الشعب فى وجه السلطة القديمة . فاذا أردت أن تحدّد بدء الثورة تحديدا علميا دقيقا فانقش فى لوحك هذا التاريخ — ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩

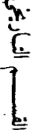
———

*

الفصل الرابع

اليمين التاريخية

كان يوم ١٧ يونيه سنة ١٧٨٩ فى تاريخ فرنسا يوما مشهودا له ما بعده . ولقد صعق الأشراف ورجال البلاط لوقع قرارات الجمعية الوطنية فيه فأجمعوا رأيهم على وجوب ذهاب الملك الى دار الجمعية فى موكب رسمى ليعلن أن قراراتها التى صدرت فى ذلك اليوم لاغية وليأمر بوجوب انفصال نواب الطبقات الثلاث وليضع بنفسه برنامج الأعمال التى يتناقش فيها المجلس ولو أنهم أفلحوا فى مفاجأة الجمعية بهذه المناورة الملكية لأمكن احتمال نجاحها ولكنهم آنسوا من بعض رجال الدين ميلا الى الانضمام للجمعية العمومية فأشفقوا من ذلك وخشوا أنه اذا تم كان تعزيزا لمركز الجمعية فرأوا أن يحولوا دون انعقادها حتى يحل موعد تلك الزيارة الملكية التى أعلنوا أنها ستكون فى ٢٣ يونيه . وأغلقت قاعة الاجتماع فى ٢٠ يونيه بحجة أن العمال سيتولون طلاءها واعدادها لدخول الملك . فلما التقى النواب على بابها المغلق فى صبيحة ذلك اليوم واعترضتهم قوة كانت مرابطة هناك لمنع اجتماعهم أحرجت صدورهم واندفع بعضهم



*

يقترح أن يتوجه الأعضاء الى قصر الملك نفسه و يعقدوا اجتماعهم تحت نوافذه ولكنهم أخيرا انصرفوا الى مكان فسيح مجاور كان يتخذ (ملعبا للتنس) وهناك تباحثوا فى الأمر فقرروا القرار الآتى :

« انه لما كانت مهمة الجمعية الوطنية هى وضع دستور للبلاد وتنظيم القواعد الأساسية للقانون العام وتأييد المبادئ الحقيقية للملكة فلا يحول أى مانع دون اجتماعها وموالاة أبحاثها ومداولاتها فى أى مكان تنعقد فيه وحيثما يجتمع أعضاؤها فالجمعية الوطنية تعتبر منعقدة بصفة رسمية . وعلى ذلك تقرر الجمعية أن يقسم أعضاؤها اليمين على ألا يتفرقوا و لا ينفرط عقدهم وأن يجتمعوا فى اى مكان تدعو اليه الظروف الى أن تتم وضع دستور للملكة وتقيمه على دعائم ثابتة » .

وقد كان الأعضاء يقسمون هذا القسم التاريخى العظيم بحماسة شديدة والشعب محيط بهم فى صمت يتجلى فيه عطفه عليهم وتأييده لهم . وقد رسم المصوّر الشهير (داڤيد) صورة رائعة لهذا الاجتماع ترى اليوم فى متحف اللوڤر و يتوسم فيها الناظر كل ما كان يحف بهذا المشهد العظيم من الروعة والجلال[١] .

(١) "الجمعيات الوطنية" تأليف الأستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الفصل الخامس

وقفـــة ميرابو الشهـــيرة

عاد النواب فى اليوم التالى الى ملعب التنس فوجدوا أن بعض الأمراء قد أعدّه للعب فتوجهوا الى كنيسة " سان لوى " حيث انعقدوا برا بقسم الأمس وهنا انضم اليهم كثير من رجال الدين وآستقبلهم نواب الشعب فى صفوفهم بالترحيب .

ودخل الملك القاعة فى ٢٣ مايو وعليـه كل مظاهر الأبهـة ومخيلة العهد القديم وخطب فيمن بها قائلا أن مندوبى الأمة لا بد أن يكونوا طبقات ثلاثا كل يعمل على حدته . وأنه ينبغى على الجمعية أن تكف عن الخوض فى الموضوعات المثـيرة للنفوس كموضوع الامتيازات وغيره . وأعلن عدم شرعية (قرارات ١٧ يونيه) وبنى على ذلك أنها تعتبر لاغية وأمر بحل المجلس على أن تجتمع كل طائفة من طوائفه ابتداء من الغد فى مكانها الخاص . ثم ختم حديثه بقوله :

« وانى لأقول لكم بحق أنه ما من ملك كان لشعبه مثل ما أنا لكم . فكونوا معى أكن معكم وإلا قمت وحدى بالعمـل لتحقيق مصالح الأمة واعتبرت نفسى مندوبها الفرد ! » .

وآنصرف ومن خلفه ذنب طويل من الأشراف ورجال الدين — أما نواب الأمة فظلوا فى أماكنهم ساكتين مطرقين الى أن قام ميرابو فيهم خطيبا وشق هذا الصمت المخيم عليهم بقوله :

" أيها السادة :

أنى أعترف لكم بأن الذى سمعتم الآن ربما كان فى صالح الأمة ولكنى أشك دائما فى كل ما تهديه الينا يد الاستبداد وأوجس منه خيفة . فما هذه الدكتاتورية الشائنة . انهم يريدون أن يكرهونا بقوة السلاح على أن نسلك سبيل السعادة التى يرسمونها لنا . فمن هذا الذى يصدر هذا الأمر ؟ انه وكيلكم ! من هذا الذى يضع هذه القوانين ؟ انه وكيلكم أيضا ! انه هو عين الشخص الذى كان ينبغى عليه أن يتلقى هذه الأوامر عنكم . نعم أيها السادة عنا نحن الذين تمثل ٢٥ مليونا كلهم ينظرون الينا و يتطلعون الى ما ستحمل اليهم من السعادة ولكن ها أنتم تجتمعون وتتناقشون تحت قوة السلاح . فمم يخشون علينا ؟ أين هم أعداء الشعب الذين يريدون حمايتنا من أيديهم ؟ انى أطلب اليكم أن تكونوا عند حد القسم الذى أقسمتموه . إن هذا القسم يمنعكم أن تنفضوا حتى تضعوا لهذه الأمة دستورا ! " .

ورأى كبير الأمنـاء أن النوّاب لم ينفضوا فعاد اليهم وذكرهم بأمر الملك فانبرى له ميرابو وصاح فى وجهه قائلا :

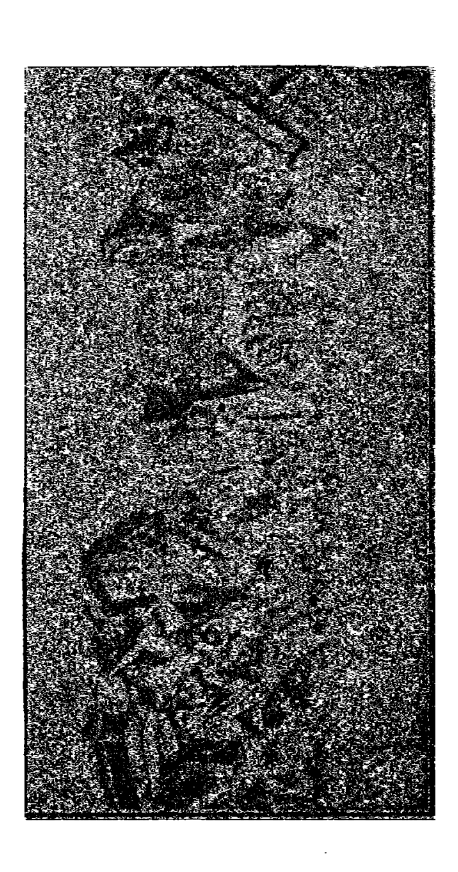
" اذهب الى سيدك وأبلغه انا نحن هنا بأمر الشعب ولن نبرح مكاننا هذا إلا مسوقين بأسنة الحراب ! " — وما كاد ميرابو يتم كلمته هذه حتى صاح النوّاب بصوت واحد " نعم هذه هى إرادة الجمعية " . فانسحب كبير الأمناء . وقام الأب سييس أحد أعلام الجمعية والمحرر لصيغة اليمين التاريخية التى أقسمها النوّاب فى ملعب التنس فخاطب زملاءه الأعضاء قائلا :

" أيهـا السادة ! إنكم الآن كما كنتم بالأمس ! هلموا لنتداول فيما لدينا من الأعمال" .

فأخذت الجمعيــة فى أعمالهـا فعلا وقررت التمسـك بقرارات ١٧ يونيه وأعلنت حق الحصانة النيابية بالنسبة لأشخاص النوّاب واعتبار كل من يعتدى عليهم مرتكبا لأعظم الجرائم . ولمـا وصل الى الملك تفصيل ما جرى رأى من الحكمة إلا يلجأ الى القوة وقال كلمته المأثورة :

" اذا كانوا لا يريدون مغادرة المكان فدعوهم وشأنهم[1] ! " .

(١) الجمعيات الوطنية (للرافعى) .



ميرابو : أبلغ سيدك أننا هنا بإرادة الشعب ولن نبرح المكان إلا على أسنة الحراب !

وفى اليوم التالى انعقدت الجمعية وعادت الى صفوفها اغلبية رجال الدين واشترك معهم فى ذلك ٤٣ شريفا كان من بينهم دوق أورليان ابن عم الملك فأرسل الملك فى ٢٧ يونيه الى بقية الأشراف ورجال الدين يوعز اليهم بالانضمام الى الجمعية فساروا اليها كارهين متثاقلين .

ولقد أراد دوق لكسمبرج زعيم الأشراف أن يعترض الملك فى أمره هذا فقال له : " إن هذا الأمر يا مولاى يعتبر بمثابة إعلان من جلالتكم بأن سلطة الجمعية الوطنية أصبحت فوق كل سلطة . والأشراف مستعدون لأن يفدوا جلالتكم بأرواحهم " . فما كان من الملك الطيب القلب إلا أن أجابه بكلمته المشهورة الأخرى :

" انى لا أريد أن يموت أحد من أجلى ! " .

---

*

الفصل السادس

مقاومة البلاط

وكأنما أخذت رجال البلاط نوبة إزاء هذا الانحدار الذى أصاب نفوذهم على يد الشعب . فتآمروا على الانتقام لأنفسهم وبدأوا باقصاء نكر عن الملك حتى لا يبقى تحت تأثيره هو ومن على شاكلته من المصلحين ووكلوا بالملك زوجته مارى انتوانت وأخاه (الكونت أرتوا) ليتوليا إقناعه بوجوب العدول عن خطة المسالمة وضرورة الالتجاء الى القوة فى استعادة ما خسرته الملكية من النفوذ فى الأيام الأخيرة . فما كان أسرع الملك الى الاقتناع بصدق نظرهم والنزول على إرادتهم . ولم يمض غير قليل حتى أحاطت باريس قوة عظيمة لا تقل عن ٤٠,٠٠٠ جندى فلم تطمئن الجمعية الى حشد هذه القوة حول باريس فى تلك الظروف . ووافقت على اقتراح ميرابو الذى يقضى بارسال وفد الى الملك يلتمس منه سحب هؤلاء الجنود . فلما ذهب الوفد أجابه الملك بأنه هو صاحب السلطة المطلقة فى تحريك جنوده حيث يشاء وان هذه القوة لم يقصد بها مع ذلك إلا المحافظة على النظام . وأنه ينصح أعضاء الجمعية

بالانسحاب الى ما وراء باريس إن كانوا يخشون من هـذه الجنود بأسا .

فأثار هذا الرد جميع الخواطر وجاء محققا لكل ما ساور الأذهان من المخاوف والأوهام واضطربت له المدينة اضطرابا عنيفا و بالغت الصحف فى تصوير الحـالة وتنافس الخطباء فى الهـاب الجماهير واذكاء حماستهم فكنت لا ترى حيث تسير إلا خطيبا يعد للناس ما يتهدّدهم من الأخطار ويناشدهم القيام فى وجه الظلم والظالمين وإلا جماعة أحاطت به فوقفت تسـتمع له بأفواه متقلصة الشفاه ووجوه ممتقعة اللون وعيون تنبعث منها نوايا الشر ولم يبق لانفجار هـذا المرجل الفوار إلا حماقة من حماقات البلاط التى سارت به نحو الهاوية هذا الشوط البعيد وكان جديرا به أن يتوقاها و يتجنبها فى هـذه الأوقات العصيبة ما آسـتطاع . غير أنه ما لبث ان جاد بتلك الحماقة وأوقد الفتنة التى كان عليه أن يحول دون اشتعالها .

ففى اليوم الحادى عشر من شهر يوليه بينما كان نكـر وزير الشعب على مائدة غذائه جاءه من الملك رسول برسالة يبلغه فيها أنه حكم عليه بالنفى وأنه يجب عليـه مغادرة البلاد فى الحال . ففرغ الرجل من طعامه . ولم يفض الى أحد ممن كانوا معه بفحوى الرسالة واصطحب مدام نكر معه فى عربته . وسار بها الى حدود فرنسا .

غير أن ما وقع لنكر فى داره فى ذلك اليوم لم يلبث أن تجاوبت به إنحاء باريس بعد ظهر اليوم التالى . وسرعان ما خرج الناس من ديارهم ألوفا واكتظت بهم الطرقات . وساروا الى حدائق (الباليه رويال) حيث كان يتبارى الخطباء فى تهييج عواطف النـاس . كل واحد فوق مائدة من موائد الحديقة يحيط به شيعته ومريدوه . وكان من بين هؤلاء الخطباء فى ذلك اليوم (كامى ديمولان) وهو خطيب شاب ميز نفسه فى الأيام السالفة بحماسه الفياض وبيـانه الخلاب . فاحتاط الناس بمـائدته ووقف هو بينهم أحمر العينين وفى يده مسدس مشهور ثم قال : " ايها المواطنون ! ليس لدينـا وقت نضيعه . لم يكن خلع نكر إلا نذيرا بمذبحة هائلة كمذبحة سنت برثلميو يكون ضحاياها من الوطنيين المخلصين . فى هذه الليلة ستقوم الفرق السويسرية والألمـانية من ثكناتهم ليذبحونا جميعا . لم يبق أمامنا إلا طريق واحد . ذلك أن نحمل السلاح ! " . فقوبلت كلماته هذه بصيحات الاستحسان العنيفة . فعاد واقترح عليهم أن يعملوا على تمييز أنفسهم بوضع شارات تجعلهم فى وسـط المعمعة يتعارفون ويتكاتفون . ثم قال :

" فهل تختارون اللون الأخضر — لون الأمل — أم الأحمر — لون الحرية ؟ " فصاحوا به جميعا "الأخضر ! الأخضر ! " فوثب



كي ديلان في الحديقة يخطب الجماهير

*

ديمولان عن ظهر (منبره) وأخذ بغصن فقطع طرفه ثم وضعه في جانب قبعته فحذا حذوه سامعوه حتى لم يعد يبق في الحديقة غصن أخضر ! (١)

وانطلقت هذه الجموع كلها في صورة مظاهرة هائلة كان يتزايد عددها كلما جازت شارعا جديدا . وكان في مقدمتها جماعة يحملون تماثيل نصفية للوزير نكر ولدوق أورليان أيضا لأنهم سمعوا أنه ستصدر الأوامر بنفيه كذلك كما نفي نكر . فلما بلغوا (ميدان فندوم) لقيتهم شرذمة من الجنود الألمانية فتصدت لهم وأرادت تفريقهم فأمطرها المتظاهرون وابلا من الحصى والحجارة فولت أمامهم الأدبار . وساروا حتى بلغوا (ميدان لويس الخامس عشر) وهناك قابلتهم قوة أخرى وأطلقت عليهم النار فقتل بعض المتظاهرين وتفرق الباقون . وتعقبهم قائد القوة هو وفرسانه شاهري السيوف فوقعت طعناتهم على بعض النظارة ممن لم يشتركوا قط في المظاهرة . فبلغ الاستياء منتهاه . وعم التذمر . وانتشرت الدعوة "الى السلاح" في كل مكان !

---

(١) (Mignet.) French Revolution.

الفصل السابع

يوم ١٤ يوليـــه فى باريس

ســقوط البـاســتيل

عرفت أنه فى يوم السبت ١١ يوليه نفى نكر . وفى يوم الأحد ١٢ يوليه قامت تلك المظاهرات التى أفسدها البوليس وأسال فيها الدماء وتسبب بذلك فى انتشار النـاس فى طلب السلاح . ولقد أدركت الجمعيــة الوطنية ســوء عاقبة هـذه الحركة اذا هى تركتها تجرى فى مجراها ولم تعمل على تلافيها . فبادرت بارسال وفد الى الملك ليطلعه على حقيقة الخطر الذى بات يتهدد البـلاد و يلتمس منه سحب الجنود الأجانب من باريس وتسليم المدينة الى حرس من الوطنيين . ولكن الملك رفض هذه المطالب فعاد الوفد يجرر أذيال الخيبة . غير أن هذا لم يفت فى عضد الجمعية . بل هيأ لها فرصة أخرى لتظهر فيها أنها كانت جديرة بذلك الاحترام الذى سطره لها التاريخ على صفحاته فانها اجتمعت لساعتها وقررت القاء مسئولية الموقف على الوزراء الحاليين الذين خلفوا نكر وزملاءه كما قررت التمسك بوجوب استبعاد الجنـود الأجانب وانشاء حرس وطنى .

وأخيرا قررت أنه خوفا من احتلال الحكومة لقاعة المجلس أثناء الليل ومصادرة الاجتماع يجب أنه لا تنفض الجمعية بل تداوم اجتماعها ليل نهار ويتناوب الأعضاء فى ذلك فيجلس بعضهم طول الليل على أن يحل محلهم غيرهم فى الصباح . وعين لا فاييت وكيلا للجمعية إشفاقا على الرئيس (بايى) من كثرة العمل ووفرة المجهود .

هذا ما كان من أمر الجمعية واحتياطاتها . أما الشعب فان هياجه كان يتزايد كل ساعة وفى صبيحة الاثنين ١٣ يوليه اكتظت الميادين بالناس وتألفت فرق وطنية من الأحياء المختلفة فكنت تسمع أن هذه فرقة متطوعى (الباليه رويال) وتلك فرقة متطوعى (التويلرى) وهكذا . وسرعان ما تم تنظيم هذه الفرق . وجعل على كل واحدة منها ضابط وتولى قيادة الجميع قائد عام . ثم ألغيت الشارة الخضراء وجعل مكانها اللونان الأحمر والأزرق وهما لونا مدينة باريس وبدأت دوريات المتطوعين تطوف شوارع المدينة فعلا . ولم يكن ينقصها غير السلاح .

وفى يوم ١٤ يوليه عاد الناس يلتمسون السلاح فى كل مكان وقد ضاقوا ذرعا بتلك الوعود التى كانت بلدية باريس تعللهم بها كلما طلبوا إليها أن تمدهم بالسلاح فحملوا على (الأوتيل ديزا نفاليد) وقد بلغهم أن بها كمية هائلة من الأسلحة واقتحموها رغم حاميتها

واستولوا منها على ٢٨ ألف بندقية وأخذوا كل ما كان فيها من سيوف وخناجر وأسلحة متنوعة .

وكانت قد راجت إشاعة منذ الصباح بأن الحكومة صوبت مدافعها من سجن الباستيل على شارع سانت انتوان استعدادا لمقاومة الجماهير وتشتيتهم والباستيل إذ ذاك عنوان الاستبداد وركن من أركان الاستعباد . كان حصنا عتيقا ذا بحور معتمة بها سلاسل وأغلال أعدها الملوك لأعدائهم الذين يحقدون عليهم لأمر ما عظم أم تفه . فكانوا يلقونهم فيه من غير تحقيق ولا محاكمة حتى إذا مات أحدهم فى ظلمته الموحشة أخرجوه ودفنوه سرا باسم مستعار ليظل أمره مكتوما إلى الأبد .

وقد أبدع الكاتب الانجليزى تشارلس دكنز فى تصوير هذا السجن وبيان أثره فى نفوس ضحاياه حين كتب روايته المشهورة (قصة المدينتين) فانه جعل مدار قصته نزيلا من نزلاء ذلك السجن كان فى شبابه طبيبا معروفا فى باريس . ووقع له يوما وهو فى نزهة على ضفاف السين أن اعترضته عربة بها اثنان من الأشراف حملاه على أن يذهب معهما إلى قصرهما وهناك عرضا عليه فتاة أخذتها نوبة من الجنون وفتى جريحا فى صدره يكاد يكون فى الهالكين . فلما وقف الطبيب بالفتى عرف منه أنه شقيق تلك الفتاة وأن

أخته تزوجت منذ زمان من شاب كانت تحبه ويحبها ثم رآها أحد النبيلين صاحبي القصر فحدثته نفسه باغتصابها فعــرض على زوجها أن يحملها على ما أراد فأبى كل الأباء فسامه سوء العذاب وجرعه البلاء ألوانا حتى قضى نحبه . فمد يده إلى زوجته وسباها فمــا بلغ الخبر أباها حتى مات غما . واقتفى الغلام أثر أخته إلى هذا القصر فكان جزاؤه ذلك الجرح المميت . وقد قام الطبيب على علاج الفتاة بعد موت أخيها هــذا أسبوعا كاملا ولكنها لحقت بأفراد أسرتها جميعا إلى الآخرة . وقد رأى الطبيب أن يشكو أمر هذين الشريفين الى الحكومة فقرر ما وقع له فى رسالة ثم رفعها إلى الوزير ولكنه لم يلبث أن أخذ من داره عنوة وألقى فى سجن الباستيل بعد أن قابله الاخوان فى الطريق وأظهرا له رسالته التى بعث بها إلى الوزير ومزقاها على مرأى منه أما هو فلبث فى السجن ثمــانية عشر عاما خرج بعــدها كما تخرج الموتى من القبور يوم النشور لاتقوى عيناه على مواجهة الضوء ولا تعى ذاكرته صورة أقرب النــاس إليه .

وانما أوردت لك هذه الصورة لتعرف منها نوع الجنايات التى كان يلقى مقترفوها فى هذا السجن من أجلها ولتعرف بأى عين كان ينظر النــاس إلى هــذا السجن ولتقف على ما كانت له من رهبة فى نفوسهم .

فلما سمعوا بأن الحكومة قد صوبت مدافعها عليهم من فوقه سار إلى رئيس حاميته وفد منهم يطالبه بسحب المدافع وكانت الجموع قد بدأت تتدفق أفواجها من أنحاء باريس منذ الساعة التاسعة صباحا وهى تهتف وتصيح "إلى الباستيل ! إلى الباستيل !" وظلت كذلك إلى الثانية بعد الظهر . فاجتمع فى الساحة التى أمام السجن خلق كثير وهم يحملون الحراب والسيوف والبنادق ووقف حراس السجن فى أماكنهم على أتم أهبة ورفعت الجسور المتحركة عن الخندق الذى يحيط بالسجن استعدادا للنزال وامتنع قائد الحامية عن سحب مدافعه .

وكان الشعب المتحمس مازال واقفا يصيح "الباستيل ! لابد لنا من الباستيل !" وكانت تربط تلك الجسور المعلقة سلاسل مثبتة فى الأرض . فهجم عليها أخيرا رجلان وأعملا فيها ضربا بالفؤوس . وانضم إليهم غيرهم . فلم يلبث الجسر الأول أن هوى إلى الأرض وعبر الناس عليه الخندق . واتجه غيرهم إلى جسر آخر ليكسروه . ولكن الحامية أطلقت عليهم النار وقتلت منهم كثيرا فزادهم منظر القتلى حماسة وأكسبتهم رؤية الدم المراق وحشية وظلوا فى مصارعة الأبواب والأقفال والنار من فوقهم تحصدهم حصدا نحو أربع ساعات وأخيرا أقبلت فرقة الحرس الوطنى بمدافعها فتغير

الموقف وطلبت الحامية التسليم . أما (ديلونى) رئيسها فقد ذهب إلى مستودع البارود الذى بالسجن وفى يده ثقاب موقد يريد أن ينسف به الحصن ومن فيه ولكن رجاله أوقفوه ورفعوا علما أبيض وأداروا فوهات المدافع إلى داخل القلعة رغبة منهم فى التفاهم مع الشعب وتسليم الحامية على شرط أن يسمح لها بالانسحاب آمنة على أرواحها غير أن المهاجمين أصروا على المطالبة بانزال الجسور أولا وفتح الأبواب وصاح رجل ممن كانوا فى الطليعة "أنزلوا الجسور! لن نمسكم بأذى!" ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير إلى السجن. وكانت أول صيحة تجاوبت فى جوانبه . "نريد رجال الحامية إنهم أطلقوا النار على إخوانهم . انهم يستحقون الأعدام!" ثم اندفعوا خلفهم يتعقبونهم فى كل قاعات السجن ويقتلونهم حيث ثقفوهم.

وبعد أن نقعوا غلة انتقامهم بكثرة ماقتلوا وحطموا ساروا فى موكب حافل ظافر وطافوا أنحاء المدينة مهرجين معربدين حتى أدركهم الأعياء فهجعوا . وعاد إليهم شىء من الهدوء فأخذوا يفكرون فى وسائل الدفاع عن أنفسهم إذ لابد أن يأتى دور الحكومة فتنزل العقاب بالثائرين فقضوا ليلتهم فى تحصين المدينة بأن خلعوا الأفاريز وأقاموا المتاريس وحفروا الخنادق واستكثروا من الحراب والرصاص . أما النساء فكانت مهمتهن حمل الحصى والحجارة إلى

سطوح المنازل تمهيدا لأمطارها على رؤوس الجند عند سيرهم في الطرقات .

وهكذا انقضت سحابة ذلك اليوم المشهود — يوم ١٤ يوليه الذى لا يزال يحتفل به الفرنسيون إلى اليوم فى أنحاء العالم بأنه يوم الشعب ! يوم سيادة الأمة ! يوم عيد الحرية !

---

*

الفصل الثامن

يوم ١٤ يوليه فى فرساى

مؤامرة البلاط

كان رجال البلاط منذ أصابت نفوذهم تلك اللطمة التى تحدثنا عنها فى الفصل الخامس يتآمرون بالجمعية الوطنية وبالشعب ويضعون الخطط لاحداث انقلاب حكومى يعوض عليهم ما خسروه ويعيد اليهم سلطانهم الضائع فتم اتفاقهم على معالجة الموقف بالصورة الآتية :

نظرا لما أعلنته الجمعية الوطنية فى قرارات ١٧ يونيه الشهيرة وما ترتب على ذلك من انتزاع قسط وافر من سلطة الملك لا بد أن يعيد الملك على مسامع الجمعية تصريحات ٢٣ يونيه الشهيرة ويحمل أعضاءها بقوة السلاح على قبولها والاذعان لما جاء فيها . ثم بعد ذلك — وعلى الرغم من ذلك — يصدر أمره بحل الجمعية ليتخلص منها ومن قراراتها بصفة نهائية .

ونظرا لأن الجمعية قررت فيما قررته أن الضرائب التى كانت تجبى فى ذلك العهد ضرائب غير شرعية ولكنها قررت كذلك بقاءها

بصفة مؤقتة طول مدّة انعقاد الجمعية لتقيد الحكومة حتى لا تقدم على حل المجلس و إلا سقط حقها فى جباية الضرائب طبعت الحكومة ما يزيد على ١٠٠ مليون من الجنيهات وأعدّتها لمقاومة ما قد يصادفها من العقبات فى جمع المال بعد حل الجمعية .

وكان البلاط قليل الثقة بمجهود أهل باريس وقوتهم ولم يكن يتصوّر أنهم سيوفقون إلى انشاء حرس وطنى منظم مجهز بالسلاح الكافى . ولم يكن يفهم كذلك أن الحركة ستتجاوز المظاهرات وتدخل فى دور العصيان المسلح . فعوّل على ما عوّل عليه من حل الجمعية الوطنية والضرب على أيدى الثائرين وكان ذلك يوم ١٤ يوليه نفسه الذى سقط فيه الباستيل . وكانت الجمعية على شىء من العلم بما يبت لها البلاط من النوايا . وكانت قد أوفدت إلى الملك وفدين على أثر ما كان يصل إليها من أنباء الاضطرابات الواقعة فى باريس تلتمس منه سحب الجنود من العاصمة . ولكن الملك لم يعر أحد هذين الوفدين شيئا مما يجدر بهما من الاهتمام . فلما جاءت أنباء الباستيل جلست الجمعية تعد وفدا ثالثا لمقابلة الملك و إعادة التماساتها السابقة على مسامعه ووقف ميرابو يزوّدهم بنصائحه قائلا :

" أبلغوه أن جنوده الذين غمرونا بقضهم وقضيضهم قد غمرتهم أيدى أمرائه وأميراته وحاشيته بالتحف والهدايا والمنح . أبلغوه أن هؤلاء الجنود الأجانب بعد أن امتلأت أفواههم ذهبا وخمرا باتوا يتغنون باخضاع فرنسا و يتوعدون بتشتيت الحرس الوطنى " .

ولكنه ما كاد يتم كلامه حتى أقبل الملك وكان قد وقف على حقيقة ما وقع فى باريس . وطارت نفسه اشفاقا من هول العواقب . فأرسل الى الجمعية من يعلنها بأنه قادم ليطمئن أعضاءها بنفسه على حسن نواياه . فقابل الناس هذا الخبر بالاستبشار والتهليل ولكن ميرابو حذر زملاءه من أن يسترسلوا فى عواطف قد تكون سابقة لأوانها ثم عقب بقوله . " فلننظر إذن ما هى تلك النوايا الحسنة التى يريد جلالته أن يفضى بها إلينا . إن دماء إخواننا تسيل فى باريس فليكن احترامنا الحزين هو أوّل ما يقابل به الملكَ نوابُ هذا الشعب التعس . أن فى صمت الشعوب درسا للملوك ! " فعاد المجلس إلى هدوئه وسكونه الذى لازمه طول الأيام الثلاثة الماضية .

ودخل الملك بغير حراس . ولم يكن خلفه إلا أشقاؤه الأمراء فقابله الأعضاء فى أوّل الأمر بالصمت العميق . ولكنه تقدّم اليهم

وخاطبهم قائلا أنه يثق فى حكمة تصرفاتهم وأنه اعتمادا على حبهم وولائهم له قد أمر بسحب الجند من باريس وفرساى وأنه يعول على اخلاصهم فى تلافى الحالة التى وصلت اليها باريس . فقوبلت كلماته الأخيرة بالارتياح التام والتصفيق . وقامت الجمعية بكامل هيئتها فأحاطت بعربته وشيعته الى قصره وسط التهليل والهتاف . ثم عاد فصرح بعزمه على استعادة نكر وطلب الى المجلس أن يتوسط بينه و بين الوزير وأن يعمل على اعادة حسن التفاهم بينه و بين الشعب .

وفى ١٥ يوليه سار بهذه الأنباء السارة وفد الى باريس فتلقاه الناس بالترحيب والحماسة واتفقت الكلمة على أن ينصب (بايى) رئيس الجمعية محافظا لباريس وأن يتولى الجنرال لافاييت رياسة الحرس الوطنى .

وسافر الملك من فرساى الى باريس فى ١٧ يوليه ليعزز بظهوره شخصيا روح التفاهم الجديد بين الحكومة والشعب . ووافق على تعيين بايى ولافاييت فى مكانيهما . ورأى الثوار اكراما له أن يضموا لون الملكية الأبيض الى لونيهما الأزرق والأحمر فتألفت من ذلك الرايه الفرنسية المعروفة اليوم .



الرئيس بايي (Bailly)

وفشلت بذلك مساعى البلاط فى احداث الانقلاب الحكومى الذى دبروه . وفر كثير منهم الى ايطاليا وغيرها وأعيد نكر . ودخل حدود فرنسا دخول القائد اذا عاد الى وطنه من ميدان القتال وعلى رأسه أكاليل النصر . ولكن لاينبغى أن ينسى الانسان أنه لم يكن مدينا بمركزه هذا الذى حصل عليه من نفوس الفرنسيين لما قام به من جلائل الأعمال . ولكنه كان مدينا به لما لاقى من الارهاق والاضطهاد على يد الملك والبلاط .

*

الفصل التاسع

آثار سقوط الباستيل

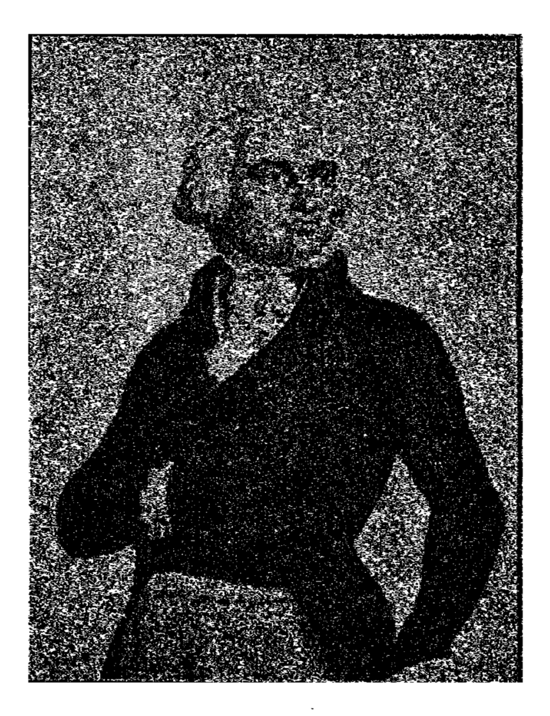
يجدر بنا قبل أن نختم هذه المرحلة من تاريخ الثورة أن نقف قليلا لنتأمل فيما أحدثه سقوط الباستيل من النتائج الجسام .

لقد كانت المعركة الدائرة بين الشعب والحكومة قبل يوم الباستيل معركة كلامية والنزاع فيها نزاعا سياسيا لا يتعدى القول واصدار القرارات . فالجمعية الوطنية أصدرت قرارات ١٧ يونيه فرد عليها الملك بمناورة ٢٣ يونيه ونجح نواب الشعب فى ضم بعض نواب الطائفتين الأخريين اليهم يوم ٢٤ وأعقب ذلك تسليم الملك فى ٢٧ واصداره الأوامر الى هؤلاء النواب بأن ينضموا الى الطائفة الثالثة . كل ذلك كما بينا كان صراعا فى ميدان القول والسياسة وكان لابد أن ينتقل الصراع يوما ما الى ميدان العمل فتقف قوة مسلحة أمام قوة مسلحة أخرى ولقد وقع ذلك فى ساحة الباستيل يوم ١٤ يوليه وخرج الشعب ظافرا من أول معركة دموية وقعت بينه وبين الحكومة كما خرج ظافرا من جميع المعارك (الدبلوماتية) التى سبقت ذلك .

ولكن لاينبغى أن ينسى الانسان أن رجال الجمعية الوطنية وأهل الطبقة الوسطى لم يكونوا ينظرون بعين العطف الى هذا الفوز الباهر الذى أحرزه الشعب . وهذا الاندفاع الشديد الذى دلت بوادره على وعورة الطريق التى سيركبها العامة فى معارضتهم للسلطة القائمة . ولقد زاد الطين بلة أنه ظهر فى هذا الموقف العصيب من جعل دأبه أن يصطاد فى الماء العكر كالدوق أورليان بن عم الملك فأنه بينما كان بايى ولافاييت يعملان على المحافظة على النظام و بينما كان المجلس يحاول تحقيق رغبة الملك فى الوساطة بينه و بين الشعب كان الدوق أورليان هذا وأمثاله يثيرون خواطر الشعب و يدفعونه الى الثورة والعصيان ، بل بينما كان بايى يعمل ليل نهار لتنظيم أعمال لجنة التموين التى أنشئت فى باريس لوقاية أهلها من المجاعات وارتفاع الأسعار كان دوق أورليان يعمل فى الخفاء على عكس هذه الجهود و إحباط هذه المساعى المشكورة فكان يشترى الكميات الهائلة من القمح و يملأ بها خزائنه ليخرجها من السوق و يساعد بذلك على استحكام الأزمة واشتداد الضيق (١) .

ولقد كان الدوق أورليان هذا فى أول أمره طامعا فى الملك والوصول الى العرش ولا سيما بعد أن رأى عقم الملك والملكة وأنهما

(١) (Lodge.) Moderne Europe.



لوى فليب — دوق أورليان

ظلا من سنة ١٧٧٠ الى سنة ١٧٦٨ دون أن يكون لهما عقب . فلما عولج الملك سنة ١٧٧٧ ووضعت الملكه بنتا سنة ١٧٧٨ ثم غلاما سنة ١٧٨١ ضاع أمله وأراد أن ينتقم لنفسه باحراج مركز الملك على النحو الذى أسلفت لك وباثارة الاشاعات السيئة حول الملكة والنيل من سمعتها واخلاصها للملك . وكان ذلك عليه هينا سهلا بعد ما رأى الناس من سلوك الملكة واستهتارها وبعد ما سمعوا عنها فى قضية الكردينال دى روهان من أنها كانت تكاتب هذا الرجل سرا وأنها قابلته ذات ليلة فى ناحية من نواحى حديقة القصر . وأنها كلفته أن يشترى باسمها عقدا ثمينا من الماس النادر — وعلى الرغم من أن التحقيق أثبت أن تلك المكاتبات كانت زائفة لم تكتبها الملكة وأن المقابلة نفسها كانت زائفة أيضا لأنها تمت بين الكردينال وبين سيدة أخرى تشبه الملكة فى شكلها . وأن الكردينال كان مخدوعا فى كل ماحصل وأنه كان حسن النية فى كل مافعل . فان الدوق أورليان وأمثاله استغلوا هذا الحادث لمصالحهم وأثاروا حول اسم الملكة التهم والشكوك ليتسنى لهم تحقيق اطماعهم وتنفيذ نواياهم .

ولقد فتح دوق أورليان هذا حدائق قصره للشعب فكانوا يجتمعون فيها ويرسم لهم بنفسه خطط المظاهرات ويملى عليهم صور الهتافات ويمدهم بالمال والآراء ويطلقهم على خصومه ويحرشهم

بهم طمعا فى اسقاطهم والوصول الى العرش . وكان ذلك سببا فى استعصاء الأزمة على من حاول علاجها من المصلحين .

تلك كانت حالة الطبقات المختلفة عقب سقوط الباستيل . فأما السوقة من أهل باريس فقد أضراهم هذا النجاح وزاد ضرورتهم ما كان يغريهم به دوق أورليان وأمثاله للنكاية بالملك والبلاط . وأما رجال الجمعية وأهل الطبقة الوسطى فكانوا يحذرون الشعب ويراقبون حركاته بغاية الاحتياط حبا منهم فى المحافظة على النظام . وأما الملك فكان يريد التقرب من الشعب والتحبب اليه طمعا فى تهدئته واخضاعه . وأما البلاط فكان لايزال على عمايته يفكر فى الانتقام وفى اعادة العهد القديم .

أما فى الأقاليم فما كادت تصل أنباء الباستيل الى أهلها ويقفون على ما جرى فى باريس من أعمال العنف حتى سرت اليهم العدوى وأحبوا أن لا يكونوا وراء أهل باريس فى الشهامة والوطنية فأعلنوا العصيان وامتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة عليهم للأشراف ثم قاموا الى قلاعهم وهى فى نظرهم تمثل الباستيل فدمروها وأحرقوها . ثم أوقعو فى أهلها قتلا وتمثيلا . وانتقموا لأنفسهم من مظالم الأجيال السالفة فى أشخاص معاصريهم من الأشراف !

الفصل العاشر

مساء ٤ أغسطس

خاتمة العهد القديم

عرفت أن المركيز لافاييت قائد الحرس الوطنى كان زعيم النبلاء الأحرار الذين أزروا الثورة وجاهروا بتأييد مبادئ الحرية والمساواة وكان قد اشتهر قبل حوادث الثورة بمحاربته فى صفوف الامريكان فى حرب استقلالهم . فلما أخذت الجمعية الوطنية فى فرنسا على عاتقها وضع دستور للبلاد تقدّم اليها لافاييت هذا باقتراحة الوجيه الذى رأى فيه أن تبدأ الجمعية عملها بتقرير مبادئ عامة لحقوق الانسان على مثال اعلان الأمريكان وثيقتهم المشهورة التى ضمنوها حقوقهم فى الاستقلال فى مؤتمر فيلا دلفيا سنة ١٧٧٦

فبدأت الجمعية تتناقش فى تقرير هذه المبادئ فى اليوم الرابع من شهر أغسطس سنة ١٧٧٩ ولكن رفع للجمعية فى مساء ذلك اليوم تقرير هام عن الفوضى التى كانت ضاربة أطنابها فى الأقاليم على أثر ما وقع فيها من التخريب بعد سقوط الباستيل .

وتلى هذا التقرير على الأعضاء وكان مما ورد فيه أن الخطابات تترى من جميع الأقاليم وفيها أن ممتلكات الناس على اختلاف أنواعها أصبحت نهبا يتقاسمه العابثون الأشرار . وانهم يحرقون قصور الأشراف فى بعض الجهات ويخربون الأديرة ويسلبون كل ما وصلت اليه أيديهم فى مزارع الأغنياء . وانهم قد كفوا عن دفع ما عليهم من الأموال الأميرية والضرائب الأقطاعية . وان القوانين أصبحت ملغاة لا عمل لها والحكام أصبحوا صورا لا سلطان لهم .

فرأت الجمعية ازاء هذه الحالة أن تعمل على تهدئة الشعب من جهة وتحقيق رغباته من جهة أخرى بأن تعلن انتهاء العهد القديم . وبطلان جميع الامتيازات ولكنها أشفقت أن يكون مثل هذا الاعلان مدعاة الى رجوع الملك الى صف الأشراف وسببا فى احداث مشاكل جديدة غير أن الله وفقها فى الوصول الى هذه الغاية توفيقا تاما اذ قام أحد الأشراف واقترح على زملائه أن ينزلوا عن امتيازاتهم فقوبل اقتراحه بالتصفيق الشديد وصيحات الاستحسان العالية واهتزت أريحية الأشراف تحت تأثير هذه الحماسة البالغة وغلب الانفعال على عواطفهم ورأوا أن الظروف تقضى باندماجهم فى جمهور الشعب وأخذوا يتناقشون فى الأدلاء بأمثال هذا الاقتراح

ويفاخر كل واحد منهم بأن يعرض على الجمعية النزول عن حق من الحقوق القديمة سواء أكان يملكه أم لا يملكه . وبقية الأعضاء من حولهم يقابلون هذه المباراة بالتحية الكريمة والهتاف الحاد الى أن انتصف الليل وقرارات النزول تنهال سراعا بعضها فوق بعض حتى لم يعد يبقى شيء من أثار العهد القديم .

وختمت الجمعية قراراتها فى تلك الليلة المشهورة بأن أعلنت رضاءها عن الملك لويس السادس عشر وتبرعت له بلقب "معيد الحرية الى فرنسا" .

وأقيمت قبيل الصباح صلاة شكر لله على هذا التوفيق .

ولقد كتب بعض أعداء الثورة عن هذه الليلة فوصفها بأنها كانت (سنت برتلميو الملكية) والحقيقة أنها لم تكن إلا (سنت برتلميو الامتيازات ومساوئ الملكية) فانها اكتسحت رذائل عهد الأقطاع وأعلنت انتهاءه وحررت أعناق الناس من أغلال السخرة . ومن قيود الصيد وارهاق الضرائب الفادحة ووقفت حدا فاصلا بين عهد قديم كان كل شيء فيه ملكا لبعض الأفراد وعهد جديد أصبح كل شيء فيه ملكا لمجموع الأمة . لقد غيرت تلك الليلة وجه فرنسا فاصبح الفرنسيون جميعا متساوين فى الحقوق . وأصبح لكل واحد منهم الحق فى شغل أى منصب من المناصب

العالية. وفى أن يطمع فى امتلاك شيء لنفسه خاصة دون أن يكون لغيره حقوق عليه. وفى أن يختار لنفسه ما شاء من المهن والصناعات بعد أن كان محروما من هذا الحق أو مقيدا فى استعماله بأثقل القيود. ولقد تمت فى تلك الليلة ثورة لا تقل عن ثورة ١٤ يوليه فى نجاحها وبعد آثارها . فانها منحت الأمة حق السيادة على المجتمع كما أن ثورة ١٤ يوليه منحتها السيادة على الحكومة .

وهكذا مرت حوادث الثورة سراعا تباعا ففى ١٧ يونيه قضى على ما بين طوائف الأمة من الفوارق . وانقلبت الجمعية العمومية الى جمعية وطنية .

وفى ٢٣ يونيه قضى على نفوذ الحكومة الأدبى .

وفى ١٤ يوليه قضى على سلطتها المادّية — وورثت الجمعية الوطنية ذلك النفوذ كما ورث الشعب هذه السلطة .

وأخيرا حل يوم ٤ أغسطس وكان خاتمة هذا الفصل الأوّل من رواية الثورة وهو الفصل الذى انتقلت فيه السلطة من يد الى يد . ووقعت فيه تلك التغييرات الأوّلية التى أقيم عليها بنيان الثورة فيما بعد .

*

الباب الخامس

من ٥ أغسطس ١٧٨٩ — ٣٠ سبتمبر ١٧٩٠

الجمعية الوطنية تضع الدستور

الفصل الأول

حقـــوق الانسان

عاد المجلس إلى البحث فى حقوق الانسان وتقريرها وكان من رأى الكونت ميرابو أن لا تقرر الجمعية هذه الحقوق إلا بعد وضع الدستور نهائيا لتكون بمثابة خلاصة لأحكامه . ولكن الجمعية أخذت باقتراح المركيز لافاييت ورأت أن يكون تقريرها سابقا على وضع الدستور لتكون بمثابة أساس لقواعده وليبقى اعلانها على مدى الدهور صكا تحترمه الحكومات فى علاقاتها مع الشعب . ولقد اكتسبت وثيقة «حقوق الانسان» مركزا ساميا فى جميع البلاد الأوروبية واصبحت فى نظر شعوبها نبراسا يهتدى به

وعلى أصولها ترتكز اليوم فعلا دساتير الأمم الحرة فى أوروبا وفى سائر أنحاء العالم .

واليك ترجمة هذه الوثيقة التاريخية المشهورة [١] :

" أن نواب الشعب الفرنسى المجتمعين فى هيئة جمعية وطنية لما رأوا أن ما ينزل بالمجتمع الانسانى من المصائب والشقاء وفساد الحكومات يرجع إلى سبب واحد وهو جهل حقوق الانسان أو تجاهلها أو العبث بها . قد قرروا أن يصدروا إعلانا عاما ببيان حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لا يصح أن تمتد اليها يد العبث والمساومة وذلك ليكون هذا الاعلان راسخا فى أذهان بنى الانسان يذكرهم على الدوام بحقوقهم وواجباتهم ولتحترم أعمال السلطة التنفيذية المنطبقة على الأغراض التى يصبوء اليها المجتمع الانسانى ولتكون مطالبة الناس بحقوقهم مؤسسة من الآن على مبادئ واضحة لا نزاع فيها ولا جدال فيكون قوام هذه الحقوق صيانة الدستور وضمانة سعاده المجموع .

لذلك تعلن الجمعية الوطنية بعناية الله العلى الأعلى الحقوق الآتية للانسان :

---

(١) الجمعيات الوطنية (للرافعى) .

(١) يولد الناس و يعيشون احرارا متساو ين فى الحقوق لا تمييز ولا تفاضل بينهم إلا فيما تقتضيه المصلحة العامة .

(٢) الغاية من كل مجتمع انسانى صيانة الحقوق الطبيعية للانسان . تلك الحقوق التى لا تزول مهما تقادم عليها الزمان وتعاقب الجديدان وهى الحرية والملكية وطمأنينة النفس ومقاومة الاضطهاد .

(٣) كل سلطة مصدرها الشعب وحده ولا يحق لأى فرد أو أية جماعة أن يأمروا أو ينهوا إلا اذا استمدوا السلطة من الشعب .

(٤) الحرية تنحصر فى امكان عمل كل ما لا يضر بالغير . فلكل امرئ أن يتمتع بحقوقه الطبيعية فى الدائرة التى لا تؤذى تمتع الناس بتلك الحقوق وتحديد هذه الدائرة موكول إلى القانون .

(٥) ليس للقانون أن يحظر على الناس من الأعمال إلا ما يعود بالضرر على المجتمع وكل ما لا يمنعه القانون مباح ولا يحق إكراه امرئ على عمل لا يحتمه القانون .

(٦) ان القانون هو مظهر الارادة العامة للأمة ولأهل البلاد جميعا الحق فى أن يشتركوا فى وضعه بأنفسهم أو بواسطة نوابهم والقانون واحد بالنسبة للجميع سواء أكان مانحا أم مانعا حاميا أم معذرا والناس سواء أمام المراتب والوظائف العامة لا تفاضل

بينهم إلا فى اختــلاف كفاءاتهم ولا تميز إلا فيما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم .

(٧) لا يصح اتهام انسان أو حبسه أو القبض عليــه إلا فى الأحوال المبينة فى القانون بشرط اتباع اجراءاته وكل من ينفــذ أمرا استبداديا مخالفا للقوانين أو يأمر به أو يوعز بتنفيذه يستحق العقاب وعلى كل إنسان يستدعى أو يقبض عليه طبقا للقانون أن يطيع حالا واذ عصى أو قاوم يستوجب العقاب .

(٨) لا يصح أن يحتوى القانون إلا العقوبات التى تستلزمها الحاجة الاجتماعية ولا يصح عقاب انسان إلا بمقتضى قانون صدر ونشر قبل ارتكاب العمل .

(٩) مفروض ان كل انسان برئ حتى تثبت إدانتــه واذا دعت الضرورة للقبض على امرئ قبل التحقق من ادانتة فكل شدّة تستعمل معه دون أن يدعو اليها التأكد من بقائه رهن السلطة تستوجب العقاب الشديد .

(١٠) لا يؤذى الانسان بسبب آرائه ولو كانت دينية ما دام التصريح بها لا يضر بالنظام العام الذى يقرره القانون .

(١١) حرية الجهر بالآراء والأفكار من حقوق الانسان المقــدسة . فلكل امرئ أن يتكلم ويكتب ويطبع بملء الحرية

بشرط أن لا يسيء استعمال هذه الحرية في الأحوال التي يبنها القانون .

(١٢) ان ضمان تمتع الناس بحقوقهم يستوجب إيجاد سلطة عمومية فهذه السلطة منشأة لمصلحة المجموع لا لمصلحة من يوكل اليهم إدارتها .

(١٣) لبقاء هذه السلطة العمومية ولأدارة الحكومة عموما يجب جباية الضرائب العامة وهذه الضرائب يجب توزيعها بالسواء بين الأفراد كل بحسب طاقته .

(١٤) لأهل البلاد جميعا الحق في أن يقرروا بأنفسهم أو بواسطة نوابهم الضرائب التي تستلزمها المصلحة العامه . وتقريرها يكون بملء الحرية ولهم أن يحددوها ويحددوا قواعد ربطها وطريقة جبايتها ومدتها وطريقة انفاقها .

(١٥) للهيئة الاجتماعية أن تحاسب كل موظف عمومي وتراقبه في أعمال وظيفته .

(١٦) كل هيئة اجتماعية لا ضمانة فيها لحقوق الانسان ولا فصل فيها بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية تعتبر محرومة من الدستور .

(١٧) من حيث أن الملكية حق مقدّس لا يصح العبث به فلا يحل حرمان أحد من ملكه إلا اذا اقتضت ذلك المصلحة العامة طبقا لنصوص القوانين وفى هـذه الحالة يجب تعويض المالك عن ملكه .

*

الفصل الثانى

الدستور

بعد أن فرغت الجمعية من اعلان حقوق الانسان أخذت تتناقش فى مواد الدستور الذى قدمته اليها لجنة كانت قد كلفت بوضع مشروع لذلك .

وكانت أول نقطة ثار حولها النزاع ما عرضته اللجنة من جعل السلطة التشريعية فى يد مجلسين : مجلس للنواب تنتخبه الأمة ، ومجلس للشيوخ يكون للملك حق تعيين مائتين من أعضائه . ولكن اتفقت الكلمة أخيرا على أن تكون السلطة التشريعة فى يد مجلس واحد تنتخبه الأمة .

ثم جاءت مشكلة علاقة الملك بهذه الهيئة التشريعية . وكان مشروع اللجنة يقضى بأن يجعل للملك الحق فى أن يمتنع عن الموافقة على أى قانون تعرضه الهيئة فيقف بذلك نفاذه ولكن ثار لذلك حزب اليسار وهو حزب الثورة وكبر عليه أن يرى مصالح ٢٥ مليونا من الأنفس تترك تحت رحمة رجل واحد وكان دوق أورليان يعمل خارج المجلس كذلك على إحباط هذا الرأى وتضييع هذا الحق على

الملك . فكان يعلم الناس أن يقولوا (à bas le Veto) ـ "ليسقط القيتو" ـ وهم يكررون ذلك خلفه وأغلب ظنهم أن هـذا (القيتو) الذى يهتفون بسقوطه هو نوع حديد من الضرائب ولا يعلمون أنه حق الملك فى رفض القوانين ! .

وأخيرا قرر قرار الجمعية على أن يمنح الملك هذا الحق مع تقييده بشروط تجعل الكلمة النهائية فى اصدار القوانين للأمة نفسها ولو كان الملك معارضا لها [1] .

وبذلك أصبحت الجمعية التشريعية فى الدستور الجديد تملك حق عرض القوانين وسنها وتقرير الضرائب ووضع الميزانية ومراقبة أعمال الادارة . وأصبح لها كذلك حق اعلان الحرب وعقد الصلح بناء على طلب الملك وأن تحاكم الوزراء وكبار الموظفين أمام محكمتها

---

(١) "حق القيتو" :

تعرض القوانين على الملك ولا بد من موافقته عليها لتكون نافذة . فاذا عرض عليه قانون ولم ير الموافقة عليه لم ينفذ ولكن يكون للمجلس حق فى أن يعرضه عليه مرة أخرى بعد مضى سنتين . فاذا بقى الملك على رأيه لم ينفذ أيضا . ولكن اذا عرضه المجلس للمرة الثالثة بعـد سنتين أخريين فلا عبرة برأى الملك ولا بد من نفاذ القانون سواء أوافق عليه الملك أم لم يوافق .

العليا وأن تحاكم أمام هيئتها كل شخص متهم بالتآمر على سلامة المملكة . أو على الدستور . وجعلت لنفسها كذلك الحق فى تنظيم طريقة منح الرتب والنياشين على قاعدة مكافأة الأفراد على الخدمات التى يؤدونها للمجموع .

---

*

الفصل الثالث

يوم ٥ و ٦ أكتوبر

مظاهرة النساء

وبينما كانت الجمعية جادة فى نظر هذا الدستور ومناقشة نصوصه وتقرير مبادئه كان لا يزال عمال السوء يثيرون الفتن والقلاقل وينفثون سمومهم فى صدور الشعب الساذج سواء أكان ذلك فى باريس نفسها أم فى الأقاليم . وكان على رأس هؤلاء دائماً دوق أوليان الذى مابرح يتطلع للعرش . وكانت خطة أنصاره ترمى الى التخلص من الملك بأحد أمرين : إما قتله والفراغ من أمره مرة واحدة ، وإما إرهابه وحمله بذلك على الفرار من فرنسا ليخلو الطريق أمام الدوق . ولكن لويس لم يرض أن يترك عرشه لابن عمه لقمة سائغة يزدردها بهذه السهولة فلبث الدوق يتربص حتى تحين له فرصة مناسبة لتحقيق أغراضه ... .

... ...

وكان الملك يقيم فى قصره بفرساى جريا على عادة الملوك منذ انتقل لويس الرابع عشر من باريس الى تلك الضاحية سنة ١٦٨٩

أى قبل الفترة التى ندرسها بقرن كامل . فكان أهل باريس يظنون أن بقاء الملك بعيـدا عن عاصمة ملكه يجعله غريبا عنها نوعا ما . فهو لذلك لا يعطف على أهلها ولا يفتأ رجاله يدبرون دسائسهم لخصومهم فيها وهم فى مأمن من رقابتها .

وحدث أن أسـعار الغلال والخـبز ارتفعت ارتفاعا باهظا فى المدينة تبعـا لضعف المحصول فى ذلك العام . فضج النـاس بالشكوى وألهب خواطرهم ما كان يروجه أعداء الملك والملكة عن عيشة البذخ التى كانا يعيشانها فى فرساى . فاتجهت أنظار الشعب الى تلك الضاحية .

وأخيرا حدث أن الملك استدعى فرقة (الفلاندرز) لتعزيز قوة الحـرس فى قصره وليقوم بواجب الدفاع عن نفسه إزاء ما تظهره الأحزاب المتطرفة فى باريس من روح التمرد فزاد ذلك فى مخاوف الناس وراجت الاشاعة بأن البلاط يعد حملة منظمة للقضاء على الثورة ورجالهـا . وكانت كل الظواهر تؤيد ذلك . فان ضباط الحـرس أقاموا وليمة فاخرة لرجال الفـرقة الجديدة وبالغ البـلاط فى تكريمهم والحفاوة بهم . فسمح لهم باقامة الحفلة فى مسرح القصر الذى لم تكن تقام فيه إلا أخص حفلات الملك . كما سمح لهم بفرقة الموسيقى الملكية للمرة الأولى فى تاريخ حفلات الحرس وكان الضباط

أثناء الوليمة يشربون نخب الملك والأسرة المــالكة . ولم يجر نخب الأمة على لسان واحد منهم طول السهرة . وعند منتصف الليــل دخل الملك عليهــم فى لباس الصيد والملكة مستندة اليــه باحدى ذراعيها وولى العهــد على ذراعها الأخرى فتعالى الهتــاف من كل جانب وشرب الجميــع نخب الأسرة المــالكة من جديد وانصرف الملك عقب ذلك وبدأت عربدة الضباط فرموا بشارة الثورة المثلثة الألوان الى الأرض ووطئوها بأقدامهم ثم انسلوا الى حجرات القصر حيث تلقاهم نساء البــلاط بالتهانى وغمرنهــم بشرائط الحــرير وشارات الشرف[1] !

وأعيدت هذه الحفلة بفخامتها وزينتها مرة أخرى فى الثالث من شهر أكتوبر . وما كان أغنى الملك عن مثل هذه الحفلات . فانه أراد أن يلقى بهــا الرعب فى قلوب الباريسيين فلم يزد على أن أشعل بها حماستهم وضاعف بها ســوء ظنهم ؛ وأراد أن يدفع بها مطامع باريس عن ڤرساى فلم يزد على أن جعل ڤرساى بها نصب عين باريس وما بلغت هذه الحفلات باريس حتى اضطربت لها النفوس وبات الناس ولا حديث لهم إلا إفساد هــذه التدابير التى تبيت لهم فى ڤرساى .

(١) Fr. Rev. (Carlyle.)

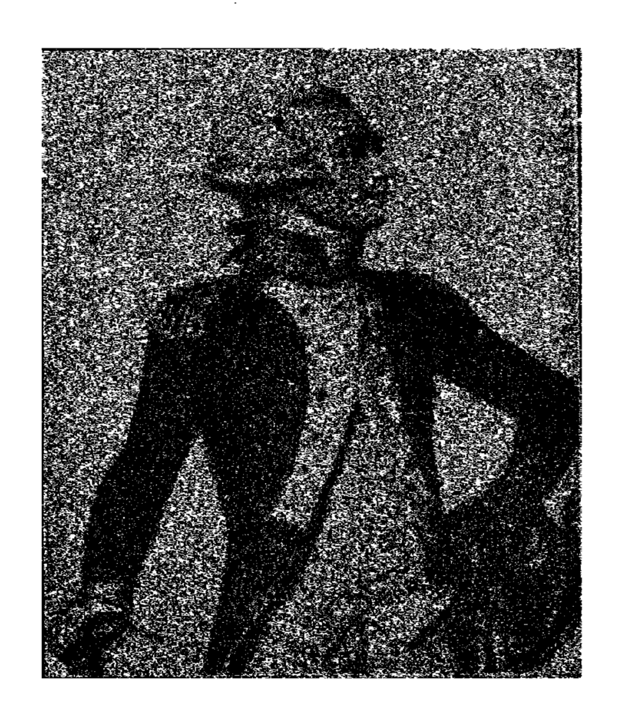
وحدث أخيرا (٥ أكتوبر) أن بلغت أزمة الخبز أشدها في باريس فاقتحمت فتاة صغيرة أحد المخافر وتناولت منه طبلا وخرجت عدوا في الطرقات تضربه وهي تصيح "الخبز! الخبز!". فأحاط بها في مثل لمح البصر جماعة من النساء . وتقدم الجميع الى المحافظة وهن يزددن عددا في كل خطوة . فدخلنها رغم حراسها وهن يصحن في طلب الخبز والسلاح . ثم كسرن الأبواب وتسلحن بما أصابت أيديهن في المخازن وخرجن قاصدات فرساى وقد حاول لافاييت أن يحول دون ذهابهن ولكن ذهبت جهوده أدراج الرياح وانطلق النسوة في طريقهن وكان ذلك حوالى الساعة السابعة مساء .

فلما بلغن قصر فرساى كانت السماء مكفهرة تنذر بالمطر الغزير وكان الظلام قد خيم على الضاحية واضطرب رجال الحرس لمقدمهن وأسرعوا الى سلاحهم ولكنهم وقفوا في أماكنهم استعدادا للدفاع ولم تكن تبغي النسوة على كل حال أكثر من أن يعرضن على الملك شكاياتهن . غير أنه لم يكن من السهل أن يجتمع الغريمان في ساحة واحدة ثم يتفرقا من غير احتكاك أو قتال . وقد وقع احتكاك بالفعل واشتبك الفريقان . ولكن ماقاسته المتظاهرات من عناء الطريق ورداءة الجو وهطول المطر جنح بهن الى السلم . وأخيرا أقبل

لافاييت بجنوده فعاد الهدوء وخيم السلام وانصرفت جموع النساء خارج القصر . وذهب أفراد الأسرة المالكة الى مضاجعهم حوالى الساعة الثانية صباحا . وظل لافاييت يطوف بالقصر وبمن نام حوله من المتظاهرات حتى كانت الساعة الخامسة صباحا ثم انصرف بدوره ليأخذ قسطه من الراحة والنوم .

ولكن هب فى صباح اليوم التالى بعض المتظاهرين من نومهم حوالى الساعة السادسة صباحا فلمحوا بابا مفتوحا من أبواب القصر فانسلوا منه الى الداخل وأبصروا أحد رجال الحرس فى نافذة من النوافذ فأخذوا يتفكهون بسببه . فدفعته حماقته الى أن يطلق عليهم النار فجرح واحد منهم فهجموا عليه وعلى من معه و بدأت المعركة التى لم يكن بد من وقوعها وقد وقف العدوان وجها لوجه . وأوغل المتظاهرون فى أجنحة القصر حتى بلغوا غرفة الملكة فلم يجدوها بها فصبوا غضبهم على فراشها وأثخنوه طعنا وتمزيقا وكادوا يصلون الى الملكة نفسها لولا أنها أنذرت قبل ذلك بقليل ففرت الى غرفة الملك وليس عليها من الثياب ما يكاد يسترها .

و بلغت هذه الأنباء لافاييت فأسرع على ظهر جواده الى القصر ففرق المتظاهرين . وأنقذ رجال القصر من أيديهم . ولكن وقف الناس تحت شرفة الملك يصيحون به وينادونه



لافاييت

*

(Le Roi à Paris ! Le Roi à Paris !) نريد الملك بباريس !
فأشرف عليهم وهز لهم رأسه بالموافقة فهتفوا له . وأصرت الملكة
على أن تصحبه فرأى لافاييت ما سيتهدد الرحلة من الخطر اذا لم
ينشأ جو من التفاهم الحسن بين الشعب والملكة كذلك فدخل عليها
وطلب أن تخرج معه الى الشرفة ففعلت . فلوح لافاييت بيده الى
المتظاهرين ثم أمسك يد الملكة ورفعها الى شفتيه بالاحترام فهتف
لها الشعب . ثم تقدم لافاييت أخيرا إلى أحد رجال الحرس ونزع
الشارة المثلثة التى كانت فى قبعته هو ووضعها على رأس زميله
ثم عانقه أمام الجماهير فهتفوا بصوت واحد : «ليحيي الحرس» !

وهكذا انتهت بفضل لافاييت حوادث هذين اليومين التاريخيين
على أحسن وجه ممكن من التفاهم والوئام (١) .

وأخذ الناس ينسلون بعد ذلك الى باريس وهم ينشدون
أناشيد الظفر والنجاح ويبشرون كل من يلقاهم بأنه لا خوف على
باريس بعد اليوم من الغلاء لأنهم (أتوا بالخباز والخبازة وابن الخباز
الصغير) يعنون بذلك الملك والملكة وولى العهد ! .

وبذلك تحقق نصف برنامج دوق أورليان إذ لم يبق بعد وجود
الملك وسط باريس إلا إرهابه وحمله على الفرار .

(١) French Revolution. (Mignet.)

الفصل الرابع

فـــــرار المـــــلك

عاد الملك فعـلا الى باريس فى السادس من شهر أكتوبر سـنة ١٧٨٩ وتبعته الجمعيـة الوطنية وأصبحت تعقد اجتماعاتها فى العاصمة وسـط الشعب الباريسى الذى كان يعكر عليها صـفو اجتماعاتها وهى بعيـدة عنه فى ڤرساى . ولكن اشـتهار أمر دوق أورليان وافتضاح دسائسـه كانا سببا فى أنه أرغم على ترك البـلاد فغادرها بأمر الملك الى انجلترا حيث أقام حتى سـنة ١٧٩١ وقر ثائر الشعب نوعا ما من بعده على أن هـذا الهدوء لم يتعدّ الظاهر إذ انصرفت جهود الشـعب فى هـذه الفـترة الى تأليف الأندية والأحزاب وكان فى مقدّمة هذه الهيئات الجديدة حزب (اليعقوبيين) وهم جماعة المتطرفين الذين كانوا يعادون الملك ويريدون القضـاء على نفوذه وكانوا يعقدون اجتماعاتهم فى دار قديمـة اتخذوها ناديا لهم بعـد أن كانت فى الأصل لطائفة دينية تعرف باسم (اليعاقبـة) (Jacobins) فانتحـلوا لأنفسهم هـذا الاسم وورثوه عن أصحابه الأولين . وكان هذا الحزب كلما ازداد توسعه وكثر أفراده وانتشرت

فروعه تطرّفت مبـادئه وتهوّرت ميوله . وكان ذلك سببا فى أن ينفصل عنه بعض أعضائه الأول الذين اشتركوا فى تأسيسه أمثال لافاييت وسيايس ممن لم يروا مجاراته فى هذا التطوّر الأحمق العنيف وقاموا بتأسيس ناد آخر خاص بهـم . كذلك تألف حزب جديد للأشراف ورجال الدين جريا على ما قامت به الهيئات الأخرى ولكنهم ظلوا يغيرون اسمه ويبدّلونه حتى صدر أمر البلدية أخيرا باغلاقه لأنه أصبح مقلقا للأمن مخلا بالنظام .

وبينما كانت هيئات الأمة جادة فى تنظيم شـئونها على هـذا المنوال كانت الجمعية جادة فى وضع الدستور ومناقشة نصوصه .

أما الملك فانه منذ عودته الى باريس كان على بصيرة بحقيقة موقفه ولم يكن يخفى عليه أنه سجين مقيد فى تلك العاصمة الواسعة . وانه كان رهينة فى أيدى الثوار يضمنون بها إجابة مطالبهم . فأقلقه هـذا المصير وأخذ يفكر فى الاسـتعانة بزعيم من زعماء الاصـلاح المعتدلين يكون له من النفوذ عنـد الشعب ما يمكنه من قيـادته واقناعه ويكون له من المنزلة عند البلاط ما يجعله محل ثقته وموضع اعتماده . ورأى الملك أن هـذه الصفات كلها متوفرة فى شخصـية ميرابو الذى يكاد يعبده الشعب ويكاد البلاط يعتبره من رجاله . وكان ميرابو كما علمت ابنا لأحد الأشراف ولكنه فى بدء شـبابه



مــــيرابو

*

وقع بينـه و بين والده شـقاق بسبب سلوكه الشخصى وانهما كه فى الدين وافراطه فى الملذات فهجر أهله و بلاده وسافر الى هولندا ثم غادرها الى انجلترا ثم عاد الى فرنسا وشاهد الثورة ينفجر بحرها . فانضم الى جانب الشعب والتف حوله العامة وامتاز بمقدرته الهائلة فى الخطابة فكان بين زعماء الثورة أسحرهم بيانا وأقواهم لسانا . وكان الميدان ميدان فصاحة وحسن بيان فلم يلبث أن ملك قلوب الناس . وتفوّق على غيره من الزعماء وأصـبح رجل الساعة وزعيم الجمـاعة وما زال كل يوم يمرّ من أيام الثورة يضيف موقفا مجيدا جديدا الى مواقفه المجيدة السابقة حتى جمح جواد الثورة . وطم سيلها وامتدّت يدها الطائشة الى الملك فأرغم على مغادرة ڤرساى الى بار يس فرأى ميرابو مع زملائه المعتدلين أن الثـورة يجب أن تقف عنـد هذا الحدّ وأن كل خطوة جديدة يخطوها الثوار ستقترب بهم من هوة الفوضى التى لا صـلاح لأحد فيها . وأن الملكية يجب أن تبقى رمزاً للسلطة ما دامت الأمة وصلت الى مطالبها الدسـتورية التى كانت تنشدها ، وبذلك اتفقت غايته مع غاية الملك ووقعت بين الرجلين مكاتبات سرية انتهت بتراضى الفريقين فى مايو سنة ١٧٩٠ على أن يدفع الملك لميرابو (٦٠٠٠) فرنكا كل شهر و يتولى تسـديد جميـع ديونه البالغ قدرها (٢٠٠) ألف فرنك فى نظير أن يتعهـد

ميرابو بأن يدافع عن الملك ويطلعه على مجرى الحوادث ويمده بارشاده ونصحه .

ولقد وفق ذلك البطل الى تقديم أغلى النصائح الى الملك فحذره من الأخذ بفكرة الفرار قائلا أن ذلك يكون منه بمثابة إعلان للحرب على الأمة ونزول عن العرش . ونصحه بأن لا يعتمد على الأشراف مطلقا فى تحسين موقفه وتأييد مركزه وأبدى له عدم ارتياحه لاقامته فى باريس وسط الفوضى والاضطراب وأوصاه بأن يخرج من قصره جهارا نهارا وأن يسير فى وسط جنده الى مدينة كمدينة (روان) وأن يصدر للأمة قبل ذلك بلاغا يقول لها فيه أنه يلق بنفسه بين أحضانها وأنه قد أسىء اليه من فرساى وأنه اضطهد ووقع تحت الرقابة فى باريس . وأنه يخشى أن يكون هذا الموقف سببا فى خروج بعض الناس على طاعة الجمعية وأنه كان أول ملك فى فرنسا أعاد الى الشعب كافة حقوقه وأنه خالف فى ذلك رأى وزرائه وأنصاره وأنه وافق على قرارات الجمعية الوطنية . وأنه على استعداد أن يضحى بكل شىء فى سبيل تحسين مركز البلاد المالى ويرضى أن يعيش عيشة أى فرد عادى من أفراد الأمة بما تخصصه له الحكومة من المال القليل وأنه سوف يدعو الجمعية الوطنية اليه خارج باريس حتى اذا فرغت من

عملها أصــدر أمرا بدعوة مؤتمــر جديد لاعادة النــظر فى قراراتها والموافقة عليها . وأنه يرجو أن تحكم الأمة على إخلاصه بمــا رأت من ماضــيه وأنه يريد أن يملك رعيته لا بسلاحه ولكن باحسانه وأنه يعتمد فيما يختص بسلامته وشرفه على ولاء الشعب الفرنسى له[1] .

وقد قدر ميرابو أن الملك إذا أخذ بهذه الآراء فلا بد أن تنفرج الأزمة على أحسن صورة . غير أن استسلام الملك لزوجته وأعوانها وأخذه بارشادهم دون نصح ميرابو أفسدا على الرجل رأيه الحكيم وكانت الملكة قد دبرت مشروعا آخر للخلاص وهو يتلخص فى مغادرة البلاد ليلا والسير الى الحدود الشرقية حيث يكون المسيو بوييه (Bouillé) حاكم متز على استعداد بجنوده للقائهم . ومن ثم يعبرون الحــدود وينضمون الى المهاجرين من أشرافهــم وأمرائهــم ويلتمسون المعونة من حكومات الدول الأوروبيــة الأخرى لغزو فرنسا واعادة الحكم الملكى فيها من جديد .

وفى هذه الساعة الرهيبة التى كانت فرنسا أحوج ما تكون فيها الى ميرابو شاء القضاء أن يموت ذلك الرجل العظــيم وأن ينطفئ بموته آخر بصيص من نور الآمل فى التوفيق بين الملك وشــعبه . وانهارت بموته عزيمة الملك ولم يبــق أمامه إلا أن يعود الى رأى

(١) Readings in European History. (Robinson.)

زوجتــه ويقبـل الدخول فى تلك المغامرة الخطـرة التى كانت تدفعه اليها .

وفى مساء ٢٠ يونيه سنة ١٧٩١ خرج أفراد الأسرة المـالكة واحدا واحدا متخفين بحيث لم ينتبــه اليهم أحد من الحـرس . والتقوا فى طريق قريب من القصر كانت فيــه عربة بانتظارهم . وولوا وجوههم شــطر متز . وكان دوق بروفانس شـقيق الملك قد خرج فى نفس ذلك اليوم وركب طريقا آخر فوصـل سالمـا الى بلجيكا . أما لويس التعس فانه كان أقل منه توفيقا . بل أنه كان أشدّ الناس خيبة ونحسا فانه بعد أن وصل سالمـا إلى (ڤارين) القريبــة من فردان حيث كان مقرّرا أن يستبدل جياد مركبتــه وقف ينتظر فى ناحية من البلدة والخيل تنتظره فى الناحية الأخرى وكأنه اطمأن لمرور يوم على خروجه من باريس ولأنه أصبح بعيدا بضعة فراسخ عنها فتهاون فى أمر تحجبه وقضى سوء الطالع أن يلمحه انسان من أهل تلك الناحيــة فعرفه ونم عليــه وما لبث أن هرع الناس اليه وأحاطوا به ثم أرغموه على العودة الى باريس ! .

واليــك ما كتبه أحد الصحفيين المشهورين فى ذلك الوقت فى صحيفة يصف ما فعــله أهل باريس عند سماعهم لهذا الحادث الخطــير :

« كانت الساعة العاشرة قبل أن تطلق محافظة باريس المدافع اخطارا للناس بوقوع هذا الحادث الهام . ولكن الناس قبل ذلك بنحو ثلاث ساعات لم يكن لهم من شاغل غير هــذا الخبر . فكان حديثه يسرى فى المدينــة سريان الكهرباء . وتجــرى به الألسن فى كل مكان ... " راح الملك ! فر الملك ! " .

وساد القــلق على النفوس فكانت تهرع الجمــاهير الى قصر التويلرى لتتحقق بنفسها من صحــة الخبر ثم لا تلبث أن ترتد الى قاعة الجمعية الوطنية حيث الأعضاء مجتمعون وهم يصرحون للشعب بأن الملك عندهم فى القاعة . وأنه حر يذهب حيث يشاء ! .

ثم تطلع الناس الى زيارة مساكن الأسرة المالكة بعداخلائها . فذهبنا اليها وطفنا بها جميعا وكنا نسأل الحرس : « كيف أمكنــه الهرب ؟ والى أين ذهب ؟ وهل من الممكن أن تفلت هذه الجثــة الملكية الضخمة تحت عيونكم ولا ترونها؟ انكم لا بد تعلمون بهربه ورؤساؤكم لا بد متواطئون معه عليه » فكان الحراس لا يجيبون على ذلك بكلمة .

وكان حريا بالشعب أن يهتاج ويأتى من أعمال العنف مايتفق مع هياجه ولكن غلبت على الناس روح الفكاهة والاستهزاء فاكتفوا بأن حملوا صورة الملك وعلقوها على باب القصر . وحملت إحدى

بائعات الفاكهة فراش الملكة ووضعت فوقه ما معها من الكريز وهى تقول "لقد جاء الآن دور الأمة فى النعيم" . ووضعت قبعة الملكة على رأس فتاة صغيرة فخلعتها بإباء وألقتها على الأرض وداستها بقدمها بكل ازدراء واحتقار . وسار النساء فى المدينة يجادلن الرجال . ويصرحن بأنهن سيقمن على حراسة أبواب المدينة قائلات : "أن النســوة هن اللواتى جئن بالملك إلى باريس والرجال هم الذين ضيعوه ! " .

ولكن مهــلا أيتها الســيدات وعلى رسلكن . فان هديتكن لباريس لم تكن مما يفخر به الانسان ! اهـ . (١)

* * *

وكانت الروح السائدة هى روح الكراهية للملوك عامة والاحتقار للويس السادس عشر خاصة . فحطمت تماثيله فى الميادين وكسرت عند الباعة وكانت تمحى كلمات "ملك" . "وملكة" . "وملكى" . "وبوربون" . "ولويس" . "وبلاط" من كل ما نقشت عليه سواء فى ذلك الصور والألواح والحوانيت والمخازن .

---

(١) Readings in European History. (Robinson.)

الفصل الخامس

بعد الفرار — قرار پلنتز

اختلفت الآراء فى مصير الملك بعد عودته . فأما الجمعية فقررت ايقافه مؤقتا حتى يتم وضع الدستور فيقدم له ليقسم على احترامه وطاعته ثم تبدأ فرنسا إذ ذاك عهدا جديدا ولكن هذا القرار لم يعجب الأعضاء الملكيين فى الجمعية فاحتجوا عليه وانسحب منهم نحو مائتين فلم يحضروا الاجتماعات . وأما المتطرفون من اليعاقبة فقد أعلنوا أن الملك تخلى عن العرش بمحاولته ترك البلاد . وأنه لا بد من اقامة حكومة جمهورية يتولى الشعب أمرها . أو على الأقل لا بد من اقامة ملك آخر .

وأشفق أنصار الدستور من المعتدلين وهم أغلبية المجلس أن ينجح الجمهوريون فى دعوتهم فتضيع جهودهم التى بذلوها عامين متوالين فى وضع الدستور فأجمعوا أمرهم على مقاومة هذه الدعوة وأنصارها أمثال روبسپير وپتيون (Petion) وبريسو (Brissot) ومارا . ولكن روبسپير أفلح فى التأثير على الشعب وتهييجه على رجال الجمعية . فقامت مظاهرة عظيمة تنادى بسقوط الملك

والملكية (١٧ يوليه سنة ١٧٩٠) فى حى "الشان دى مارس" فاعترضها الحرس الوطنى وأصدر لافاييت أمره باطلاق النار على المتظاهرين فخر منهم نحو مائتين ما بين قتيل وجريح وأسفر الميدان عن تفرق الجمهوريين وانهزامهم . ولكن هـذا النصر الذى أحرزه لافاييت كان قاضيا على سمعته فلم تقم له من بعده قائمة على الرغم من محاولاته الكثيرة لتبرير عمله .

ولعلك نتبين من القطعة التالية التى كتبها مارا فى صحيفته — "صديق الشعب" — روح العـداء التى كان يحملها الجمهوريون للمعتدلين والملكيين من أعضاء الجمعية :

« واها لسذاجتكم أيها الباريسيون ! أيمكن أن يخدعكم أولئك المنافقون الى هـذا الحد ؟ ألا ترونهم يقتلون المخلصين منكم تمهيدا للقضاء على أنديتكم وفض أحزابكم ؟ ألا ترونهم يرمون بالتهييج كل من يرتفع له صوت بالاحتجاج على فعالهم ؟ لقد أصبح الجهاد السلمى فى نظرهم ثورة وأصبحت أصوات الاستفظاع والتظلم عندهم إجراما وتهييجا !

ألا أيها المشرعون الأسافل والأدنياء الأراذل . وأيها الأبالسة الذين يأكلون فى بطونهم الذهب والدم . لقـد ظننتم أنكم تلقون الرعب فى قلوب الكتاب من الوطنيين وتشلون أقلامهـم بصرامة

عقوباتكم . خاب فألكم ! لقد علمتم كيف ضاعت سدى كل محاولاتكم فى النيل من "صديق الشعب" . ولو أنه وفق يوما ما إلى جمع ألفين يسيرون خلفه لتأييده إذن لتقدمهم وسار بهم إلى "موتييه" الجهنمى [يعنى لافاييت] فمزق صدره فى وسط فرقة العبيد التى يرأسها . وإذن لأحرق الملك وبطانته فى قصره ولوضع من تحتكم خوازيق تزهق عليها أرواحكم ثم لألقاكم فى نار خرائبكم المستعرة التى كنتم تسكنون ! » اهـ [1] .

ذلك ما كتب مارا . وانى لأعتذر للقارئ على قصور عبارتى عن أداء قوة معانية البذيئة وعنف حملته الفاحشة . فلقد حاولت نقلها على حقيقتها فلم أوفق إلى غير هذه الصورة العربية الفاترة .

ولقد كان فرار الأسرة المالكة والقبض عليهم فى ڤارين وما لاقوه بعد ذلك فى باريس من الأذلال والاضطهاد سببا فى أن يفكر أخو الملكة الامبراطور ليوپولد الثانى فى العمل على تخليص الملك وأسرته ومعارضة الثورة والقائمين بها .

وكانت "حقوق الانسان" ضد المبادئ التى قامت عليها أغلبية حكومات أوروبا الأخرى فكان من صالحها أن تقاوم هذا التيار العنيف . وكان كثير من ملوك أوروبا ينتمون إلى أسرة بوربون

(١) Readings in European History. (Robinson.)

التى منها لويس السادس عشر نفسه فكانوا يرجون الخلاص له هو وأسرته وكان الثـوار قد جاروا على حقوق أمراء بعض الولايات التى تتاخم حدودهم فكانوا لهـم بالمرصاد . وانتشر المهاجرون من أشراف فرنسا منبثين فى أنحاء أوروبا فأثاروا خواطر النـاس على رجال الثـورة فى كل مكان ... كل هـذه العوامل كانت باعثا على إصدار (قرار پنلتز) الذى أوهم الفرنسيين أنه لا بد من وجود صلات سرية بين الملك فى باريس وملوك أوربا الآخرين فى الخارج . وأن هنـاك مؤامرة دولية على محاربة الثورة فشـدّدوا النكير على الملك وأسرته وزادوهم إرهاقا — وهذه هى صورة قرار پلنتز[١] :

”إن صاحبى الجلالة الامبراطور (امبراطور النمسا) وملك بروسيا يصرحان بأن موقف صاحب الجلالة ملك فرنسا الحالى يسـتدعى اهتمام ملوك أوروبا جميعا وهما لذلك يناشدان بقية الدول إلى معاونتها فى تمكين ملك فرنسا من تأسيس حكومة ملكية قوية تتفق مع حقوق الملوك وتحقق سعادة الشعب .

وقد صدرت الأوامر الى جنـود صاحبى الدعوة بأن يكونوا على أهبة الاستعداد للعمل“ .

بلنتز فى ١٧ أغسطس سنة ١٧٩١ فردريك وليم ليوپولد

(١) Readings in European History. (Robinson.)

الفصل السادس

أعمال الجمعية الوطنية

كانت الجمعية الوطنية خلال هذه العواصف لا تنفك تجتمع وتتناقش فى مشروع الدستور الذى عنيت بوضعه . والذى كانت تتآمر عليه الأيام بحوادثها فالملك بفراره من جهة . والجمهور يون بمظاهراتهم من جهة أخرى . وملوك أوروبا بمؤامراتهم من جهة ثالثة . ولكن ثبات الجمعية كتب لها الفوز على كل هذه العراقيل . وكان أخوف ما تخشاه الجمعية أن يتولى مناصب الحكم وتنفيذ الدستور من يستبد بالبلاد بعدها فأخذت تحتاط لذلك بعدة وسائل من بينها ان جعلت مدة العضوية فى الهيئة التشريعية سنتين يتجدّد بعدهما المجلس حتى اذا تغيرت روح البلاد وتطورت أفكارها لم يتخلف عنها المجلس بل بقى مسايرا لها متمشيا مع روحها . ومنها أيضا أنها حرمت أن يتجدّد انتخاب أحد الأعضاء مرتين متواليتين حتى لا يكون لأحد متسع من الوقت يكفى لتدبير ما يخشى منه على الدستور وحرمت على أعضاء الجمعية التشريعية أن يدخلوا الوزارة

حتى لا تجتمع فى يدهم سلطة التشريع وسلطة التنفيذ عملا بمبدأ فصل السلطات .

ولكى تضرب للبلاد مثلا يحتذى فى التضحية والتفانى فى خدمة الأمة والبعد كل البعد عن الاستئثار بالسلطة قررت أنه لا يجوز أن ينتخب فرد من أفرادها ليكون عضوا فى الجمعية التشريعية القادمة .

وليس يخفى عليك ما فى هذه القرارات جميعا من الغلو والاسراف اللذين عكسا على الجمعية الوطنية قصدها وحرم البلاد من جهود رجالها العاملين وكفاءة نوابغها الفطاحل .

وفى أواخر سبتمبر سنة ١٧٩١ انتهت الجمعية من وضع الدستور الذى أخذت على عاتقها وضعه والذى أقسم أعضاؤها فى ملعب التنس أنهم سيوالون اجتماعاتهم حتى يفرغوا منه . ولكن علينا أن لا ننسى ما قامت به الجمعية خلال هذه الفترة من الأعمال الجليلة الأخرى التى لا يزال يذكرها لها التاريخ بالاعجاب .

فمن ذلك قرار حقوق الانسان الذى أوردت لك نصه فيما سلف . ثم تلك القرارات التى وضعتها الجمعية فى ليلة ٥ أغسطس سنة ١٧٨٩ وفيها ألغيت حقوق الأشراف الوراثية وامتيازاتهم وألقابهم . ثم تقرير حرية الصناعة والتجارة بعد ان كانت محتكرة فى يد بعض الأفراد

والطوائف ثم اهتمامها بشأن التعليم ووضعها تقريرا عنه ليكون أساس سياسة الحكومة التعليمية فى المستقبل . وكان هذا التقرير يقضى بجعل التعليم العام مجانيا إجباريا وحقا لكل الفرنسيين على اختلاف أعمارهم مع العناية بالتعليم النسوى .

وكان من أهم ما تم على يد الجمعية أنها توجهت الى تنظيم إدارة البلاد الداخلية فعمدت الى الأقسام الادارية القديمة فألغتها ومحت أسماءها وأعادت تقسيمها الى ٨٣ مقاطعة جديدة أطلقت على كل واحدة منها اسم ظاهرة من ظواهرها الطبيعية المشهورة من نهر أو جبل أو غير ذلك مبالغة منها فى القضاء على كل قديم وفرارا من تلك الأسماء العتيقة التى كانت رمز التفريق وعنوان الانقسام . فبعد نورمانديا و بريتانيا وغاسقونيا . جاءت مقاطعة المارن والفوج والساءون وهكذا .

ولم يكن أقل من ذلك أهمية أقدام الجمعية على اغتصاب أملاك الكنيسة و بيعها . فنزعت تلك الأملاك . وتقرر أن يتولى الشعب تعيين القسس بنفسه و بذلك انقطعت الصلة التى كانت تربط البابا بالكنيسة الفرنسية فغضبت قداسته لهذا العمل الجرىء وأعلن سخطه على تلك القرارات وظل غاضبا حتى تمت اتفاقية الكنكوردا معه سنة ١٨٠١ على يد نابليون الذى جعل المسيحية دين الدولة

الرسمى . ولكى تضمن الجمعية خضوع الكنيسة الفرنسية لهذا النظام المدنى قررت وجوب أن يقسم رجال الدين يمين الاخلاص والطاعة للدستور و إلا حرموا وظائفهم ووقفوا عن العمل .

وأخيرا فى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٧٩١ قدم الدستور الى الملك للموافقة عليه فأصدره فى ١٤ منه وانحلت الجمعية الوطنية فى ٣٠ سبتمبر وانعقدت الجمعية التشريعية فى اليوم التالى أى فى أول أكتوبر سنة ١٧٩١

---

*

*

الباب السادس

من أول أكتوبر سنة ١٧٩١ — ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢

الحكومة الدستورية

الفصل الأول

أحزاب الجمعية التشريعية

كان النزاع فى عهد الجمعية الوطنية نزاعا دستوريا يدور حول اختصاص الملك وحقوق الجمعية ونحو ذلك . ولكن النزاع الذى وقع فى عهد الجمعية التشريعية كان نزاعا حزبيا يدور حول محاولة كل حزب أن يستأثر بالسلطة ويستبد بالأحزاب الأخرى .

وكان فى هذه الهيئة الجديدة ثلاثة أحزاب : حزب اليمين ، وحزب الشمال، وحزب الوسط .

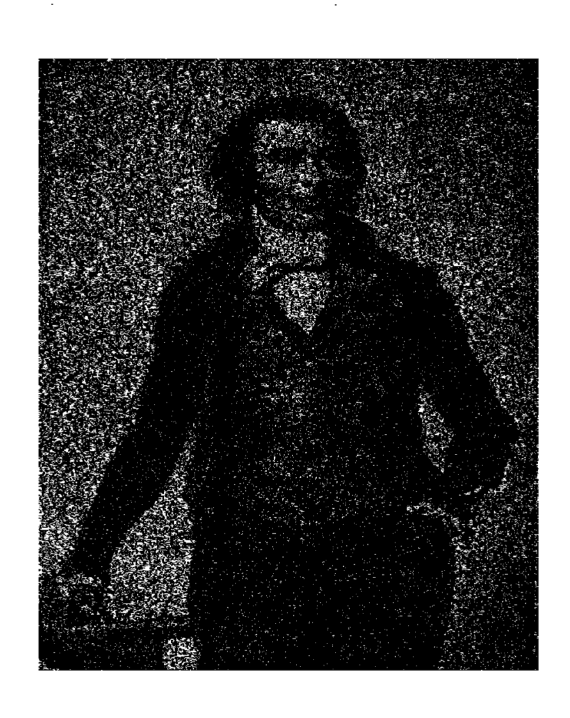
(١) فأما حزب اليمين فهم الدستوريون الذين كانوا يريدون المحافظة على الدستور وكان بين زعمائهم دوماس ولافاييت

وبارناف وبابى . وكان من حظ فرنسا لو انضم الملك الى هؤلاء ولكنه ظل متأثرا بمن حوله وبقى يحلم بالعودة الى سلطته المطلقة متناسيا يمين الولاء التى أقسمها للدستور — وتعرف هذه الجماعة الدستورية بجماعة الفيان (Feuillants)

(٢) وأما حزب الشمال فكان حزب الثورة الذى ما زال يرجو قلب الحكومة والتخلص من نفوذ الملك وإقامة حكومة جمهورية يكون عمادها الشعب نفسه . وكان هذا الحزب ينقسم الى فريقين :

(أ) اليعاقبة المتطرفين — وكانوا على قلة عددهم فى الجمعية وتجردهم من ذوى الكفاءات الممتازة . على شىء لا يستهان به من السطوة وذلك لأنهم كانوا يستندون على ناديهم الرئيسى فى باريس الذى يرأسه روبسبير والذى كان ينتسب اليه الغوغاء والعامة فى باريس نفسها وفى جميع أنحاء فرنسا .

(ب) وفريق الجيرنديين المعتدلين — (نسبة الى مقاطعة الجيرند التى ينتمى اليها زعماؤهم) وكانوا ذوى العدد الأوفى فى البرلمان والكفاءات الممتازة فى الخطابة وكان من زعمائهم المفكرين بريسو (Brissot) ومن أشهر خطبائهم ڤرينو (Vergniaud) وإسنار (Isnard) ولكن روحهم المحركة كانت مدام رولان — ولقد كانت الغلبة لهم فى بادئ الأمر



فرنيـــو

على بقية الأحزاب ولكنهم عجزوا عن ادارة البلاد والاستقلال بحكمها . وما لبثوا أن تضاءلوا أمام نفوذ اليعاقبة المتزايد واتساع ناديهم وانتشار فروعه فى كل مكان .

(٣) وأما حزب الوسط فكان يتألف من جماعة زعمت أنها مستقلة حرصا منها على أن لا تنتمى لحزب معين فتنكب معه حين ينكب فى ذلك الزمن القُلّب الذى لم يكن يستقر فيه شىء على حال .

*

الفصل الثانى

إعلان الحـــــرب

قضت الجمعية التشريعة شهورها الأولى فى الاشتغال بوسائل الدفاع التى يجب أن تتخذها ضد أعداء الثورة الثلاثة وهم :

(١) أشرافها المهاجرون الذين كانوا يعملون على غزوها من الخـارج .

(٢) وملوك أوروبا الذين كانوا يهددونها بمثـل تصريح پلنـــتز .

(٣) والأكليروس الذين ما زالوا حانقين على الثورة منـذ نزعت من أيديهم أملاك الكنيسة فكانوا منتشرين فى داخل البلاد يحاولون نشر الفتنة فيها وتشويه سمعة القائمين بالثورة فى باريس .

وكان الملك فضلا عن كل هؤلاء موضع الريبـة والشك عند رجال الجمعية بصفة خاصة وعند أهل فرنسا جميعا بصفة عامة وقد تأيدت هذه الريب والشكوك فيما بعد بما ضبط من الرسائل السرية التى كانت تبعث بها الملكة هى وزوجها الى أوروبا يستنجدانهم

فيها على الثورة ويحضانهم بها على غزو فرنسا وتخليصها من أيدى الثائرين . وإليك نص واحد من هذه الخطابات على سبيل المثال :

باريس فى ٣ ديسمبر سنة ١٧٩١

أخى (ملك بروسيا)

علمت من الموسيو موستيه بما أبدته جلالتكم من الاهتمام لا بشخصى وحده ولكن بصالح فرنسا كذلك . ولقد كان هذا الاهتمام موضع تقديرى العظيم وأنى لأرجو أن أنتفع به فى هذا الوقت الذى يعمل فيه بعض الزعماء على تحطيم بقايا النظام الملكى فى فرنسا على الرغم من أنى قبلت الدستور الجديد . ولقد خاطبت الأمبراطور وملكة الروسيا وملكى اسبانيا والسويد واقترحت عليهم عقد مؤتمر من ملوك أوروبا يستند الى قوة مسلحة لايقاف الأحزاب المشاغبة فى فرنسا عند حدها . ولاعادة النظام فيها . وانى واثق من موافقة جلالتكم على هذا الرأى وانكم ستحتفظون بتمام سرية هذا الاقتراح الذى أعرضه عليكم فان الظروف التى تحيط بى تستلزم منى غاية الحذر والتكتم .

أخوك الطيب
لويس (١)

---

(١) Readings. (Robinson.)

وكان أوّل ما واجه الجمعيــة من الواجبات أن تعمل على دفع تلك الأخطار عن البلاد كما أسلفت لك فى أوّل الفصل . فانبرى (إسنار) خطيب الجيرنديين يحض الجمعيــة على وجوب اتخاذ الاجراءات المشدّدة للتغلب على مايعترض سبيل الثورة من الصعاب . واقترح أن تكتب الجمعية الى كونت پروڤانس المقيم بألمــانيا تطلب عودته الى فرنسا و إلا سقط حقــه فى المطالبة بعرشها . فاتفقت كلمة الجمعية على أن ترسل له الخطاب الآتى :

٣١ أكتوبر سنة ١٧٩١

" إلى لويس ستانيسلاس زافييه — أمير فرنسا .

الجمعية الأهلية تدعوكم بحكم المــادة ٢ من القسم ٣ من الفصل الثانى من الباب الثالث من الدستور الفرنسى أن تعودوا إلى المملكة فى ظرف شهرين من تاريخه . و إلا فانكم بعد انقضاء المدّة المذكورة تخسرون كل ما يمكن أن ينشأ لكم من الحقوق فى وراثة العرش" .

* * *

فنشر الكونت صورة هــذا الكتاب فى ٦ ديسمبر فى مدينــة كوبلنتز وهى مقرّ المهاجرين من أشراف فرنسا وشفعه برده الآتى :

" إلى أعضاء الجمعية الفرنسية التى تسمى نفسها الأهلية :

العقل السليم يدعوكم بحكم المــادة ١ من القسم ١ من الفصل الأوّل من الباب الأوّل من قانون الذوق السليم الغير المســطور أن

تثوبوا إلى رشدكم فى ظرف شهرين من تاريخه وإلا فانكم بعد انقضاء المـدّة المذكورة تخسرون حقكم فى أن تكونوا من ضمن الكائنات المعقولة وتعتبرون من المجانين الذين توفرت فيهـم اللياقة لمستشفى المجاذيب[١] " !

وعادت الجمعية بتأثير الجيرنديين فقرّرت (فى ٩ نوفمبر) مصادرة أملاك المهاجرين والحكم عليهم بالأعدام إلا اذا عادوا الى وطنهـم مخلصين قبل آخر السنة . ثم قرّرت (فى ٢٩ نوفمبر أيضا) أن يتقدّم رجال الدين لحلف يمين الطاعة للنظام الجديد فى ظرف ثمانية أيام ويكون عقاب من يمتنع عن أداء هـذه اليمين أن يخسر وظيفته . فاذا وقع أدنى هياج فى بلدة واحد منهم فيكون جزاؤه النفى فاذا ثبت اشتراكه فى التهييج فجزاؤه السجن عامين .

ورأى الملك أن يقف فى وجه هذين القرارين بمـا له من حق الڤيتو فاعترض الجيرنديون عليه بأن هذين القرارين ليسا من القوانين التى يسـمح فيها باستعمال الڤيتو ولكنهـا من القرارات الاستثنائية التى يلتجأ اليها فى ساعة الخطر لسلامة البلاد .

ثم استطردوا من ذلك الى احراج الملك وكشف حقيقته بأن طلبوا اليه أن يعلن الحرب على النمسا . واجتمعت كلمة الأحزاب

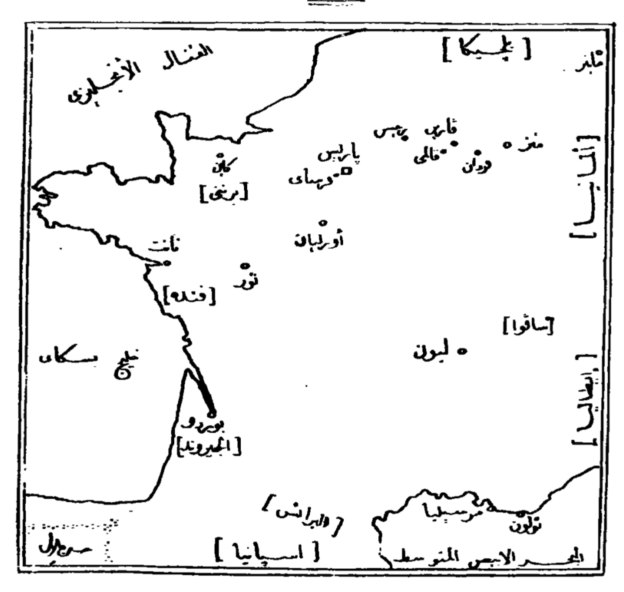
(١) Readings (Robinson)

كلها إلا اليعاقبة على تأييد هذا الطلب . فكان أنصار الملكية يرجون أن يكون النصر لفرنسا . ويكون من وراء ذلك أن يتقوى مركز الملك وتخف حدة المتطرفين بينما كان الجيرنديون يرغبون فى الحرب كوسيلة تخولهم الاستئثار بالسلطة والظهور بمظهر المسير لسياسة البلاد . أما اليعاقبة فكانوا يقاومون هذا الرأى تحزبا منهم على الجيرنديين من جهة ولأنهم من جهة أخرى كانوا يخشون الدخول فى حرب يكونون أول ضحاياها أن انتهت بالهزيمة ويكون الملك أول من يستفيد منها إن انتهت بالنصر .

ولكن نجح الجرنديون فى حمل الملك على أن يكتب الى الأمبراطور (١٤ ديسمبر سنة ١٧٩١) مذكرة يطلب إليه فيها أن يأمر بتسريح فرق الأشراف المسلحة التى وقفت على الحدود وأنذر باعلان الحرب اذا رفض هذا الطلب . وبعد مفاوضات ومكاتبات كثيرة أرسلت النمسا تقول أن رجال الثورة استولوا على افينيون وهى من ولايات البابا وقرروا إلغاء بعض الحقوق الاقطاعية فى الالزاس وهى تابعة لبعض أمراء ألمانيا وان هذه الأعمال من شأنها أن تهدد السلام فى أوروبا . فكان هذا الرد مبررا كافيا لاعلان الحرب.

التى كان يريدها الفريقان وهما يتعللان بهذه العلل السخيفة ويستتران تحت هــذه الحجب المهتوكة . وفى العشرين من شهر أبريل دخل لويس السادس عشر قاعة الجمعية . وقرأ بصــوت متهدج إعلان الحرب الذى أرسلته فرنسا الى "ملك هنغاريا وبوهيميا" .

فرنسا



الفصل الثالث

بدء الحرب — ومظاهرة ٢٠ يونيه

فوجئت أوروبا بهـذا الاعلان . فان الروسيا كانت مشتغلة ببولندا ومحاولة الاستيلاء عليها وكانت اسپانيا متقلبة الرأى لم تعوّل على شىء أما انجلترا فكانت على الحياد . وكانت بروسيا تود أن تشترك فى الحرب ولكن كان لا بد لهـا من الوقت الطويل لتعبئة جيوشها . فوقفت النمسا وحدها أمام فرنسا . ولكن لم يكن لفرنسا من الجيوش النظامية ما يمكنها من الاستفادة من هذا الظرف الحسن . وكان كل اعتمادها على المتطوّعين الذين لم يسبق لهم مراس بالحرب ولم تكن لهم دراية فيها . وكانت كل ميزتهـم أنهم ممتلئون حماسـة فأسرعوا فى الزحف على بلچيكا وكانت تابعـة للنمسا ولكن ما هو إلا أن أشرفت عليهـم طلائع الجيوش النمساوية بقضها وقضيضها ونظامها الباهر ومنظرها الفخم حتى ألقت الرعب فى قلوبهم وزاغت لها أبصارهم وارتد المتقدّمون منهم على أعقابهم ففرّ أمامهم المتأخرون وهم يصيحون وينادون : " خيانة ! خيانة ! " وهكذا وقع اللقاء الأوّل بين الثورة وأوروبا ! ومن حسن حظ فرنسا أن أعداءها

لم يتعقبوها فى تلك الساعة و إلا لقضوا عليها القضاء الأخير . ولكنهم هيأوا لها الفرصة حتى نظمت صفوفها من جديد ولم يبدأوا بالزحف عليها إلا فى ١٩ أغسطس سنة ١٧٩١

و بلغت باريس أنباء هذا الارتداد الشنيع واضطربت المدينة وهاجت له جموعها . وقام الناس الى سلاحهم وعمرت القلوب بالشك والريبة وساد على الأذهان جو من الاتهام والظنون . وأعلنت الجمعية أنها ستداوم انعقادها ليل نهار وقررت أن ينشأ فى باريس نفسها معسكر من ٢٠ ألف متطوع لحمايتها كما قررت نفى كثير من القسس لمجرد اتهامهم بأنهم يعملون على إقلاق خواطر الناس . فاعترض الملك مرة أخرى على هذين القرارين . وزاد على ذلك بأن أسقط الوزارة التى كانت تتألف من الجيرنديين (١١ يونيه) وأقام من بعدها وزارة أخرى من الأحزاب المؤتلفة ولكن الجرنديين أبوا أن يتخلوا عن الحكم بهذه السهولة فدبروا مظاهرة فى العشرين من شهر يونيه باسم الاحتفال بذكرى القسم التاريخى وكان الغرض منها إرهاب الملك وحمله على العودة اليهم والاستعانة بهم وسارت المظاهرة حتى بلغت دار الجمعية وهناك تعالى هتافها "يحيى الأمة" "ويحيى السانكيلوت" (لقب كان يطلق على الجرنديين) "وليسقط الڤيتو" ومن ثم سارت إلى قصر التويلرى فأمر الملك أن تفتح لها

الأبواب فاندفع المتظاهرون الى داخل القصر وأسرعوا الى غرفه وأعملوا فيها بلطهم فأمرّ بأبوابها أن تفتح كذلك وظهر لهم بشخصه فوقف أمامه المتظاهرون واستوى هو على كرسى فوق مائدة عالية ليراه الناس وليكون أدنى الى استنشاق الهواء النقى وسط هذه الجموع. ولما اكتمل حوله عقد المتظاهرين أخذوا يصيحون فى طلب الموافقة على قرارات الجمعية فأجابهم بأن الطلب لا يصح أن يقدّم فى مثل هذا الوقت ولا بمثل هذه الطريقة. وكان لما أبداه من الثبات والرزانة والشجاعة الحقة فى هذا الموقف أبلغ أثر فى السيطرة على هذه الجموع الثائرة. بل لقد نجح الملك فى أن يكون موضع إعجاب الشعب وهتافه العالى حينما تقدّم إليه أحد المتظاهرين بقلنسوته الحمراء (شعار الثورة) وهو يرفعها على سنان رمحه فتناولها منه الملك ووضعها على رأسه. ثم أنه بالغ فى ملاينة الثوار الى حدّ أن مدّ يده الى كأس من النبيذ حملها إليه عامل ثمل ليشرب نخب الأمة فتناولها منه ورفعها إلى شفتيه من غير تردد وهكذا انطفأت حدّة المتظاهرين وعادوا أدراجهم[1]. وأثبت الملك مرة أخرى أنه كان أبعد ضحايا الثورة عن التسبب فى وقوع الثورة وأنه لم تكن تزل قدمه غالبا إلا حين تتولى تسييره الملكة أو رجال البلاط !

---

(١) French Revolution (Mignet)

على أن هذا الحادث أفزع كثيرا من المعتدلين أمثال لافاييت . فأشاروا على الملك بوجوب التخلص من زعماء اليعاقبة الذين يثيرون العامة و يحرضونهم على العصيان ولكن الملكة لم تكن لتقبل شيئا من لافاييت لكرهها له منذ تولى رئاسة الحرس الوطنى وقالت إنها تفضل الموت على أن تنجو على يد لافاييت .

وهكذا أضاعت بتعصبها الأحمق العنيد آخر فرصة بقيت أمام الحزب الملكى ليضع يده فى يد طائفة من المعتدلين يستعين بهم على الثبات ثم على استعادة شيء من نفوذه الضائع .

---

*

الفصل الرابع

الملـــلك فى السجن

لعلك لم تنس بعد أن فرنسا فى حرب مع أوروبا وأن جيوشها ارتدت ذلك الارتداد المخزى الذى وصفناه لك فى الفصل السابق . ولقد كان كل أمل الملكة قائما على نجاح هذه الغزوة الأجنبية التى سيرها أخوها على فرنسا . وكانت كل الظروف تدعو الشعب الى التشكك فى اخلاص الملك وصدق ولائه . ولم يلبث هذا الاتهام المضمر أن ظهر على لسان (ڤرينو) أحد مشاهير خطباء الجيرنديين فى الجمعية فوقف فى اليوم الثالث من شهر يوليه سنة ١٧٩٢ وألقى خطبة رنانة شـديدة اللهجة اتهم فيها الملك بأنه متواطئ مع أعداء الوطن وأشار الى أن الدستور يعتبره متنازلا عن العرش اذا هو تواطأ مع دولة أجنبية على غزو البلاد أو لم يمنعها من ذلك . وكان لهذه الخطبة أثرها فان الجمعيـة أعلنت فى ١١ يوليه سـنة ١٧٩٢ اعلانها الرهيب :

”أيها المواطنون : إن الوطن فى خطر !“

فهرع المتطوّعون من كل فج لدفع هـذا الخطر . وكان مقرّرا أن تسـير الفرق فى طريقها الى ميدان القتال من وسط باريس . فوفد عليها أهل مرسيليا وهم ينشدون النشيد المشهور الذى وضعه (روچيه دى ليل) والذى أخذه عنهم بقية المتطوّعين فأصبح نشيد فرنسا كلها وعرف منذ ذلك الوقت باسم (المرسييز) .

وفى ١٤ يوليه ازداد اقبال الناس من الأقاليم على باريس للاحتفال بعيد الحرية الثالث . وتجلت فى الحفلات التى أقيمت بمناسبة هذا العيد روح العداء الدفين الذى كان يضمره الناس للأسرة المـالكة وأبى الحظ العاثر إلا أن يقوم دوق برنزويك (قائد قوات الجيوش الأجنبية التى كانت تسير لغزو فرنسا) فينشر فى هذا الظرف الدقيق تصريحه المشهور (٢٧ يوليه سنة ١٧٩٢) الذى دعا فيه أهل فرنسا للعودة الى السكينة والهـدوء وأنذر أهل باريس بالويلات اذا هم مدّوا أيديهم بأدنى أذى الى الأسرة المـالكة واليك بعض ماجاء بهذا الصدد فى ذلك التصريح المشهور :

« ... ...

ثامنا — يجب على باريس والباريسيين جميعا أن يخضعوا فورا لأوامر ملكهم من غير تأخير وأن يعيـدوا اليه حريته كاملة

مستوفاة . وأن يضمنوا له هو وأفراد أسرته تلك الحصانة وذلك الاحترام اللذين توجبهما القوانين الطبيعية فى حق الملوك .

وأن أمبراطور النمسا وملك بروسيا ليقسمان بشرفهما أنه اذا تطاولت يد الشعب الى قصر التويلرى أو أصاب أفراد الأسرة المالكة أى أذى أو تباطأ الشعب فى ردّ حريتهم اليهم جميعا . لا بد أن يوقعا بباريس انتقاما خالدا ويسلماها الى الخراب الدائم والدمار المقيم . كما أنهما يوقعان بالعصاة المجرمين ما يستحقونه من العذاب" !

ووصل هذا التصريح النارى مدينة باريس فى اليوم التالى (٢٨ يوليه) والى تهور صاحبه وتفانيه فى خلاص الملك يرجع الفضل الأوّل فى سقوط الملك وانقضاء عهد الملكية فى فرنسا ! ! ولم يبق بعده رجل واحد فى كل فرنسا يستطيع أن يجهر بأنه يعطف على الملك دون أن يتهم بالخيانة العظمى للبلاد ! وهكذا أراد الدب الأحمق أن يذود الذباب عن وجه سيده فرماه بالحجر وأرداه قتيلا ! !

وأجمعت الأحزاب على وجوب التخلص من الملك . ولم يقع خلاف بينهم إلا على الوسيلة . فكان الجيرنديون يريدون وقفه بقرار تصدره الجمعية . أما اليعاقبة فكانوا يريدون أن يسيروا عليه جموعهم ليختطفوه من قصره ثم يلقوا به الى الجحيم ! وغلب صوتهم فى هذا

الشأن على صوت نظرائهم وتقهقر الجيرنديون أمام حماستهم الدافقة وسخطهم الجارف . وحدّد اليعاقبة ليلة ١٠ أغسطس للهجوم على التويلرى والمطالبة بعزل الملك . وأخذ الشعب يستعد لتلك الساعة الرهيبة التى أراد أن يجعلها فصل الخطاب بينه وبين (ملكه الخائن) ! كما كان يسميه .

وأخيرا حان الموعد فى منتصف تلك الليلة وأعطيت الاشارة فتسلل العصاة الى الساحة التى اتفقوا على أن يجتمعوا فيها . ثم توجه كل جماعة الى وجهتهم التى رسموها لأنفسهم وجرى هذا التوزيع بغاية الدقة والاحكام . وكان أوّل ما صنع زعماؤهم أن قرّروا حل مجلس باريس البلدى . وتأليف مجلس وقتى آخر تولى رياسته دانتون .

هذا ما كان من أمر العصاة ! أما فى القصر فكان كل واحد يدرك خطر الموقف ويعرف تماما أن الساعة قد دنت وأن كثرة الثوار وإحكام تدبيرهم سيكفل لهم الفوز ويرجح بكفتهم على كفة الحرس .

وفى الساعة الرابعة صباحا وقفت الملكة بين أعوانها تسألهم : "ما العمل ؟" فقال قائل منهم : "لا شىء إلا أن تذهب الأسرة المالكة الى قاعة الجمعية !"

فأجابه صاحب له : " اذن أنت تقترح أن يذهب الملك الى أعدائه ؟ " .

ولكن الملكة صاحت به قائلة : " بل أن لدينا جيوشا هنا يا سيدى . ولقد حان الوقت أخيرا لنعرف من تكون له الغلبة . ألملك والدستور أم الأحزاب ! " .

فلم يسع ذلك الناصح الرشيد إلا أن يقول : " اذن لنذهب يا مولاتى حتى نرى ما ذا أعدّ من وسائل الدفاع ! " .

واستعرض الملك قوّة القصر فى الخامسة صباحا فلاقاه جنوده بقولهم : " فليحى الملك ! " فأجاب الدعوة من خارج القصر صوت كقصف الرعد يقول : " فلتحى الأمة ! " وأتم الملك عرض جنوده بين صيحات الكتائب الخارجية بسقوط الخائن ! وسقوط الڤيتو ! ونحو ذلك حتى أنه حين عاد تلقته الملكة نفسها بقولها : " لقد ضاع كل أمل ! وأرى أن ضرر هذا العرض كان أكبر من نفعه ! " .

ولم يعد من أمل أمام الملك إلا أن ينسحب هو وأسرته من القصر الى قاعة الجمعية (وكانت تقابل القصر فى الجهة الأخرى من الحديقة) ففعلوا وخلفوا وراءهم فرقة الحرس السويسرى التى بقيت تدافع عن القصر ولا علم لها بانسحاب الملك منه وكانت المعركة

حاميـة الوطيس . ولكن كثرة المهاجمين غلبت فنون الحرس الحربية واستمرت المذبحة لغاية الساعة الحادية عشرة صباحا حتى لم يكد يبقى من رجال الحرس من يقف للدفاع . وبعد ذلك أخذ الناس ينسابون الى قاعة الاجتماع وهم يحملون رءوس قتلاهم على أسنة الحراب .

هنالك ألح الثوار فى طلب خلع الملك ولكن نجح الجيرنديون فى اقناع الجمعية بأن ذلك الطلب لا يتفق مع القانون لأنه يهـدم نظام الحكومة الحاضر دون أن يمهد لانشاء نظام آخر فتقرر الاكتفاء بوقف الملك واحالة تقرير مصيره على مؤتمر وطنى عام يدعى خصيصا لهذا الغرض .

ثم نقل الملك هو وأسرته من دار الجمعية الى قصر اللوكسمبرج وكانت المناقشات الحادة تحتدم فى الجمعية حول اختيار مكان ملائم تسجن فيه الأسرة المالكة . فوقع اختيارها فى النهاية على (التامپل) وهو حصن عتيق منيع نقـل الملك وأسرته الى أحد ابراجه حيث وضعوا تحت الحراسـة الشديدة حُرمت عليهـم المكاتبـة وقراءة الصحف . وكان الملك يقضى فى هذا السجن أيامه نائما أو مشتغلا بالتدريس لأبنائه بينما كانت تقضى الملكة وقتها فى التطريز !

الفصل الخامس

مذابح سبتمبر — سقوط الملكية

انتقلت السلطة بعد حل بلديه باريس الى يد البلدية الجديدة (الكومون) التى كان يرأسها دانتون ولم يبق من عمل للجمعية التشريعية إلا الموافقة على ما يمليه عليها هذا (اللكومون) فسجن الملك بأمره . واتخذت العدّة لجمع المؤتمر الوطنى كذلك بأمره . وتشكلت وزارة جديدة من الجيرندين ولكن دانتون كان وزير حقانيتها . وتألفت بعد ذلك محكمة ثورية لمحاكمة أعداء الشعب وكانت قرارات هذه المحكمة نهائية غير قابلة للطعن . وصدرت الأوامر لبلديات الأقاليم بالقاء القبض على كل من حامت الشكوك حول إخلاصه ولو لم يتوفر الدليل على خيانته ليحاكم أمام هذه المحكمة .

جرت كل هذه التغيرات وتطورت الحالة الى ما صارت عليه تحت تأثير تلك الهزيمة الأولى التى ارتدت فيها الجيوش الفرنسية فى بدء الحرب ولكن فرنسا عادت كما أسلفنا فنظمت صفوفها وتولى قيادة جيوشها لافاييت ولوكنر (Luckner) واستأنف الجيش سيره للقاء العدو . على أن حادثا جدّ بعد ذلك فدعا الى تغيير

القيادة وأفسح المجال من جديد أمام الفاتحين وذلك أن لافاييت لم يرض عن حوادث ١٠ أغسطس وقرر أن يسير بجنوده على باريس لحماية الملك . فلم يخضع الجنود لرأيه . وخالفه زملاؤه القوّاد قائلين إن مهمتهم مطاردة العدو لا مطاردة مواطنيهم . وصدر قرار الجمعية باعتبار لافاييت خائنا للبلاد . فلم ير الرجل أمامه غير التخلى عن القيادة والفرار من يد الثوار فولى وجهه شطر هولندا . ولكنه وقع فى أيدى النمساويين فسجنوه ولم يخلوا سبيله إلا فى عهد نابليون بونابرت .

وفى خلال ذلك تقدّم دوق برنزويك فاستولى على لونجوى فى ٢٣ أغسطس وعلى متز فى ٢٧ منه ثم زحف على فردان وهى آخر حصن بينه وبين باريس التى هدّدها بالخراب فى تصريحه المشهور فطارت لهذه الهزائم نفوس الفرنسيين وأرادت الجمعية أن تتولى بنفسها تنظيم الدفاع عن البلاد . واقترحت حل الكومون . غير أن هذا لم يكتف بالمعارضة فى أمر الحل بل تقدّم بنفسه ليتولى هو أمر الدفاع . فأعلن دانتون نفسه ديكتاتورا على باريس وصرح بأن خطته السياسية ستكون إرهاب الملكيين . فأغلقت أبواب المدينة فى مساء ٢٩ أغسطس وقام مندوبو الكومون بتفتيش منازل كل من يشتبه فى أن لهم أدنى صلة بالحزب الملكى بحجة البحث

عن السلاح و بذلك ألقى القبض على نحو أربعه آلاف ما بين قسس وأشراف وفرسان وطرحوا جميعا فى غيابات السجون . فلما وافت الأنبـاء بسقوط فردان فى ٢ سبتمبر طافت بهذه السجون فى ليلة الثالث من شهر سبتمبر وفود الجلادين وداوموا عملهـم الجهنمى لمدة ثلاثة أيام كاملة أفنوا فى خلالهـا نحو ألف نفس . وكان من بين القتلى الأميرة لامبال صديقة الملكة وكاتمة سرها وقد حمل رأسها بعـد ذلك على حربة عالية وسار به حامله الى نوافذ سجن التامبل حيث كانت الأسرة المـالكة تقضى أيامها السود الباقية فى انتظار مصيرها المشئوم !

وكتب الكومون الى البـلاد الكبيرة يدعوها الى الجرى على مثـاله "حتى لايتجه الفرنسى المخاص الى العدو ويخلف من ورائه أنذالا يقتلون نساءه وأولاده" فقامت المذابح فى فرساى وريمس وليون وأورليان . وهذه هى المذابح المشهورة فى تاريخ الثورة باسم "مذابح سبتمبر" . وقد قتل فيها خلق كثيرون ممن اتهموا بمشايعتهم الملكية حتى لا يكونوا عونا لدوق برنزويك وهو يقترب من باريس . فانظر كيف كانت عاقبة سعى أوروبا فى حفظ السلام فى فرنسا !

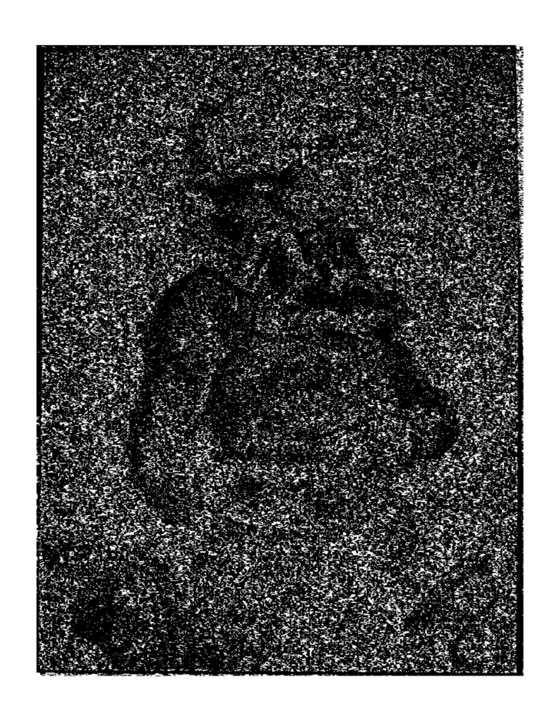
ولم ير الفرنسيون بعد فردان إلا أن يستميتوا فى دفع مايتهددهم من الهزيمة وعار الغلبة وذل العبودية فثبت ديموريه القائد الجيرندى



پرنسس لامبال

تحت مدافع البروسيين فى (ڤالمى) — ٢٠ سبتمبر — ثباتا أدهش العدو وعكس آماله وأفسد عليه خططه وحمله على الرجوع — فأما بروسيا فان ملكها آثر أن ينفصل عن حلفائه النمساويين ليعود الى بلاده ويراقب حوادث بولنده أملا فى اقتسام تلك المملكة الضعيفة مع قيصر الروسيا وفعلا حدث التقسيم الثانى لبولنده سنة ١٧٩١ وبه نالت كل من روسيا وبروسيا جزءا من أرض بولنده ولم تمض أربع سنين حتى اقتسمت النمسا والروسيا وبروسيا البقية الباقية من بولنده ومحوها من خريطة أوروبا ولم تعد للظهور إلا بعد الحرب العظمى . وأما جيش النمسا فكانت تعوزه المؤنة فضلا عن تفشى المرض فيه فلم يستطيع التقدّم بل آثر الانسحاب الى الشرق .

ولقد كان (جوته) الشاعر الألمانى الكبير حاضرا فى موقعة ڤالمى فقال لأصدقائه : ”فى هذا اليوم . وفى هذا المكان ولد عصر جديد فى تاريخ العالم ! “ وما كان أصدق نبوته ! ففى ٢١ سبتمبر أى فى اليوم التالى ليوم ڤالمى انعقد المؤتمر الوطنى وأعلن أن فرنسا قد انتهى بها عهد الملكية . وأنها انتقلت من مملكة أوتوقراطية الى جمهورية ديمقراطية . .



ديموريـــــه

*

الباب السابع

الجمهورية

٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ — ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٥

الفصل الأول

المؤتمر الوطنى

أريد قبل أن أحدثك عن المؤتمر الوطنى أن أذكرك بأن الجمعية الوطنية الأولى كانت تسمى بالجمعية المؤسسة لأنها أخذت على عاتقها وضع دستور للبلاد . فلما وضعته وانتهى عملها انحلت . وتولت الجمعية التشريعية حكم البلاد بمعاونة الملك و بقيت هذه الحكومة من أكتوبر سنة ١٧٩١ الى سبتمبر سنة ١٧٩٢ حيث سجن الملك وأعلن انقضاء عهد الملكية فى فرنسا ودعى المؤتمر الوطنى ليرسم للبلاد نظام حكومة جديدة . فهو من هذه الوجهة يشبه الجمعية المؤسسة الأولى غير أن واجبه كان أوسع من واجبها اذ لم يكن الغرض من

اجتماعه مقصورا على وضع هذا النظام فحسب بل كان يشمل أيضا القيام بمهمة الحكم ريثما يفرغ من انشاء الحكومة الجديدة ووضع نظاماتها . فكان المؤتمر فى الحقيقة نائبا عن الشعب فى كافة مظاهر سلطته الشرعية فى الوقت الذى خلت فيه البلاد من الحكومة ليتولى حكمها فى الداخل ودفع غارة الأعداء عنها فى الخارج وليقرر شكل حكومتها النهائية بعد أن انقضى عهد الملكية فيها (١) .

وجرت الانتخابات لهـذا المؤتمر فى وقت عصيب كانت نار الحرب مشتعلة فيـه بين فرنسا والدول المتحالفة . والملك وأسرته رهائن فى (التامپل) وأنصار الملكية ينكل بهم فى كل مكان . ولجان الثورة والأندية اليعقوبية متسلطة على الأذهان بجاء هيئة ديمقراطية ثورية للغـاية القصوى يكاد تطرفها يجنح بهـا الى الفوضى وكان أعضاؤه وهم يزيدون على السبعمائة لا يكاد يرى بينهم عضو واحد قد انصرفت ميوله الى الحزب الملكى أو حزب الدستور .

فكان الجيرنديون هم حزب اليمين هـذه المرة وكان كل همهم التغلب على الكومون واسترداد السـيادة من يده — وكان الحزب المتطرف هو حزب اليعاقبـة الذين نصبت مقاعدهم فـوق المقاعد السفلى وأطلق عليهم لذلك اسم (الجبل) . أما الحزب الثالث فكان

(١) الجمعيات الوطنية (للرافعى) .

ضعيفا لا رأى له إلا ما يحمله عليه الجيرنديون بقوة حجتهم أو ما يدفعهم اليه اليعاقبة بارهابهم . وكان يطلق على هـذا الحزب نظرا لوقوعه تحت (الجبل) اسم (السهل) .

وبلغت المنافسة بين الحزبين الرئيسيين فى هيئة المؤتمر أشدها فكان كل فريق يهتم بالاستئثار بالسلطة واخماد أنفاس مناظره اهتمامه بالتغلب على عدوه الخـارجى . وكان فى هـذا المؤتمر من زعمـاء الجيرنديين فرنيو وبريسو اللذين اشتهرا فى عهد الجمعية التشريعية . كما كان بين زعماء اليعاقبة هذه المرة روبسپير الذى أصبح فيما بعد دكتاتور فرنسا وزعيم الارهاب . ومارا الطبيب صـاحب جريدة (صديق الشعب) وأشد دعاة الثورة حماسة . وألد أعداء الجيرنديين . وأكبر زعمـاء الارهاب قسوة وتطرفا . ودانتون المحامى الذى كان وزيرا للحقانيـة فى الوزارة الأخيرة ورئيسا لبلدية باريس . وكامى ديمولان الصحفى والخطيب الشهير وصـديق دانتون الحميم الذى اتهمه روبسپير فى أيام دكتاتوريته بأنه يعمل مع دانتون على التآمر ضد الجمهورية وساقهما معا الى الجيلوتين . وغير هؤلاء كثير يضيق المقام عن ذكرهم أجمعين .

ولم يكد يجتمع المؤتمر حتى أخذ فى تأليف اللجان العديدة للقيام بما كان مطلوبا منه من الواجبات الكثيرة فاختصت لجنة بالتشريع

ولجنة بالمالية ولجنة بالشئون الحربية ولجنة بالشئون الخارجية وغيرها بوضع الدستور وهكذا .

وكان أول اجتماع عقده المؤتمر فى ٢٠ سبتمبر حيث اجتمع فى سراى التويلرى وفى ٢١ أعلن انتهاء عهد الملكية وافتتاح عهد الجمهورية . ثم أبطل استعمال لقب (مسيو) (ومدام) وسائر الألقاب التى تستعمل فى مقام الاحترام واستبدلت جميعها بلفظ (مواطن) للذكور (ومواطنة) للأناث وأطلق على دوق أورليان نفسه زعيم المبشرين بمبادئ الثورة من حرية وإخاء ومساواة لقب (المواطن مساواة) وسبب هذا الانفعال الشديد أن القوم ما كادوا يذوقون طعم الحرية التى حرموا منها أجيالا طويلة حتى ثارت عواطفهم لدرجة تقرب من الجنون وأخذتهم هذه النوبة العنيفة ضدّ كل أثر من آثار العهد القديم حتى أصبحوا ينظرون الى كل من ينتمى الى النبلاء كأنه جرثومة شر وفساد لا تصلح حال الأمة ويستقيم شأنها إلا بعد إبادتها والتخلص منها . وكان من جراء ذلك ما وقع من المذابح الشهيرة التى انتهت بعهد الارهاب .

على أن الناس فى بادئ الأمر كانوا يستنكرون الاسراف فى القتل وسفك الدماء . وأدّى ذلك الى رجحان كفة الجيرنديين فى أوّل عهد المؤتمر على الجبليين المتطرفين . حتى أن بعض

الجيرنديين وجه التهمة الى روبسپير ومارا بأنهما أصل الفظائع التى كانت ترتكب فى أنحاء فرنسا عقب وقوع مذابح سبتمبر فى باريس تمهيدا لارهاب النــاس وحملهم على قبول سيطرتهــم واستئثارهم بالسلطة فى ادارة شــئون البلاد . ولكن الجمعيــة لم ترمن الأدلة ما يكفى لادانتهما فلم تعمل على محاكمتهما وأسرها روبسپير فى نفسه لخصومه وكان هذا الحادث من أكبر العوامل التى جعلتــه يلعب ذلك الدور الهائل الذى مثله فى عهد الارهاب .

---

*

الفصل الثانى

الحـــرب مســـتمرة

لم تكن الحرب قد قرت رحاها بعد ارتداد البروسيين عن ڤالمى فى ٢٠ سبتمبر فان جيوش الثورة أخذت تطارد أعداءها . فأوغل (كاستين) فى ألمانيا واستولى على مدينة مايتز (٢١ أكتوبر) وتقدم ديموبين نحو البلجيك وقاتل النمساويين فى (چيماپ) (٦ نوفمبر) وأوقع فى صفوفهم الهزيمة فأخلوا له الجو من بعدها من غير قتال وكانت الجيوش الفرنسية تعلن فى كل مكان تحل به أنها لا تبغى الاعتداء على حرية الشعوب ولكنها تعمل على نشر مبادئ الثورة وأصدر المؤتمر فى ١٩ نوفمبر قراره الشهير :

[أنه يعلن باسم الأمة الفرنسية استعداده لمعاونة كل شعب يجاهد فى سبيل حريته . ويكلف قواد الجيش الفرنسى بأن يمدوا يد المساعدة لكل أمة تضطهد بسبب هذا الجهاد] .

فطلب البلجيكيون أن ينضموا الى الجمهورية الفرنسية وقبل المؤتمر هذا الطلب كما قبل طلب انضمام سافوا كذلك بناء على رغبة أهلها .

وهكذا كتب النصر لفرنسا فى الخارج بينما هى يمزقها الانقسام والمنازعات الحزبية فى الداخل فان الجيرنديين ما انفكوا يدبرون كل وسيلة لاستعادة السلطة بعد أن انتزعها منهم رجال ١٠ أغسطس وأودعوها فى يد (كومون باريس) ولمثل ذلك كان يعمل العاملون من الجبليين فانهم ودوا لو يقضون على الجيرنديين حتى يتم لهم الأمر ويتخلصوا من منافسة ذلك الحزب القدير الخطر . فأثاروا مشكلة الملك السجين ونادوا بوجوب محاكمته أملا منهم فى أن يعترض الجيرنديون فيكون ذلك سببا فى إثارة الرأى العام عليهم فاذا هم وافقوا على المحاكمة فلا مناص من أنهم يعارضون فى الحكم عليه بالاعدام وعند ذلك توجه اليهم تهمة التواطؤ والخيانة ولا مفر لهم من الخسارة على كل حال .

---

*

الفصل الثالث

إعـــدام المـــلك

كان الملك منذ وصل التامپل منقطعا عن العالم الخارجى فـلم يكن يسمح له أن يكاتب أحدا ولم يكن يسمح له بقراءة الصحف كما أسلفنا . وكذلك كانت الملكة . وقـد دبرت فى الأيام الأولى لسجنهما عدّة مشروعات للفرار ولكنها كانت كلها محاولات سخيفة مقضى عليها بالفشـل ولم تخلف أثرا إلا تشـديد الرقابة على الملك وزوجه فلم يعد يسمح لهما بحيازة الورق والأقلام . بل ولا السكين والمقص ومنعت الملكة من التطريز خشـية أن تخفى فى غضونه رسالة رمزية تمكنها من التفاهم مع غيرهم خارج السجن . وكانت الأسرة تتناول فطورها فى الساعة التاسـعة بغرفة الملك ثم ينتقلون الى غرفة الملكة حيث يأخـذ الوالد فى تعليم ولده والأم فى تعليم ابنتها وفى الساعة الواحدة يخرجون قليلا للرياضة ثم يعودون للغداء فى الساعة الثانية وبعـد العشاء يفترقون كل الى غرفته ثم يعودون للاجتماع فى اليوم التالى[1] .

---

(١) قضايا التاريخ الكبرى (الأستاذ عنان) .

وهكذا لبث الملك هو وأفراد أسرته فى هـذه الدعة المظلمة وفى ذلك السكون المعتم بينما كانت تجرى المناقشات العاصفة فى دار المؤتمر حول محاكمته وهل هى جائزة قانونا أو غير جائزة .

فبينما كان يدفع المدافعون عن الملك بحقه فى الحصانة التى قررها له دستور سنة ١٧٩١ وأن جريمة الخيانة ومحاربة الأمة يعاقب عليهما بالعزل وأن هـذا العقاب واقع فعلا وأن الوزراء المسئولين يحجبون شخص الملك وأن المؤتمر لا يجوز له أن يوجه التهمة للملك ويحاكمه عليها وإلا كان خصما وحكما فى أن واحد . كان يرد عليهم أنصار المحاكمة بأن لويس لا حق له فى أن يحتمى بدستور سنة ١٧٩١ الذى لم يخلص له قط وأن الأمة هى التى قررت بالأمس عقوبة العزل وهى التى يحق لها اليوم أن تقرر عقوبة غيرها أقصى منها ما دامت هى مصدر كل قانون وأساس كل تشريع وأن الوزراء لا تجوز مسئوليتهم إلا عن الظاهر من الأعمال إذ كيف يسألون عن أعمال سرية يجهلونها وقد تم تدبيرها من وراء حجاب ؟ أما اختصاص المؤتمر فى محاكمة الملك فلا يصح الاعتراض عليه اذ لو قبل هذا الاعتراض فمن ذا الذى يقوم بالمحاكمة . وهل يمكن أن تحال القضية على دولة أخرى لتحكم فيها[1] .

---

(١) قضايا التاريخ الكبرى (الأستاذ عنان) .

وانتهت هـذه المناقشات بقرار وضعته اللجنة التشريعية للمؤتمر وهو يقضى بوضع تقرير اتهـام بالوقائع المنسوبة الى لويس وأن يمثـل لويس بشخصه أمام المؤتمر ويمنح حق الاستعانة بالمحامين للدفاع عن نفسه .

وحمل اعلان الاتهام الى الملك فى ١١ ديسمبر فذهب من فوره الى قاعة المؤتمر وهناك تلى عليه تقرير الاتهام وكانت التهم الموجهة اليه أنه حنث فى اليمين التى أقسمها على احترام الدستور وأنه تخابر مع الأعداء برسائله وبأعوانه ورجاله وتآمر على سلامة الدولة ودعا الى غزو البلاد . وكان الملك يجيب عن هذه التهم واحدة واحدة تارة بانكارها وطورا بنسبتها الى وزرائه وطورا آخر باقرارها والاستناد فى تبريرها الى نصوص الدستور .

وكان بين الذين تولوا الدفاع عنه أمام المؤتمر (ديسيز) الذى خاطب المؤتمر بكلمته المشهورة " أبحث فيكم عن قضـاة فلا أجد إلا متهمين" وما ليشرب وزيره السابق الذى كان أطهر الناس ذمة فى وزارته وأخلصهم له وفاء بعد استقالته وتكلم الملك بنفسه فألقى خطابا قصيرا ضمنه وجوه الدفاع التى رآها فى صالحه . ولكن نهض بعد ذلك (سانت چوست) الذى كان يشغل كرسى الاتهام وحمل



سانت چوست

على أقوال المدافعين وصوّر الملك فى صورة المستبد الماهر المتواضع الذى طغى بمهارة ثم دافع عن نفسه بأدب وتواضع[1] .

واقترح الجيرنديون بلسان فرينو أن يستفتى الشعب فى الأمر فرفض الاقتراح ووصف بأنه نذالة سياسية ومدعاة للحرب الأهلية وتفريق الكلمة .

وفى ٧ يناير سنة ١٧٩٣ طرحت الأسئلة الآتية على المؤتمر لابداء رأيه فيها وهى :

(١) هل ارتكب (لويس كابيه) جناية التآمر على حرية الشعب وسلامة الدولة ؟

" فقرر المؤتمر بالاجماع ثبوت التهمة "

(٢) هل يطرح الحكم الذى يصدره المؤتمر على الشعب لاقراره ؟

" فرفض الطلب بأغلبية ٤٢٣ صوتا ضد ٢٧١ "

(٣) ما هو العقاب الذى يوقع على لويس ؟

وهنا تضاربت الآراء فأفتى ٣٨٧ باعدام الملك وأفتى الباقون بعقوبات أخرى بين السجن والنفى والاعدام مع إيقاف التنفيذ .
ولا ريب فى أن الخطة التى قررها اليعاقبة لأخذ الأصوات هى التى

---

(١) قضايا التاريخ الكبرى (الأستاذ عنان) .

كانت سببا فى هذا الحكم فقد نصبت منصة عالية كان ينتقل اليها كل عضو بدوره ليعطى صوته من فوقها جهارا على مسمع من كل الحاضرين . وكان الغوغاء على صلة بما يجرى فى القاعة فكان الأعضاء يقررون الاعدام تحت تأثير هذا الارهاب . حتى أن فرنيو الذى كان يقول باستحالة إعدام الملك لم يتمالك وهو على المنصة إلا أن يعطى صوته باعدامه . وعلى الرغم من كل ذلك فقد صدر الحكم بناء على تلك الأغلبية الضئيلة التى لم تتجاوز الخمسين إلا بقليل .

وكان الملك فى غرفته ينتظر الحكم حين دخل عليه ما ليشرب والدموع تملأ عينيه فألفاه جالسا فى الظلام وقد اعتمد بمرفقيه على مائدة أمامه وأخفى وجهه بين يديه فلما أحس بزائره رفع رأسه اليه وقال: " لقد قضيت ساعتين أفكر فيما لو كنت أتيت أثناء حكمى ما أستحق عليه أدنى لوم من رعيتى ولكنى أقسم وأنا فى طريق الى الله أنى ما آليت جهدا فى تحقيق سعادة الشعب طول حياتى[1] ! ".

وطلب الملك أن يمهل ثلاثة أيام يستعدّ فيها للقاء ربه — وأن يسمح للملكة وأولادها بمغادرة فرنسا — وأن يسمح له برؤية

(١) Fr. Rev. (Mignet)

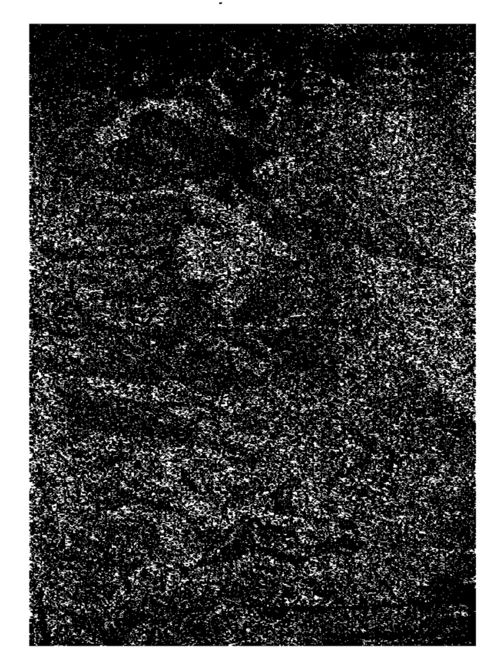
أسرته قبل الموت — وأن يباركه قسيس يختاره لنفسه — فرفض الطلبان الأولان وسمح له بالأخيرين .

وفى الساعة الثامنة والنصف من مساء ٢٠ يونيه سمح لأسرة الملك بمقابلته فارتمت الملكة على قدمى زوجها وأغمى على ابنته بين ذراعيه وجعل ولى العهد يصرخ صراخا يمزق القلب واستمر ذلك المنظر المؤلم زهاء ساعتين ساد فيهما العويل والنحيب والأنين .

ثم عاد الملك الى قسيسه وابث معه حتى منتصف الليل ثم نام نوما عميقا بعد أن أوصى خادمه أن يوقظه قبل الساعة الخامسة فى الصباح .

وفى فجر اليوم التالى نهض الملك وطلب إليه قسيسه أن يكفى نفسه وأسرته ألم الاجتماع بها من جديد فأجابه الى طلبه . ثم حانت الساعة وركب الملك عربة الاعدام الى (ميدان الثورة) حيث نصبت الجيلوتين فى فراغه الشاسع وأقيمت حوله المدافع وأحاطت بها فرقة كبيرة من الجنود .

ووصل موكب الملك الى تلك الساحة فى الساعة العاشرة صباحا فنزل من العربة وصعد سلم المقصلة بقدم ثابتة وأحنى رأسه ليباركه القسيس فوضع عليه يده قائلا " اصعد يا ابن القدّيس لويس الى السماء ! " ثم حاول الملك بعد ذلك أن يخاطب الناس فمشى الى



لويس السادس عشر يصعد الى الجلوتين

*

جانب النطع وقال " إني برىء وأسأل الله أن لا تقع التبعة فى دمى على رأس فرنسا ... ... " ولكن ضاعت بقيــة كلامه وسط قرع الطبول واقتاده الجلادون الى حدّ السكين .

وفى الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة رفع الجلاد الرأس المقطوع للجماهير فهتفوا بصوت واحد . " فلتحيي الجمهورية " !

* * *

والآن ماذا يقول المؤرخ المنصف تعقيبا على هــذا الوصف المحزن وتعليقا على هذا الحادث الأليم ؟

لقد كان لويس طيب القلب محبـا للاصلاح . ولقد ورث الثورة ولا شك عن أجداده وأســلافه . وكان خيرا منهم جميعـا فى القيام بالواجب نحو الشعب وكان لايعدل خوفه من الله إلا حبه لرعيته . ولكن هل يدعونا ذلك الى أن ننسى أنه لم يكن إلا فردا من أبناء فرنسا جعلته التقاليد ملكا عليها وأن ألوفا من هؤلاء الفرنســيين المستعبدين التعساء كانوا يجاهدون فى سبيل الحــرية ويشقون فى جهادهم لتنسم ريحها وأنهم بينما كانوا يضحون بأرواحهم وأرواح أبنائهم وهناء أزواجهم فى هذا السبيل كان الملك يستسلم بضعفه للجبابرة الذين أحاطوا به ليستعين بأعداء الثورة على إخمــاد أنفاسها ؟ هل يحق لنا أن ننسى أن شخصا آخر أهم فى حيــاة العالم

من شخص لويس هـذا وهو شخص المجتمع الفرنسى كانت تهدّده جيوش الغـزاة فى الخـارج بينما يتآمر أنصار هـذا الملك عليـه فى الداخل ؟

إن الانسان ليفكر فى مصير هـذا الملك التعس فلا يتمالك أن يحزن عليـه ويتوجع لمـا أصابه . ولكنه لا يلبث أن يرسل من صدره زفرة طويلة يردّد فيها قول الملك نفسه :

"اللهم اجعل دمه البرىء فداء لفرنسا"

---

*

الفصل الرابع

التحالف الدولى الأولى

انتصرت جيوش الثورة فى ألمانيا و بلجيكا وأصبحت تهدد هولندا وما وراءها . وشجعها هذا النصر على اصدار قرار ١٩ نوفمبر الذى يعتبر بمثابة تحريض على الثورة وشق عصا الطاعة على الملوك فى كل مكان . وانضمت بالفعل بلچيكا وساڤوا (Savoy) الى فرنسا وهلعت الدول لدى رؤية هذا الفوز المبين وتلك الغنائم العظيمة ورأت انجلترا أن التزامها الحيدة سيكون قضاء على التوازن الدولى فى أوروبا فنشطت لوقف فرنسا عند حدها واستفزها الى ذلك ما بلغها أخيرا عن مقتل الملك وشجعها على دخول الحرب ما عرفته من سخط أوروبا جميعها على الثورة بعد هذا الحادث المشئوم — وعصيان بعض الولايات الفرنسية نفسها مثل (برتنى ولافنده) ونفورها من زعماء الثورة عقب قيامهم بهذا العمل الممقوت وانشقاقها على باريس ومن فيها وخروجها على الحكومة المحلية — فعمل (پت) وزير انجلترا على تأليف اتحاد دولى لمقاومة الثورة والقضاء عليها . فأجاب دعوته ملك اسبانيا

وهولندا وانضمت اليهم النمسا وبروسيا وسارت جيوشهم المتحالفة لغزو فرنسا من جهات ثلاث .

فانهزمت كتائب كاستين أمام جيوش الغزاة وانسلخ من فرنسا كل ما انضم اليها فى حربها السابقة إلا مدينة ماينز فانها بقيت بأيديهم زمانا . أماديموريبه فردّه النمساويون فى نيروندن (١٨ مارس سنة ١٧٩٣) فوقف عن القتال وفكر فى إرجاع الملكية ولكن جنوده لم توافقه على هذا الرأى . وكان لانخذاله وفراره أكبر أثر فى إيقاظ إحقاد الجبليين على منافسيهم الجيرنديين . وجاءت هذه المغامرة من جانبه ضربة قاضية على حزبه . فان اليعقوبيين لم يتركوا الفرصة تفلت من أيديهم وقاموا يرمون الحزب بداء زعيمه . ووجهوا الى كافة أعضائه تهمة الخيانة وأحاطوا بقاعة المؤتمر وطلبوا إلقاء القبض على رؤساء الجيرنديين فطرح فى السجن من زعمائهم نحو ٢٢ ولكن لم يلبث هؤلاء أن أفلت بعضهم وانتشروا فى أنحاء فرنسا حاملين ألوية الخروج على رجال الثورة . فطاردتهم الحكومة وأهدرت دمهم غير أنهم تمكنوا من إثارة الفتنة وأفلحوا فى ازعاج غرمائهم واشتعلت بذلك فى أنحاء البلاد نار الحرب الأهلية وقامت مرسيليا وطولون وبردو وليون فى وجه الجبليين وأعلن أهلها خروجهم على طاعة الحكومة القائمة فى باريس .

الفصل الخامس

مقتـــــل مارا

فى شهر يناير سنة ١٧٩٣ قتل الملك .

وفى شهر فبراير سنة ١٧٩٣ تألف التحالف الدولى ضدّ فرنسا .

وفى شهر مارس — انهزمت الجيوش الفرنسـية تحت ضغط الحلفاء وارتد أمامهم ديمور بيه ثم ظهرت خيانة هـذا القائد وتبين أنه كان يعمل على قتـل الثورة وتوليـة ملك على فرنسا من سلالة أورليان . فكان ذلك سببا فى هياج الجبليين الذين قرّروا نفى دوق أورليـان وجميع من بقى من أسرة بوربون وأعادوا " محكمة الثورة " ليستعينوا بها على التخلص من أعداء الثورة .

وفى شهر أبريل — تألفت لجنـة الأمن العام من ٩ أعضاء يتجـدّد انتخابهم كل شهر . وخوّلت هـذه اللجنة سلطة دكتاتورية مطلقة لتتولى كيفما تشاء أمر المحافظة على السلام فى الداخل ودفع خطر الحلفاء فى الخارج .

وفى شهر مايو — أئتمر اليعاقبـة بالجيرنديين لأخذهم بجريرة زعيمهم الخائن ديموريه رغبة منهم فى القضاء عليهم .



مارا

*

وفى ٢ يونيه سنة ١٧٩٣ — أحاط نحو ٨٠ ألف من غوغاء باريس بقصر التويلرى حيث كان يجتمع المؤتمـر وطالبوا القبض على زعماء الجيرنديين . فقـدّم مارا (رئيس نادى اليعاقبة) كشفا بأسمـاء ٢٢ زعيما منهـم فألقى القبض عليهـم . وطرحوا جميعـا فى السجن .

وفى نفس الشهر تمكن كثير من الجيرنديين المسجونين من ترك سجونهم وانتشروا فى أنحاء فرنسا كما أسلفنا يلقون بذور الفتنة فى كل مكان . ويثيرون الرأى العام فى الأقاليم على الفظائع التى كان يرتكبها مارا وأمثـاله فى باريس فثارت بوردو ومقاطعـة الجيروند بأكملها ثم ثارت مرســيليا وليون ثم قامت تولون فجاهرت بعصيانهـا لحكومة باريس وزادت على ذلك أن أقامت لنفسها حكومة محلية وأعلنت ولد لويس السادس عشر (سجين التامپل) باسم لويس السـابع عشر ملكا عليهـا . وأقبلت أساطيـل الحلفاء لحمايتهـا وإمدادها عن طريق البحر بمـا تحتاج اليه من غذاء وسلاح .

هــذه خلاصة تاريخيــة متسلسلة للحوادث التى أشرنا اليهـا فى الفصول السابقة رأينا أن نوردها هنا على هــذه الصورة لتكون بين يدى القارئ ضابطا لتلك الحوادث وتعاقبها . ونضيف اليهـا الآن أنه :



شارلوت کوردای

في يوم ٩ يوليه سنة ١٧٩٣ — غادرت (شارلوت كورداى) قريتهـا فوصلت باريس فى ١١ يوليــه وتمكنت من الدخول على (مارا) بعد ذلك بيومين آخرين . فأخذت معه فى الحديث قليــلا ثم استلت من تحت ثيابها سكينا طعنته بها فى صدره طعنة أردته قتيـــلا .

فليحفظ التاريخ لهــذه الفتاة الجريئـة أنها هدمت أصلب أركان الثورة وأنها صاحبــة الطعنــة الأولى فى قلب الارهاب والقائمين به ولتسجل لها الانسانية شكرها اعترافا بتضحيتها الخالدة ونزولا على إرادتهـا فى ندائها الشهير الذى كتبته قبــل فعلتها بأيام وهى تقول فيه :

” أى وطنى ! إن مصائبك تمزق قلبى ! وليس فى وســعى أن أهبك سوى حياتى وانى أحمــد الله الذى وهبنى حرية التصرف فيهـا . أريد أن يكون من زفرتى الأخيرة خير لأبنـاء الوطن وأن يكون رأسى المحمول فوق رمح فى طرقات باريس علم الاتحاد لكل أنصار القانون وأن يرى اليعاقبة المخذولون حتفهم مكتوبا بدمى . وأن أكون آخر فرائسهم . وأن يعلن العالم الذى انتقمت له أننى خليقة بشكر الانسانية ! “ .

الفصل السادس
شارلوت كورداى

أما شارلوت كورداى هذه فكانت فتاة فى الخامسة والعشرين من عمرها يغنينا إثبات صورتها عن الافاضة فى وصف جمالها . نشأت فى دير مدينة (كاين) من أعمال برتنى (Brittany) فى غرب فرنسا و بقيت فيه حتى قررت الجمعية التشريعية إغلاق الأديرة فعادت الى قريتها . ولكنها استمرت كما كانت فى الدير مكبة على المطالعة ودراسة النظريات الحديثة التى كانت لها السيادة فى ذلك العصر . و بقيت تتتبع حوادث الثورة بغاية الاهتمام والحماسة . وكانت منذ نشأتها جمهورية النزعة تمجد حكومة الجيرنديين وتتحمس لها وتعجب برجالها . فلما تقدم اليعاقبة الى الميدان وتسببوا فى إعدام الملك امتلأت نفسها سخطا عليهم واشمئزازا منهم وازداد إعجابها بكياسة الجيرنديين واعتدالهم . ولكنها مالبثت أن رأت أيدى اليعاقبة التى لوثها دم الملك تمتد الى أعناق الجيرنديين أنفسهم فزادت كراهتها لهم واشتد مقتها لزعمائهم وأخصهم مارا شيطان الثورة وجلادها و بطل مذابحها فكانت تحقد عليه وتكرهه بقدر

ما كانت تعجب بزعماء الجيرنديين وتحبهم وأخيرا وفد جماعة من نواب الجيرنديين الذين فرّوا من السجن الى مدينة كاين . فذهبت شارلوت اليهم مسوقة بعامل الاعجاب والاكبار وحب التقرّب منهم والتعارف بهم وهناك سمعت أحاديثهم عن مارا ووحشيته وتعطشه للدّماء وأنه صرح أخيرا بأن عدد الرءوس التى يرى وجوب قطعها ليستتب السلام فى فرنسا ينبغى أن لا يقل عن مائتين وستين ألفا فهالها ماسمعت وارتاعت نفسها لهذا الخبر والتهب صدرها بغضا لذلك الطاغية السفاح وعقدت نيتها على أن تفتدى برأسها الجميل تلك الآلاف الكثيرة من الرءوس البريئة التى كان يريد قطعها مارا!

وحدث يوما أن وقف (بار بارو) أحد أولئك الزعماء الفارّين يخطب فشرح الحالة السيئة التى أصبحت عليها فرنسا ثم اندفع فى حماسته وقال « إنه إذا لم تظهر چان دارك جديدة واذا لم ترسل السماء نجدة سماوية واذا لم تحدث معجزة خارقة فعلى فرنسا السلام![1] »

فوقعت هذه الكلمات فى نفس تلك الفتاة الطاهرة موقع السهم وشعرت أنها مقصودة بهذا النداء وأن العناية ساقت اليها ذلك الخطيب لينبهها الى الواجب الذى خلقت له . وكانت بعد

(١) قضايا التاريخ للأستاذ عنان .

ذلك تقضى كل وقتها فى التأمل والتفكير وتدبير ما يلزم للقيام بذلك العمل الخطير الذى ندبت له . وأخيرا قرّ قرارها فأجمعت أمرها واعتزمت الرحيل .

وفى عصر يوم الثلاثاء ٩ يوليه سنة ١٧٩٣ استقلت شارلوت كورداى عربة البريد الى باريس فانتحت ناحية فيها ولم تشترك مع المسافرين فى أحاديثهم لأنهم كانوا ينظمون قلائد المدح للجبليين . وسارت بها العربة ليلة الأربعاء وطول يوم الأربعاء وفى ضحى يوم الخميس دخلت بها مدينة باريس الواسعة المزدحمة فنزلت الفتاة الى خان هناك حيث استأجرت غرفة وألقت بنفسها فى فراشها فنامت بقية اليوم واسترسلت فى نومها طول الليل ثم استيقظت فى صباح الجمعة فزارت قاعة المؤتمر ورأت فيها حزب الجبل كيف يكون ولكنها لم تر وجه مارا لأنه كان فى داره مريضا لا يقوى على الخروج .

وفى الساعة الثامنة من صباح السبت خرجت من خانها فابتاعت نصلا طويلا ثم استأجرت عربة وأمرت سائقها أن يذهب بها الى شارع مدرسة الطب نمرة ٤٤ حيث كان يقيم غريمها الذى أقبلت تسعى اليه من غرب فرنسا إلى شرقها . ولكن مارا لم يكن يقابل أحدا فارتدّت الفتاة على أعقابها وأرسلت اليه من خانها الرقعة الآتية :

" لقد جئت من كاين مقرّ العصيان وأرغب فى رؤيتك فورا لأمكنك من القيام بخدمة عظيمة لفرنسا " .

ولبثت تنتظر الرّد ولكن ذهب انتظارها سدى فاعتزمت أن تذهب بنفسها اليه مرة أخرى .

أما مارا فكان مريضا حقا . وكان محموما يعانى أقسى الآلام . فأى مرض ترى ذلك الذى يقعد بهذا المارد المتوحش وأى عاهة تلك التى تناسب روحه الجبارة؟ انه كان يشكو أكلة حادة فى جلده لعلها هى التى كانت تهيج أعصابه وتثير احساسه وتكسبه تلك الضراوة التى امتازت بها قسوته وشدّته . ويعزى اليه أن أعداء له كانوا يطاردونه ويطلبون دمه ففرّ منهم والتمس الخلاص لنفسه بالاختفاء عن أبصارهم فاحتمى فى مجرى من مجارى القاذورات فتأكل فيه جلده . وخرج منه بعد ذلك وهو يقول لا مساس ! وظل بقية عمره يقضى أكثر وقته فى حوض مملوء بالماء ليخفف بعض آلامه وكانت له على صفحة الماء لوحة من الخشب قد جعل فيها ورقا يلوث أديمه بأفكاره وخواطره . ويخط فوقه أسماء من يريد أن يقذف بهم تحت سكين الجيلوتين .

وخرجت شارلوت من خانها تقصد داره من جديد . وكان ذلك فى الساعة السابعة من مساء ١٣ يوليه أعنى فى ليلة عيد

الحرية الذى تضطرب له باريس وتموج والذى وقف فى مثله مارا منذ أربع سنوات أمام الباستيل يصيح بحاميته أن تنزل اليه وتسلمه سلاحها .

قرع الباب وسمع مارا وهو فى حوضه صوتا رقيقا يعارض صوت سيمون افرار (وهى المرأة التى كانت تعاشره) إذ يقول الصوت: "لا بدّ لى أن أراه !" فتقول سيمون محتدّة : "ولكنه لا يرى أحدا !" وعرف الرجل أن الزائر لا بدّ أن يكون تلك الفتاة التى تريد أن تقدّم لفرنسا خدمة عظيمة . فأذن لها فدخلت ودار بينهما الحديث التالى :

— إنى من كاين وأريد التحدّث اليك ؟

— اجلسى يا بنيتى . ماذا يفعل الخونة فى كاين ؟ ومن هم النوّاب الذين هناك ؟

— باربارو ... بيتيون ...

— سوف لا تبقى رءوسهم فوق أكتافهم بعد ١٥ يوما ! ... بيتيون ... ولوفيه Louvet ... ؟ ومن أيضا ... ؟

غير أن الفتاة كانت قد انتهزت هذه الفرصة التى أكب صاحبنا فيها على لوحته يكتب أسماء فرائسه فاستلت نصلها من تحت ثيابها وأغمدته فى صدره العارى بكل قوتها فصاح الطاغية :

" إلىّ يا عزيزتى ! ... إلىّ ! " .

ولكن لم تكن تجدى النجدة بعـد تلك الطعنة النجلاء . فان رأسه الدميم المتهالك مال الى الوراء وأسلم السفاح روحه الآثمة غير مأسوف عليه .

وملأت سيمون الدنيا بصراخها وغص المكان بالوافدين وحاول بعضهم أن يصل الى شارلوت ولكنها قلبت بعض الأثاث الذى بالغرفة وتحصنت خلفه حتى أقبل البوليس فأسلمت نفسها اليه بكل هدوء .

ولم تكن تشـك الفتـاة قط فى مصيرها فكانت مثال الثبات فى قاعة المحاكمة كما كانت مثـال الشجاعة على نطع الجلاد . ولقد تقدّم أحد زبانية المقصلة يقيد رجليها فامتنعت بإباء ظنا منها أن فى هـذا العمل إهانة لها فلما أفهمت أن تلك احدى (تقاليد) الجيلوتين اعتذرت فى رقة وخفر . ولمـا امتدت يد الجلاد لينزع المنديل الذى كان حول جيدها علت وجهها ونحرها حمرة الخجـل وكانت لا تزال صفحة خدها مشرقة بهذا اللون الوردى عندما رفع الجلاد رأسها المقطوع حسب عادته ليريه للناس !

ويقول بعض الحاضرين أن النذل قد صفعه . ولكن الراوى يقول أيضا أنه عوقب على ذلك بالسجن (١) !

---

(١) قضايا التاريخ الكبرى للاستاذ عنان وتاريخ الثورة لكارليل .

الفصل السابع

لجنـــة الأمن العـــام وروبسبير

كان فرار ديمور بيـــه الى الأعداء سببا فى نكبة الجيرنديين . وكانت نكبة الجيرنديين هـــذه سببا فى قتل مارا وفى تفرد الجبليين بالحكم واختبال شئون الادارة وانتشار الفتنة فى أنحاء البلاد .

وتغيرت خطة الدول المتحالفة بعد ما بدا لهم من انقسام فرنسا وقيام بعض جهاتهـا على بعض فبعد ان كانت نيتهم مقاومة الثورة ومحاربة القائمين بها اتجهت أنظارهم الى تقسيم فرنسا وتوزيع أسلابها بين أنفسهم . فاســتولى الانجليز والنمساويون على كونده وفالنسين واســتعاد البروسيون ما أخذه منهـــم كاستين وانتصرت جيوش اسپانيا على الفرنسيين فى جبال البرانس . وزادت انجلترا هذا الطين بلة بأن أعلنت الحصر البحرى على جميع الموانى الفرنسية .

فلم ير الجبليون ازاء هذه الرزايا إلا أن يعلنوا من جديد أن الوطن فى خطر وأن لا سبيل لخلاصه إلا تركيز السلطة فى يد هيئة صغيرة تخوّل سلطة واسعة مطلقة لدفع هـــذا الخطر عن البـــلاد . وكان أعضاء لجنـــة الأمن العام يعاد انتخابهم بعينهم كل شهر منـــذ



شارلوت كورداى

*

تألفت تلك الهيئة فى شهر أبريل . فلما جاء دور تجديدها للمرة الثالثة فى يونيه سنة ١٧٩٣ استبدل ببعض أعضائها غيرهم . وتولت الهيئة الجديدة حكم فرنسا لغاية يوليه سنة ١٧٩٤ ويعرف عهدها فى تاريخ فرنسا باسم "عهد الارهاب" . لأن اللجنة لم تتعفف فى سبيل الوصول الى غاية من غاياتها عن سلوك أشد السبل قسوة وأكثرها وحشية واستكثرت من القوانين الاستثنائية التى تمكنها من ارهاب أعداء الجمهورية والتنكيل بهم وجعلهم عبرة لغيرهم حتى لا تزيغ بعد ذلك نفس أو يحيد عن الوفاء للجمهورية قلب .

وتألفت هذه اللجنة من كوتون أحد أصدقاء روبسپير وسان جوست أوفى أصفيائه وستة آخرون كان سابعهم روبسپير نفسه . وعلى الرغم من أن روبسپير هذا فى تلك الفترة (يوليه سنة ١٧٩٣) لم يكن قد بقى له غير سنة واحدة يحياها فى هذا العالم . فانه كان لا يزال بين زعماء الثورة الكثيرين فردا من الأفراد العاديين لم يرتفع بعد الى تلك المنزلة الفذة التى بلغها قبل مقتله ببضعة شهور والتى تخسف ازاء سطوعها منازل غيره من زعماء الثورة اجمعين .

والسبب فى بلوغ روبسبير هذه المنزلة راجع الى أنه بدأ حياته زعيما من زعماء المتطرفين فى الجمعية الوطنية الأولى أيام كانت تضم الجمعية بين أعضائها زعماء الأحزاب المختلفة من ملكيين رجعيين . ودستوريين معتدلين . ويعاقبة متطرفين . فلما انحلت الجمعية الوطنية وجاءت الجمعية التشريعية ضعف فيها حزب الملكيين وعظم بها شأن الحزبين الآخرين . ثم لما انحلت الجمعية التشريعية وجاء المؤتمر الوطنى ضعف حزب المعتدلين . وازداد حزب اليعاقبة قوة على قوته . ثم تطورت الأمور وأسفرت عملية التصفية مرة أخرى عن اندثار الجيرنديين كما اندثر غيرهم وأصبح الأمر للجنة الأمن العام فاذا روبسبير عضو فيها كما كان عضوا فى كثير ممن سبقها من الهيئات والى هذه الحقيقة يرجع السر فى تفرد هذا الزعيم بتلك المنزلة التى تحدثنا عنها فيما سلف إذ بينما كانت الأحزاب الأخرى يتقلص نفوذها شيئا فشيئا وتختفى وراء الأفق رويدا رويدا كان حزب اليعاقبة الذى ينتمى اليه روبسبير يزداد رسوخا وقوة ويشتد ساعده صلابة وفتوة . وبينما كان زعماء الأحزاب الأخرى يتألق نجمهم فى سماء السياسة ساعة ثم يغرب كان نجم هذا الزعيم ثابتا

راسخا لا تزيده الحوادث إلا بريقا وقوة وثبوتا . وعلى هذا الأساس الرصين الذى ظل روبسبير يدعمه أربع سنوات متتاليـة كان من الممكن أن تقام فى سنة واحدة تلك الشهرة الشاهقة التى لا تزال الى اليوم فى فم الناس والتاريخ .

---

*

الفصل الثامن

أعمال لجنة الأمن العام

امتازت لجنة الأمن العام منذ توليها تلك السلطة المطلقة بالبساطة التامة فى تصرفاتها والبعد عن أى تعقيد . فاذا عرض لها مثلا من تشتبه فى أمره . فاقامة الدعوى عليه فى نظرها تعقيد وسماع الشهود فى شأنه تعقيد ومحاكمته واصدار حكم له أو عليه بحيثيات طويلة تعقيد فوق تعقيد . أما خطتها البسيطة التى كانت تجرى عليها فى مثل هذه الظروف فهى أن توجه تهمة (الاشتباه) الى المتهم ثم تحكم عليه بناء على ذلك بالاعدام . فتقطع رأسه الجيلوتين وتفرغ اللجنة من أمره لتنصرف الى ما بين يديها من الأعمال . أو لم تتجاوب الدعوة فى أنحاء البلاد : إن الوطن فى خطر ! ؟

وكان أوّل ما اتجهت اليه همة اللجنة ان شرعت فى تدبير المال اللازم لها فى تنفيذ مشروعاتها ومطاردة أعدائها . فملأت خزائنها بتقرير ضريبة الزامية على الأغنياء . فكان كل من تراوحت ثروته

بين ألف فرنك وعشرة آلاف فرنك يدفع عنها للخزانة العامة ١٠ ٪ أما ما يزيد عن العشرة آلاف فرنك فكانت تأخذه اللجنة بأكمله لمدة عام .

ثم انصرفت الى التجنيد فاتبعت فيه أيضا نفس البساطة . وقررت تعبئة الأمة الفرنسية بأسرها تعبئة عامة " فأما الشبان فيذهبون الى ميدان القتال . وأما الأزواج فيبقون فى المصانع لاعداد الذخيرة وصنع السلاح . وأما الزوجات فيفرغن للخيام ونصبها والجرحى وتطبيبهم وتهيئة الطعام واللباس وأما الصبية فيشتغلون بتحويل الخرق والمزق الى أربطة لتضميد الجروح . وأما الشيوخ فيستقرون فى الأسواق لانهاض الهمم وتغذية النفوس بالغيرة والحماسة[1] " .

تلك كانت عدّة اللجنة لدفع الخطر الخارجى . أما ما أعدّته لدفع ما كان يتهدّدها من الخطر الداخلى فكان قانون الاتهام الذى شرحت لك بساطته فى مستهل الفصل ولقد رأت اللجنة أن تأمن جانب الغلاء والمجاعات فحدّدت أسعار الحاجيات . ثم قررت اعتبار كل تاجر يتخلى عن عمله (مشبوها) ينطبق عليه (قانون الاتهام) . كما

---

(١) Modern Europe. (Lodge.)

أنها جعلت عقوبة من يخزن بضاعته الاعدام . وهكذا أراحت هذه اللجنة نفسها من حيث تعب الفلاسفة والمشرعون ! !

ولعلك لا تعجب اذا عرفت بعد ذلك أن هذه الخطط الحكيمة قد أثمرت ثمرا طيبا اذ لم ينقض شهر يوليه حتى كان ثوار الشمال قد خضعوا لجيش اللجنة الداخلى وتبع أهل الشمال عصاة المغرب سكان بوردو فانهم أخلدوا كذلك الى السكينة والهدوء ثم دخل فى طاعة اللجنة أهل مرسيليا . أما ليون فانها استعصت قليلا فدام حصارها من أغسطس لأكتوبر وانتقمت اللجنة منها على قيامها فى وجهها واقلاق بالها كل هذه المدة الطويلة بأن سلطت عليها المدافع ودمرتها تدميرا . وأقامت على أنقاضها نصبا نقشت عليه آية من آيات حكمتها البالغة وهى :

" ليون حاربت الحرية، فمحيت من الوجود بالكلية " .

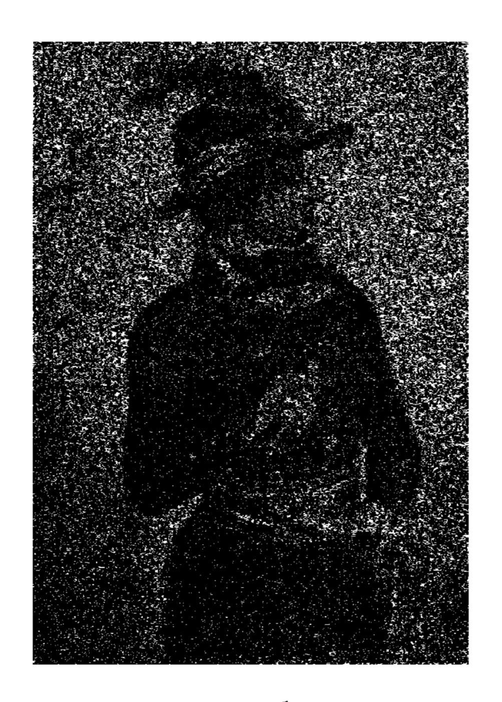
وبلغ من عناية اللجنة بأمر هذه المدينة ان انتدبت عضوا من أعضائها ليذهب اليها ويشرف بنفسه على هدم البلد وقتل أهلها فكان يحصد رؤوسهم حصدا ويلقى بأجسامهم فى نهر الرون قائلا :
" دعوا الجثث تسبح حتى تبلغ طولون لتنذر أهلها بما سينالون" !

وفى الحق أن تولون كانت آخر مدينة من المدن التى بقيت خارجة على الثورة فى جنوب فرنسا وما كانت لترجع الى حظيرتها

مرة أخرى بعد معاونة الانجليز لها لولا أن رمتها الحكومة بضابط مدفعي كورسيكي صغير نابغـة أحكم حصارها فسلمت له صاغرة ولم تغن عنها معاونة الانجليز شيئا . وكان اسم ذلك الضابط الصغير نابليون بونابرت !

وبقيت لا فنـده وحدها في كل فرنسا بعـد تولون تحمل لواء العصيان على الثورة وتأبى أن تخضع لحكومة باريس فلم تر اللجنـة بدا من ابادة أهلها والتخاص منهـم مرّة واحدة ما دامت لا تجد وسيلة أخرى تأمن بها جانبهم .

أما في دفع الخطر الخارجي فان اللجنـة لم تكن أقل توفيقا . والفضل في تسيير الحرب على الحلفاء بهذا النجاح الباهر الذي أحرزه الفرنسيون انما يرجع الى (كارنو) أحد أعضاء لجنة الأمن العام . وكانت الجيوش الفرنسية قبله على ما وصفناها عند ما أطلت عليهم جيوش النمساويين سنة ١٧٩٢ فلما وكل أمرها اليـه أخذ في تنظيمهم وتدريب ضباطهـم وتخـير قوادهم وكانت أقل هفوة تبـدر من أحد الضباط تكفي (للاشتباه) في أمره حيث لا جزاء أقل من الاعدام . فسار (چوردان) أحد القـواد الأحداث الى النمساويين ففرق شملهـم في (Wattignes) واتيني (في أكتوبر سنة ١٧٩٣) ودخل (پشيجرو) أحد زملائه حصون أنفرس عنوة



كارنـــو

فى يوليه سنة ١٧٩٣ وتم استيلاؤه على هولندة فى ديسمبر من نفس السنة . ولم ينقض عام ١٧٩٤ حتى كانت فرنسا صاحبة السيادة فى البلچيك وهولندا ونيس وساقوا وشاطئ الرين الغربى وهى الحدود التى كان يحلم بها لويس الرابع عشر ولا يستطيع تحقيقها .

وكانت بروسيا قد انسحبت جيوشها الى پولندة (سنة ١٧٩٣) فاصطلحت بمقتضى معاهدة (بال) Basle مع فرنسا فى أبريل سنة ١٧٩٥ وكذلك فعلت اسبانيا فلم يبق من التحالف الدولى غير انجلترا والنمسا .

*

الفصل التاسع

عهـــــــد الارهاب

عرفت فى الفصل السابق نفور لجنة الأمن العام من التعقيد فى تصرفاتها وعرفت أنها شرعت قانونا خاصا لتسهيل أعمالها باسم "قانون الاتهام" كان يعـاقب على مجرد الاشتباه والشك . وكان لا بد لمثل هذا القانون من محكمة بسيطة على شاكلته لتقوم بتطبيقه فألقى هذا العبء على عاتق "المحكمة الثورية" فقامت به خير قيام . وكان نظام العمل فيها أن يقدّم اليها المشتبه فى أمره فتتبادل معه كلمة أو كلمتين توجه فيهما التهمة اليـه فينكرها عادة وقلمـا كانت تسمع عنـه دفاعا ثم تحكم عليـه بالاعدام! وعنـد ذلك يأتى دور "الجيلوتين" .

تلك كانت أدوات الإرهاب التى بدأت عملها المشئوم منـذ وليت لجنة الأمن العام حكم فرنسا .

وكانت الملكة لا تزال مع ولديها فى سجن التامبل . على أن هذه النعمة لم تدم عليها طويلا . فصدر قرار اللجنة فى يوليه "بأن



مارى انتوانت فى السجن

*

يفصل ولد كابيه عن أمه" . وحاولت الملكة عبثا أن تدفع رجال البلدية عن سرير ولدها النائم وهى تصيح : "أقتلونى أوّلا" ولكن يد القوّة انتزعته منها غصبا ودفعت به الى إسكاف اسمه (سيمون) كان فى خدمة (التامپل) فى ذلك الوقت ليشب بين يديه على مبادئ الثورة . وفى وسعك أن تقدّر مبلغ الانقلاب الذى وقع لهذا الصبى المسكين اذا عرفت أن سيمون هذا الذى كان يرعاه نقل من خدمته الى عمل آخر فظل الغلام طريحا فى حجرته ستة شهور لم يتغير فيها قميصه وهو الذى رضيت أمه بعـد الجهد فى أيام اقبالها أن تتبع طرق الاقتصاد فى نفقاتها فخفضت حاشـية أخته الصغيرة الى ٨٠ خادما بشق الأنفس .

ثم نقلت الملكة بعـد ذلك الى سجن (الكونسيرجرى) تمهيدا لمحاكمتها وحسبك أن تعلم كذلك أنه لم يسمح لتلك التعسة فى مسكنها الجديد بغير ثوبين باليين متمزقين : أحدهما أسود ، والآخر أبيض لتعرف الى أية هوّة نزلت مارى أنتوانت التى كان نساء فرنسا المتبرجات يحسدن كلابها على ماتخلعه عليها من الحلى والثياب الفاخرة !

وكان خليقا بمن أدبرت عنه الدنيا هذا الإدبار أن يثير الرحمة فى نفوس من حوله . ولكن هذه التعسة لم تكن تصيب ممن حولها إلا الزراية والامتهان ووجدت الصحافة الباريسية فى شخصيتها



ولىّ العهــــد

*

مرعى خصبا دسما تستمدّ منه الوسيلة للذيوع والرواج بمـا تفتن فيه كل يوم من ضروب التشهير بها والقذف فى حقها .

وكان زعماء الثورة كذلك لا يبرحون ينددون بها فى خطاباتهم ويثيرون الرأى العـام عليها ويدعون الى المطالبة بمحاكمتها حتى قرر المؤتمـر أخيرا إحالتها الى محكمة ثورية خاصـة لتمثيل تلك المهزلة القضائيـة التى اعتادوا تمثيلها مع كل من اعتزموا اختطاف روحه والخلاص من وجوده .

وفى الساعة الثامنة من صباح ١٥ أكتوبر سنة ١٧٩٣ بدأت هذه المحاكمة ودامت طول اليوم وبدأ الدفاع مرافعته فى منتصف ليلة ١٦ أكتوبر . وفى الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم بعد جلسـة دامت عشرين ساعة متوالية . صـدر حكم المحكمة بادانة الملكة وإعدامها[1] .

* * *

وسيقت بعد ذلك الى ساحة الاعدام بعد أن شدّ وثاقها وجز شعرها حسبما جرت به العادة مع من يحكم عليها بالاعدام . وكانت الجموع الحافلة الصاخبـة تتلقاها على طول الطريق هاتفة "لتحى الجمهورية !" و"ليسقط الظلم" .

---

(١) قضايا التاريخ الكبرى (للاستاذ عنان) .



مارى انتوانت تساق الى المقصلة

*

وفى ظهر ذلك اليوم كانت جثة الملكة ملقاة فى العراء حيث بقيت نحو أسبوعين لا تجد من يعنى باحتفار حفرة لها فى أرض فرنسا التى عاشت على ظهرها غريبة وأبى الثوار بعد موتها إلا أن تظل غريبة عن بطنها كذلك ! .

وهكذا انتهت تلك الحياة المزدحمة بالكبرياء والطيش ، الحافلة بالمحن والآلام ! والى هذه الخاتمة المرة الذابلة انتهت تلك البداية الحلوة الناضرة ! .

* * *

وكانت التهمة التى وجهت للملكة وحكم عليها بالاعدام من أجلها هى تهمة (التآمر) . وكان يدخل فى معنى (التآمر) عند الثائرين أن ينتسب الانسان الى الأسرة المالكة . فكانت إليزابت (متآمرة) لأنها أخت الملك . وسيقت لذلك الى آلة الاعدام . وكان دوق أورليان نفسه — المواطن مساواة — الذى نشأت الثورة فى حجره ودرجت فى حديقة قصره (متآمرا) كذلك وكان جزاؤه على هذا التآمر الاعدام .

ثم اتسع معنى (التآمر) فأصبح يتناول فوق أعضاء الأسرة المالكة كل من كانت له صلة بالأسرة المالكة . فاعتبر (ماليشرب) (متآمرا) وأعدم ، واعتبر (بايى) أيضا (متآمرا) وأعدم .

وغلا الثوار فى تعقب هذه الصلة حتى بلغوا مدام دى بارى خليلة لويس الخامس عشر فقالوا عنها أنها (متآمرة) كذلك وقدموها للجيلوتين .

ثم توسعوا فى تأويل (التآمر) مرة أخرى فدخل فى دائرته فوق من كانوا يتصلون بالأسرة المالكة كل من لم يكن يظهر بغضه للاسرة المالكة ومن هذا الباب دخل الجيرنديون أفواجا بين يدى (سامسون) جلاد باريس كما دخل غيرهم . وفى الحق أن هذا الباب كان فيه متسع للجميع . ولم تعد بقضاة المحكمة الثورية بعد من حاجة الى الاسترسال فى التأويل والتعليل !

وكثر الاقبال على الجيلوتين فأنشا (سامسون) فروعا له فى جميع ميادين باريس الشهيرة بل أن مندوبيه انبثوا فى الأقاليم مع مندوبى لجنة الأمن العام .

*

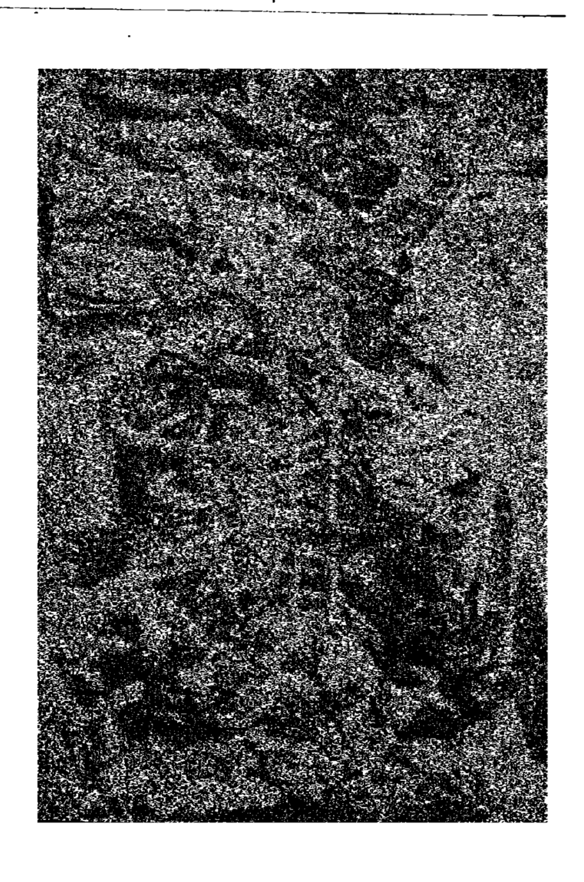
الفصل العاشر

في طريقهم الى الجلوتين

عادت الثورة كالهرّة تأكل بنيها ! ودارت عجلة الدهر الغادر بزعمائها ومفكريها، بروّادها وقوّادها، فهوت بالجميع من حالق . وألقتهم تحت أقدام الجيلوتين ! .

صدر حكم الاعدام على زعماء الجرنديين . ونفذ الحكم فيهم أجمعين إلا واحدا تعجل الموت بأن طعن نفسه عقب صدور الحكم . أما الباقون فانهم قضوا ليلتهم بين الغناء والرقص كأنهم في عرس حتى كان الصباح فركبوا عربة الاعدام وساروا بها الى لقاء (سامسون) وكان الناس على طول الطريق يشيعونهم بقول "فلتحى الجمهورية !" فكان يردد الأبطال هتافهم من العربة صائحين "فلتحى الجمهورية" ومما يؤثر عنهم أنهم تقدّموا الى ساحة الاعدام وهم ينشدون نشيد المرسييز المشهور ! .

وأما "المواطن مساواة" — دوق أورليان الشهير — فقد كان فريدا في يوم مماته كما كان فريدا فيما قبله من الأيام . ذهب الى



الجنديون في طريقهم الى القمة

المقصلة فى أزهى ملابسه وآخذها بالأبصار . وسارت به العربة أمام قصره (الباليه رويال) — فاذا مكتوب على حائطها بألوان العلم الفرنسى هـذه الكلمات "الجمهورية واحدة لا تتجزأ — حرية . مساواة . إخاء — ملك الأمة !".

فلمعت عيناه بومضة من نار، ولكنه ما لبث أن عاد الى هدوئه . وبلغت العربة ساحة الاعدام، فصعد الى سامسون بقدم ثابتـة وتقدّم اليـه الرجل يخلع نعليه . فقال : "لا بأس منهما . سيكون خلعهما أهون بعد الفراغ ! فهيا هيا !".

ثم جاء دور "مدام رولان" زعيمة الجيرنديين وزوج النائب رولان . وركب معها فى طريقها الأخير رجل اسمه (لامارش) وكانت ترهقه من الكآبة فترة فاشتغلت تلك السيدة الكريمة بتسليته والتفريج عن نفسـه ولمـا بلغا جانب المقصلة جلس الزميلان . وطلبت مدام رولان ورقا وقلما لتدوّن "الخواطر الغريبة التى كانت تجيش فى صدرها" فلم يسمح لها حتى بذلك واطلعت فرأت تمثال "الحرية" قائما ازاءها فقالت كلمتها المشهورة "إيه أيتها الحرّية ! كم من الجرائم ترتكب باسمك الكريم ! "[1] .

---

(١) تاريخ الثورة الفرنسية لكارليل .

ثم جاء دور لامارش فتقدمت عليه ليرى كيف أن الموت سهل فيطمئن قلبه ولكن سامسون أبى عليها ذلك بدعوى أنه مخالف للنظام فأصرت قائلة :

"إنكم لن ترفضوا آخر ملتمس نتقدم به اليكم سيدة !" .

فأذعن لها الجبار !

وكان أعز الضحايا من بعد مدام رولان ذلك الشيخ الوقور رئيس الجمعية الوطنية الأولى وأول محافظ لمدينة باريس . أعنى به " بايى " المسكين الذى أرهق شيخوخته بالتفانى فى خدمة الشعب وتوفير سعادته . سيق فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر الى الاعدام تحت رذاذ من الصقيع ووابل من السباب والأوحال التى كان يرميه بها الغوغاء . ولما وقفت به العربة فى ساحة (الشان دى مارس) أبى الشعب إلا أن تنصب له الجيلوتين على كومة القاذورات التى فى جانب النهر فسارت العربة به اليها . وهناك وقف الشيخ المسكين ساعات طويلة فى الزمهرير حتى أتم الجلادون عملهم . ثم صعد الى المقصلة وهو ينتفض فلاحظ أحدهم عليه ذلك فأجابه الشيخ فى رزانة وحلم (Mon Ami ! c'est de Froid) — إنها هزة البرد يا صاحبى !

وأعقب بالي پيتيون و بارناف . وجاء بعد هذين كاستين و بقية القواد الذين لم يوفقوا فى مقاومة الأعداء فسار الى المقصلة هوشار الشجاع و بوهارنيه النبيل (زوج چوزفين التى تزوجها نابليون فيما بعد) ووسترمان البطل[1] . وان منهم جميعا إلا كان واردها !

(١) الجمعيات الوطنية (للاستاذ عبد الرحمن الرافعى) .

*

الفصل الحادى عشر
روح التبـــديل

وبلغت الثورة على القـديم أقصاها . ووصلت بالناس نزعة التغيير الى منتهاها . فألغى التقويم المعروف واعتبر يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٢ وهو اليوم الذى بدأت فيه الجمهورية فاتحة عهد جديد وتاريخا تؤقت به السنين والشهور كما فعل المسلمون بيوم الهجرة . ثم قسمت السنة الى اثنى عشر شهرا متساوية كل شهر منها ثلاثة (أعاشير) بعد أن كان نحو أربعـة (أسابيع) وجعل اليوم الأخير من كل (أعشور) يوم عطلة كما جعلت الخمســة الأيام التى تبـقى فى آخر كل عام أيام عطلة عامة واستتبع هـذا النظام ضياع معالم الأسبوع القديم بآحاده المقدّسة ومواسمه الموروثة . فقام (جوبل) رئيس أساقفة باريس ودعا الناس الى نبذ الديانة المسيحية ولم يزد فى ذلك على المطالبـة بالاعتراف بأمر كان واقعا من قبل . فقــد شغل النـاس منذ زمان عن الكنائس والعبادة والتفكير فيما بعــد الموت بمـا كان يتهددهم من الأخطار التى لم يكن بد من أن تؤدّى بهـم الى الموت . ولاحت لهم بعض الفوائد العملية فى نبذ

الديانة وهدم الكنائس فنبذوها واستولوا على ما فى الكنائس من أوانى الذهب والفضة ونزعوا منها أجراسها بعد أن قدر الخبراء منهم أنها تكفى لصنع ١٥,٠٠٠ مدفع .

وسرت فى القوم هذه الروح فقادهم ذلك الى وضع نظام جديد لمقاييس الطول والوزن والكيل فبنيت كلها على الأساس العشرى الذى انتشر استعماله بعد ذلك فى أنحاء المعمورة .

---

*

الفصل الثانى عشر

التنازع على الزعامة

كان زعماء الارهاب ثلاثة : دانتون . وروبسپير . ومارا . وكان لكل واحد من هؤلاء شيعته وأنصاره . وقد اتفقوا جميعا وعقدوا الخناصر على تخليص الوطن مما كان يتهدده من الأخطار .

فلما زال الخطر باخماد الفتنة فى الداخل وانتصار الجيوش الفرنسية فى الخارج ورسخت بذلك أقدام الجمهورية رأى دانتون أنه لم تعد ثمت حاجة الى المضى فى « الارهاب » . وان ذلك يكون من (اللجنة) خروجا على حدود الواجب الذى أنشئت للقيام به .

وكان روبسپير عضوا فى (اللجنة) التى يتهمها دانتون بالغلو والاسراف ويطعن فيما تتخذه من التحفظات التى يراها هو وأمثاله لازمة لصيانة الجمهورية والاطمئنان على سلامتها فوقع الخلاف بينهما على ذلك .

أما حزب مارا فانه بعـد موت زعيمه أصبح فى يد شومت (Chaumette) وهيبر (Hebert) وأمثالهما من الفوضويين الذين قضوا على المسيحية ونشروا مبادئ الكفر وهدموا كل نظام قديم وكانوا سببا فى تلك الفوضى التى عمت فرنسا فى عهد الارهاب .

وكان شومت يسير (كومون باريس) على حسب هواه هو ووكيله هيبر كما كان روبسپير صاحب الكلمة النافذة فى (لجنة الأمن العام) . أما دانتون فانه كان قد اعتزل الخدمة العامة منذ زمان .

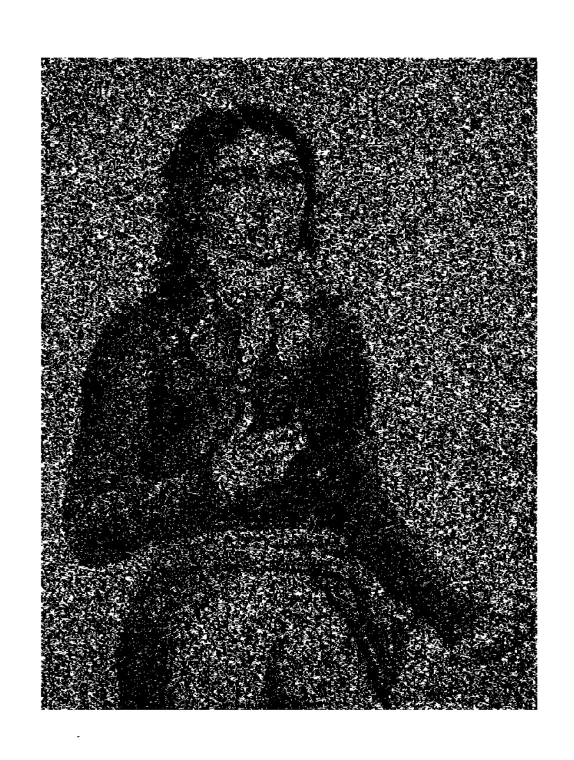
وكان روبسپير متشبعا بتعاليم روسو الدينية وكان يحفظ جيدا قول ڤولتير : " اذا لم يكن الله موجودا فان الضرورة تقضى بايجاده ! " ولذلك كان شديد الحنق على هيبر وأعوانه (الملحدين) . وكذلك كان شديد الأيمان بفضل (الارهاب) فى دفع الأخطار التى كادت تقتل الثورة فلم ترقه دعوة دانتون الى إلقاء السلاح واستبداله بأغصان الغار والزيتون . وعلى ذلك فكر فى التخلص من الحزبين ليحكم فرنسا بنفسه على طريقته المثلى ويقيها شر ما يريده لها (أصدقاؤها الجهلاء) !

وكان المؤتمر قد قرر (١٠ نوفمبر سنة ١٧٩٣) تحت تأثير كومون باريس وزعمائه الاحتفال باعلان الدين الجديد الذى ابتدعه هيبير باسم "عبادة العقل" فى كنيسة "نتردام دى پارى"

فجىء فى ذلك اليوم بامرأة « عاهرة مشهورة » استوت على عرش عال فى صدر الكنيسة لتكون رمز المعبود الجديد وباشر الناس بحضورها مراسم عيدهم . فكان لعملهم هذا من الوقع السيئ فى نفوس الجميع ما مكن روبسپير من مهاجمتهم فى إحدى خطاباته واتهامهم بأنهم لا بد أن يكونوا لأعداء الوطن عمالا وصنائع يعملون على هدم الجمهورية باسم التفانى فى سبيلها ويتقدمون باسم الفلسفة ليثيروا نار الحرب الأهلية فى البلاد . وكانت هذه التهمة كافية لارسالهم الى الجيلوتين فسيقوا اليها جميعا بعد ذلك بقليل .

ولم يكد يفرغ منهم روبسپير حتى حول وجهه نحو دانتون وحزبه لينفذ فيهم بقية قضائه .

وكان (كامى ديمولان) أشد أنصار دانتون ولسان حال حزبه لا يزال يعرض فى مقالاته بالدكتاتورية والاستبداد الثورى ويدعو الى التسامح والعفو والسلام . فما كان من روبسپير إلا أن رد على هذه الحملات بخطبة من خطبه الشهيرة قال فيها :



كامى ديمولان

*

”ويح هؤلاء الناس من معتدلين ومتطرفين ! أنهم يتقدمون الينا تحت ألوية مختلفة ويدخلون علينا من طرق متباينة ! ولكنهم جميعا يسيرون نحو غاية واحدة . وهل من غاية لهم إلا هدم هذه الحكومة الوطنية وتمكين عوامل الخراب من البلاد ؟ لقد كان أحد الحزبين يريد أن يدفعنا الى حدّ التطرف وهذا هو الحزب الآخر يريد أن يقعد بنا مع العاجزين[1] ! “ .

وأحس دانتون بعد ذلك أن عليه أن يقابل روبسپير ليتفاهم معه فزاره فى منزله وجرى بينهما حديث قال فيه دانتون : ” لاشك أنه يجب علينا أن نقضى على الملكيين ولكن لا بد من أن نوجه ضرباتنا الى حيث تستفيد الجمهورية . وأن لا نأخذ البرىء بذنب المسيء ! “ . فأجاب روبسپير : ” ومن ذا الذى يقول بأننا قتلنا بريئا واحدا ؟ “ . فالتفت دانتون باسما الى صاحب له كان معه وقال : ” ما رأيك فى هذا الكلام ؟ إن بريئا واحدا لم يقتل ! ؟ “ .

وكانت هذه الكلمات فصل الخطاب بين الزعيمين .

وفى مساء اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة ١٧٩٤ أحيط بمنزل دانتون ونقل منه الى معقل (الالكسمبرج) حيث لقى

(١) Fr. Rev. (Mignet.)



دانتون

*

أصدقاءه ديمولان ولاكروا و وسترمان وغيرهم فخاطبهم قائلا : " لقد كنت أسعى لخلاصكم أيها الرفاق ولكن هاءنا أساق معكم الى حيث لا يعلم الا الله ! " .

وقدم بعد ذلك دانتون وأصحابه الى محكمة الثورة . فلما سأله الرئيس عن اسمه وعمره ومحل سكنه قال : " انى دانتون رجل الثورة . فى الخامسة والثلاثين من عمرى . ولن يكون لى سكن عما قريب . غير أن اسمى سيظل خالدا فى پانتيون التاريخ " .

وكانت اجاباته واجابات رفاقه تثير خواطر الجماهير فتداركت المحكمة الأمر وأسكتتهم بحجة أنهم لايحترمون الهيئة وقررت الحكم عليهم دون سماع أقوالهم فصاح دانتون :

" اننا نذهب ضحية أطماع طغمة حقيرة ! ولكنهم لن يتمتعوا طويلا بثمرة فوزهم الأثيم ! أنى أجر روبسپير خلفى ! وانه للاحق بى بعد قليل ! " .

ولقد كاد يتسرب الضعف الى قلب هذا البطل عند ما اقترب من المقصلة فانه صاح : " آه يا أحب الناس الى — يا زوجتى !

لن أراك مرة أخرى ! "... ولكنه ما لبث أن تشدد وقال مخاطبا نفسه : " لا تضعف يا دانتون ! " ... وتقـدم الى الجلاد وهو يقول : " اذا أتممت عملك فارفع للشعب رأسى عاليـا فانه جدير بذلك ! " .

وهكذا انجلت معركة الزعماء عن هزيمة حزبى مارا ودانتون وانتصار روبسبير .

الفصل الثالث عشر

روبسـپير

وقضى ربك أن يتحقق ظن الافرنج فى شؤم هذا الرقم (١٣) مرة أخرى فاذا هو يقع هنا رقمـا لروبسپير وعنوانا للنحس الذى لاقته باريس على يديه !

خلا له الجو بعـد أن قضى على منافسيه . وأصبحت فرنسا كلها تدين بطاعتـه وتذعن لإرادته فكان (الكومون) مواليا له كما كان (المؤتمر) لا يقوى على معارضته . أما (اللجنـة) فكان هو سيدها وولى أمرها .

وقد أخذ على نفسه منذ البداية أن يطارد ديانة هيبير من عقول العامة . وأن ينشئ للناس دينا جديدا لا هو نصرانية القسس القديمة ولا هو إلحاد هيبير الحديث ولكنه دين أساسه الإيمان بوجود إله قادر على كل شىء سمـاه هو " الذات العلية "Etre Suprême" ودعا النـاس الى عبادته وأقيمت لذلك حفلة فى اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ كانت فى الحقيقة مناورة دينية يراد بها القضاء

على شعوذة هيبير و إزالة ما يمكن أن يكون قد علق بأذهان العامة من خزعبلاته .

ولكن أسلحة الإرهاب لم تلبث فى يد هذا الطاغية أن زادت مضاء لا سيما بعد أن أحس بروح الحقد والحسد تدب فى نفوس زملائه وتنسم فى حركاتهم وأعمالهم روح التآمر به والتحزب عليه . وكان مما عزز يقينه فى نواياهم أن وقع اعتداء على حياته يوما ما فلما نجا منه اتخذه ذريعة للامعان فى القضاء على خصومه و جمع أزمة السلطة كلها فى قبضة يده .

فقسمت محكمة الثورة الى عدّة دوائر حتى يتضاعف نشاطها وأصبح قانون العقوبات الذى تطبقه مقتصرا على عقوبة واحدة هى عقوبة الاعدام . ولم تعد أدلة الادانة تتجاوز اقتناع المحلفين اقتناعا أدبيا بثبوت التهمة وكان أعضاء المؤتمر لا يمكن تقديمهم للمحاكمة إلا بناء على قرار من (المؤتمر) نفسه فأصبحوا يحاكمون بناء على أمر (اللجنة) .

على أن هذه الاجراءات فى ذاتها كانت باعثا قويا لجمع شتات المعارضة التى أخذت تتألف سرا على روبسبير ونبهتها الى وجوب الاسراع فى العمل وانتهاز الفرصة لهدمه . وحدث بعد ذلك أن قامت عجوز من نساء باريس تدعو الناس الى عبادة روبسبير نفسه



روبسـبير

*

باعتبار أنه مسـيح جديد . فحمل الناس على هذه (القديسة !) حملة منكرة . وبلغ من استياء روبسپير لقيـام تلك العجوز (بتبليغ رسالتها) على كره من (الإله) الذى تشتغل لحسابه مبلغا عظيما جعـله ينسحب من الحيـاة العامة زمانا . فخلا مجال الدس أمام خصومه ووجدوا أن الفرصة التى كانوا يترقبونها قد سنحت أخيرا فنشطوا للقضاء عليه وعبثا حاول سان چوست أن يعدل بروبسپير عن رأيه فى الاعتزال والبعـد عن المجتمعات . وظل الرجل يعتقد أن سحر شخصيته سوف يلقف ما يأفك أعداؤه اذا ما عاد بينهـم . على أنه كان واهما فى هذا الزعم . فان خصومه كانوا جميعا يخشون غدره ويتوقعون انتقامه . وهكذا تهيأت ظروف المعركة الحاسمة التى دخلها كل فريق وهو يعتقـد أنه إما يخرج منها الى الصـدر وإما ينزل فيها الى القبر !

وفى يوم ٢٦ يوليه سنة ١٧٩٤ حضر روبسپير جلسة المؤتمر وألقى فيها خطبة رنانة هاجم فيها خصومه مهاجمة شـديدة . وكان المجلس قبل ذلك يقر كل كلمة يفوه بها ذلك الجبار . ولكنه فى هذه المرة قرر إحالة الخطبـة على إحدى اللجان المختصة للنظر فيما حوته من اتهم !

عند ذلك أحس روبسپير بالضربة الأولى تقع على أم رأسه . وشعر بأن شخصيته تجردت من سحرها وأن كلامه عُرِّى عن قوته وتأثيره . وأن سحابة داكنة لاحت فى جو مستقبله تنذر باقتراب العاصفة . فثار ثائره وأسرع الى نادى اليعاقبة حيث أعوانه وخلصاؤه فألقى عليهم خطبته التى ألقاها فى المؤتمر فقابلوها بالتصفيق والحماسة العظيمـــة .

وفى جلسة المؤتمر التالية (٢٧ يوليه) عاد روبسپير الى المجلس وكانت فكرة إسقاطه قد اختمرت فى أذهان الأعضاء فقام النائب (تاليان) وشبهه بكرمويل وحمـل على سياسته حملة موفقة قوبلت بالتصفيق الشـديد . ونهض بعده النائب (ڤارين) فاتهمه علنا بالاستبداد والعمـل على شل حركة المؤتمر فبهت روبسپير من هذه المفاجأة وخشى ان هو استمر فى صـبره على هذه الأقوال أن تفعل فعلها فى النفوس ويتعـذر عليه بعد ذلك أن يسـتعيد هيبته فقام محتدا وطلب الكلام .

ولكنه لم يكد يظهـر على درجات منـبر الخطابة حتى صاح الأعضاء فى وجهه ” ليسقط الظالم ! ليسقط الطاغية ! “ .

فوجم الرجل لحظة ثم عاد ملحا فى طلب الكلام . غير أن خصومه أصروا على أن لا يمكنوه من ذلك وتهوشوا عليه وترددت

فى جوانب القاعة صيحاتهم : "ليسقط الظالم !" ثم تقدّم أحدهم فى وسط هذه الضجة واقترح القبض عليه فصاح الأعضاء "نعم ! نعم ! إلى السجن إلى السجن !" .

وعاد روبسپير للمرة الأخيرة يحاول الكلام ولكن صوته اختنق وسط السباب والشتائم التى كانت تنهال عليه فتقدّم اليه النائب (جارنيه) قائلا بروح التشفى :

"إن دم دانتون يخنقك[1] !" .

ثم قررت الهيئة القبض عليه فأودع السجن فى نفس الغرفة التى كان يشغلها بأمره دانتون وهيبير من قبله .

(١) الجمعيات الوطنية للاستاذ عبد الرحمن الرافعى .

الفصل الرابع عشر

خاتمة الارهاب

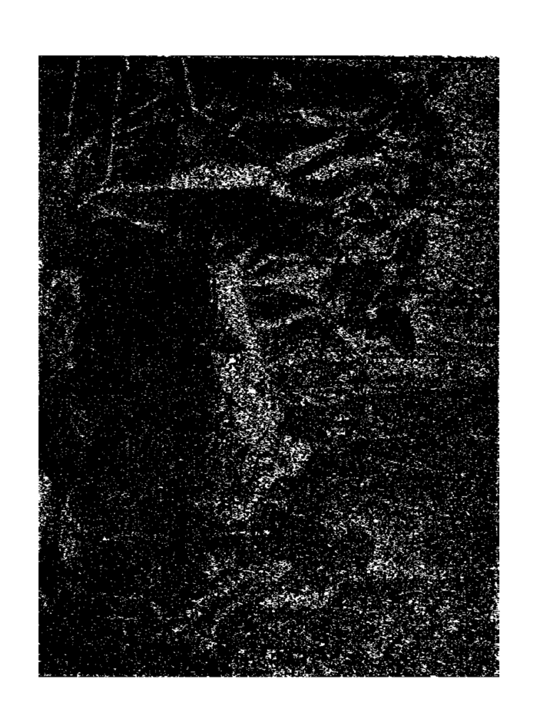
لم يكن روبسبير بطلا . ولا رجلا عظيما !

ولسنا نقول ذلك عنه الآن بعد أن دخل السجن . فنحن نعلم أنه سيخرج منه مرة أخرى ولكنه سيخرج بسعى أنصاره وجهودهم كما كان فى الماضى يتنقل فى مدارج الرقى والعظمة على سواعد أعوانه وشيعته . فكان هؤلاء هم الذين يرفعونه ولم يكن هو يعمل — ويقول بعض عارفيه أنه لم يكن يستطيع أن يعمل — على رفع نفسه ولم يثبت فى حقه يوما أنه دبر خطة وجهها نحو غاية معينة ثم أخذ على نفسه تنفيذها واخراجها الى حيز العمل . وانما وقع له ما وقع من السلطان بحكم خلو الميدان من الزعماء الآخرين الذين سقطوا بعوامل لا دخل لارادته فيها .

فلما انتشر فى باريس خبر سجنه ثار له اليعاقبة وحملوا سلاحهم وذهبوا به الى السجن فأخرجوا منه زعيمهم . ثم ساروا فى منتصف الليل الى دار المؤتمر حيث كان المجلس منعقدا فأظهر الأعضاء من الحكمة ورباطة الجأش ما ضمن لهم الفوز النهائى على أولئك المشاغبين

الأشقياء وقرروا فى رزانة ووقار أن المؤتمر يعتبر روبسپير وأعوانه خارجين على القانون ! فوقع هذا القرار من نفس الثائرين موقعا مهيبا وارتبكوا تحت تأثيره ولم يلبثوا أن انفضوا عن المكان وعادوا الى حيث كان روبسپير مجتمعا بأصفيائه فى (الكومون) فأبلغوهم قرار المؤتمر فاضطرب له روبسپير وأدرك أن الجمهور لا يمكن أن يغامر معه بعد هذا القرار . فحاول الانتحار بأن أطلق على نفسه رصاصة من مسدسه أصابته فى فكه . ولكن تاريخ هذه الساعات لا يزال متناقضا مضطربا لم تنجل حقيقته بعد . فان جنود المؤتمر دخلوا على العصاة فى تلك الساعة للقبض عليهم . فادعى غلام اسمه "مردا" (Merda) أنه هو الذى أطلق الرصاص على روبسپير وتقدم بهذه الدعوى الى المؤتمر فصدقه وكافأه بترقيته الى رتبة ملازم . ويؤكد بعض المؤرخين بأن هذه هى الرواية الصحيحة فى إصابة روبسپير كما يؤكد غيرهم بأن الرواية الأولى أصح .

ومهما يكن من أمر الجريح فان عصابة جمعت فكه المدلى الى بقية رأسه وطرح على مائدة طويلة ووضع تحت رأسه صندوق من خشب الصنوبر وكانت أصابع يده لا تزال متشنجة على قبضة مسدسه ووقف الناس حوله يسبونه ويسخرون منه بين سمعه وبصره ولكنه ينظر اليهم ولا يقوى على شىء !



(ربسبير)

فياعجبا لهذه الأقدار ! لقد ذهب بعض الفلاحين قبيل الثورة الى أحد الأشراف وشكوا له الجوع وانعدام الطعام فنصحهم أن يأكلوا العشب ! فلما قامت الثورة كان نصيب هذا الشريف أن يصلب و يحشى فمه بالعشب !

وهـذا هو روبسبير كان يكاد يملك على النـاس أنفاسهم التى تتردّد فى صـدورهم فأبت الأقدار إلا أن يلقى أمامهم مختـوم الفم مفتوح العينين والأذنين ليذوق مرارة السكوت على أن يسمع الانسان ما يكره و يرى ما لا يحب !

وفى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ٢٨ يوليه سنة ١٧٩٤ كانت عربات الاعدام تجـرى مرة أخرى نحو (ميـدان الثورة) وسط الجموع المتراصة التى لم يسـبق لهـا نظير فى شوارع باريس وكانت تحمل هذه العربات (عصابة روبسبير) ومن بينهم سيمون الأسكاف أستاذ ولى العهد فى التاميل فلما بلغت مستقرها طرح الزعيم الجريح الى جانب المقصلة حتى يأتى دوره . وأخيرا رفعـه سامسون بين ذراعية فتفتحت عيناه لتشهدا نصل المقصـلة الدامى مصلتا فوق رأسـه . وامتدت يد الجلاد الى العصابة التى حول فكه فانتزعتها وانفرج الفكان عن صيحة كريهة وتدلّى فكه الأسفل على صدره مرة أخرى ... ... ثم هوت على رأسه السكين (١) !

(١) (Carlyle.) Fr. Rey.

الفصل الخامس عشر

انتهاء الثورة

قتل روبسپير وارتفع ذلك الكابوس المفزع الذى طحن فرنسا تحت كلكله تلك الشهور الطوال . وأحس الناس بعد موته كأنما أفاقوا من حلم مريع . وأصبحوا يتلهفون جميعا للعودة الى الحياة الأولى . حياة الدعة والسكينة والاطمئنان . وأنساهم مساوئ تلك الحياة ما أصبحوا فيه من الضنك والرعب والارتباك . وتعالت الأصوات من كل ناحية بمطاردة عمال الارهاب والتخلص من نفوذهم . فألغيت محكمة الثورة وأغلقت أندية اليعاقبة وأخليت السجون من كثير من نزلائها . وعاد الناس يتنفسون فى جو من الحرية المنعش ودبت الحياة فى انقاض حزب الجيرنديين وتجمعت فلوله التى بقيت بالمؤتمر وحاولت أن تقبض مرة أخرى على دفة الحكم وتعود بتلك السفينة المرتطمة التى خلفها لها روبسپير الى شاطئ السلام والرخاء والنظام . وانحازت أغلبية المجلس الى الجيرنديين وانتعشت الآمال فى قرب انفراج الأزمة واشتغل المؤتمر بوضع نظام نهائى لحكومة الجمهورية .

ولكن اليعقوبيين لم تكن تروقهم هـذه الحركة بطبيعة الحال فانتشروا يثيرون النـاس من جديد على هيئـة المؤتمر . وساعدهم فى نشر هذه الدعوة ما كانت تعانيه البلاد من الضيق وقلة الأقوات. فكثرت اجتماعات العمال والغوغاء وأخيرا تقـدموا للمؤتمر بطلباتهـم وفى مقدمتها تنفيذ دستور ١٧٩٣ الذى وضع فى عهـد الارهاب وحالت ظروف البلاد فى ذلك الوقت العصيب دون تنفيذه . وكان يمتاز هـذا الدستور بأنه يجعـل الحكم للشـعب مباشرة لأن حق الانتخاب فيـه مقرر لكل من بلغ عمره ٢١ سـنة وكانت السلطة التشريعيـة بمقتضاه فى يد مجلس واحد ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العـام . وكان لا بد لنفاذ القوانين التى يصدرها هـذا المجلس من استفتاء الشعب فيهـا استفتاء عاما . أما السلطة التنفيذية فكانت لا تقل عن السلطة التشريعية استنادا الى مشيئة الشعب .

وغنى عن البيان أن مثل هذا الدستور كان أدعى الى الفوضى منه الى النظام نظرا لأنه يحاول أن يشرك أفراد الأمة كلها فى حكم البلاد . فقرر المؤتمر ادخال بعض التعديل على نصوص هذا الدستور وعينت لجنة للقيام بهذا العمل فثار الجمهور بايعاز اليعاقبة . وهاجم دار المؤتمـر واقتحم أبوابهـا واختلط بالاعضاء وحاول أن يحملهـم بالارهاب على إجابة مطالبه ولكن هيئة المؤتمر ظلت ثابتة واعتصمت

بالحكمة والرزانة حتى تفرق الثائرون وعند ذلك أسرعت الى إصدار قرار بأن حرية مداولات المؤتمر قد اعتدى عليها فى ذلك اليوم وأنه لا بد من اجراء التحقيق لمعرفة زعماء هذه الفتنة وتوقيع العقاب عليهم كما قررت نفى أربعة من زعماء اليعقوبيين من فرنسا . واعلان الأحكام العرفية فى باريس وتعيين الجنرال "بشيجرو" حاكما عسكريا للمدينة حتى يزول خطر الفتنة و يعاقب مدبروها . وهكذا تمكن المؤتمر من ردّ كيد العصاة فى نحورهم .

وانتهت هذه الجلسة التاريخية فى الساعة السادسة من صباح ٢ أبريل بعد أن ظلت سواد الليل منعقدة بلا انقطاع[1] .

ورأى اليعاقبة بعد هذه الهزيمة المنكرة أن المؤتمر أثبت من أن تزعزعه مظاهراتهم ومفاجآتهم فقرروا فيما بينهم أن يرسموا خطة منظمة لمهاجمته واضطرار أعضائه بقوة السلاح الى التسليم بمطالبهم وأهمها الافراج عن زعمائهم واعادة دستور سنة ١٧٩٣ من غير تعديل .

وفى صبيحة اليوم التالى (٢٠ مايو سنة ١٧٩٥) أطبقت جموعهم حول قاعة الاجتماع ثم دخلوها مدججين بالسلاح وأحاطوا برئيس الجمعية ليحملوه على إقرار ما يطلبون ولكنه بقى ثابتا رابط الجأش على الرغم من وقاحة مهاجميه . وأخيرا تقدّم النائب (فيرو)

(١) الجمعيات الوطنية « للرافعى » .

ليصدّ عنه الغوغاء فرماه أحدهم برصاصة قتلته وحمل الثوّار جثته الى الخارج حيث مثل بها الرعاع وقطعوا رأسه ودخلوا به الى القاعة محمولا على رمح طويل . واستمرّت الفوضى نحو ست ساعات تقضت على مثال ساعات الثورة الأولى . ولكن جنود الحكومة تمكنت فى النهاية من إخماد الفتنة وتخليص الأعضاء مما كان يحيط بهم من الأخطار . وقد انتقم المؤتمر لنفسه هذه المرّة انتقاما ذريعا فقرّر القبض على جميع الزعماء اليعاقبة ومحاكمتهم وتجريد كل من يشتبه فى انتمائه الى اليعقوبيين من السلاح . وسيرت حملة عسكرية على معقل الفتنة فى شارع سانت أنتوان لتنفيذ هذا القرار فوقع فى يدها كثير من الزعماء وحكم على كثير منهم بالاعدام وبذلك هدأت الأحوال . وعاد المؤتمر يتناقش فى مشروع الحكومة الجمهورية الجديدة .

فتقرّر أن تتكوّن الهيئة التشريعية من مجلسين : يتألف أحدهما من ٥٠٠ عضو ويسمى مجلس الخمسمائة ، ويتألف الآخر من ٢٥٠ عضوا لا يقل عمر أحدهم عن ٤٠ سنة ويسمى مجلس الشيوخ . وقد جعل لمجلس الخمسمائة وحده الحق فى تقديم مشروعات القوانين والمناقشة فيها على أن تعرض بعد ذلك على مجلس الشيوخ ليقرّها أو يرفضها . أما السلطة التنفيذية فقد وضعت فى يد مجلس يتألف

من خمسة مديرين يتعاون فى انتخابهم مجلس الخمسمائة ومجلس الشيوخ . ويسقط كل سنة واحد منهم بالاقتراع .

وقد رأى المؤتمر أن يزيد على قواعد هذا الدستور قاعدة أخرى اشترط فيها أن ينتخب ثلثا الهيئة الجديدة من بين أعضائه وينتخب الثلث الباقى فقط من الخارج . وذلك ليضمن توفر الأغلبية التى تسير بالحكومة على خطته وليأمن جانب الدخلاء وسوء تصرفهم فى إدارة شئون البلاد . فكان هذا القرار كفيلا باحداث ثورة عاقة من الملكيين واليعقوبيين . ولكن المؤتمر كان قد استعد للطوارئ . فسلم قيادة الجيش الداخلى الى (بارا) الذى ألقى عبء صيانة المؤتمر على عاتق ضابط من ضباطه الأكفاء وهو نابليون بونابرت الكورسيكى الذى ميز نفسه فى حصار تولون فما كان من نابليون هذا إلا أن نصب مدافعه حول المجلس وصوب أفواهها نحو كافة الطرق التى تؤدى اليه . فلما أقبل الثوار كعادتهم صائحين صاخبين طلب إليهم باسم الحكومة أن يعودوا من حيث أتوا وإلا أطلق عليهم مدافعه . فسخروا منه ولم يستمعوا له وأعرضوا عن مقالته وحسبوه هازلا فيما ادعاه . فأرسل عليهم ناره وأمطرهم وابلا

من قذائفه فأهلك كثيرا منهم وفر الباقون بعد أن تحققوا جدّ نابليون وأنهم كانوا هم الهازلين !

وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ انحل المؤتمر الوطنى وانعقدت هيئة حكومة (الادارة) الجديدة فى اليوم التالى .



نابليون بونابرت

*

الباب الثامن

الديركتوار (حكومة الادارة)

أكتوبر سنة ١٧٩٥ — نوفمبر سنة ١٧٩٩

الفصل الأول

الادارة وفرنسا

اجتمع مجلسا (الادارة) فى ٢٧ اكتوبر سنة ١٧٩٥ بعد أن انحل المؤتمر واشتغل مجلس الشيوخ بانتخاب المديرين الخمسة. فلما تم ذلك وكملت هيئة هذه الحكومة الجديدة رأى المديرون انهم على رأس حكومة بجحر الضب أو هى أخرب. إذ لم يكن بالقاعة التى أعدت لانعقادهم مكتب يجلسون حوله ولا ورق يكتبون عليه. وكانت الخزائن خاوية والجيش معطل الأجور. والأمة بأسرها تشكو قلة الطعام. وكاد اليأس يمتلك قلوبهم عند ذلك لولا أن الأحزاب السياسية كانت قد سئمت النزاع فأغلقت الأندية ورجع

الثائرون الى حقولهم ومصانعهم . وعادت السكينة الى البلاد وانتظمت الحالة فى داخليتها نوعا ما .

وكان استقرار الحكومة على هذا النحو خليقا بأن يمكنها من مهادنة أعدائها وعقد صلح شامل معهم جميعا لولا أن معاهدة (بازل Basl) — أبريل سنة ١٧٩٥ — التى انسحبت بعدها بروسيا من التحالف الدولى الأول كانت سببا فى أن تجدد انجلترا عهدها مع النمسا على العمل بمفردهما لمقاومة الثورة واسترداد ما استولى عليه رجالها فى هولنده وغيرها . ولم يكن لفرنسا من القوة البحرية ما يمكنها من مواجهة انجلترا فحولت جهودها الى النمسا . ورسم كارنو (Carnot) خطته لمهاجمتها بتوجيه ثلاثة جيوش اليها سار أولها عن طريق (الماين) تحت قيادة جوردان (Jourdan) وسلك ثانيها طريق الطونة تحت قيادة مورو (Moureau) وولى نابليون قيادة ثالثها ليقوم ببعض مناوشات فى إيطاليا تكون سببا فى توزيع جيوش النمساويين بين ألمانيا وإيطاليا . حتى يتسنى للجيشين الرئيسيين الانتصار على الأرشيدوق شارل قائد الجيوش النمساوية فى ألمانيا . ولكن أبت نفس ذلك الضابط الفتى إلا أن يكون بطل هذه الحرب وفارس ميدانها . فلم تلتحم فرقته بجيوش أعدائه حتى بهر أبصار أوروبا بكراته وانتصاراته .

الفصل الثانى

نشأة نابليون — حياته الأولى

كانت أمه ليتيشيا رامولينا سيدة كورسيكية من الطبقة الوسطى وكان أبوه شارل بونابرت من سلالة أسرة شريفة نشأت فى (تسكانى) (Tuscany) بايطاليا . ولكنها أصابها الفقر وأخنى عليها الدهر فهاجرت الى كورسيكا وهناك ولد نابليون فى مدينـــة (أجاكسيو) فى الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٦٩ ولم يكد يبلغ العاشرة من عمره حتى أدخله أبوه مدرسة (برين) الحربية فى فرنسا حيث قضى خمس سنوات ونصف كان فى غضونها يقدم اسمه فى تقرير المدرســة الى الملك لامتيازه فى دروس الرياضة وسعة اطلاعه على التاريخ والجغرافيا . وفى سنة ١٧٨٤ غادر برين ودخل مدرسة باريس الحربية ونال بعد سنة فيها رتبة ملازم ثان فى المدفعية الفرنسية .

حيـــاته العمليـــــة

وانصرف فى ذلك العهد الى الشئون الكورسيكية بكليته وكان شديد الكراهة لفرنسا نظراً لأن بلاده (كورسيكا) كانت إذ ذاك تابعة لجنوا فقام فيها حزب يسعى لتحقيق استقلالها . وكادت تتوج

جهوده بالنجاح لولا أن تقدّمت فرنسا لشراء هـذه الجزيرة بمالها فأسرعت جنوا الى بيعها وتسليمها . وبذلك اعترضت فرنسا طريق أبنائها المجاهدين وقضت على آمالهم الوطنية .

على أن نابليون انضم الى جانب الشـعب فى الثورة الفرنسـية عند قيامها ثم اعتزل مركزه فيها وعاد الى كورسيكا طمعا فى أن يكون قائدا لاحدى فرق الحرس الوطنى فى أجاكسيوا . فلما لم يفلح عاد الى فرنسا مرة أخرى مع أسرته وفى سنة ١٧٩٣ كان قائد المدفعية فى حصار تولون ورفع بسبب فوزه فى هذا الميدان فوق مرتبته . وفى سـنة ١٧٩٤ انتدبته لجنة الأمن العام لقضاء مهمة سياسية فى جنوا وسقط بعد ذلك روبسپير . وكان نابليون ممن أوقفوا وسجنوا فى خلال تلك العاصفة . ولم يفرج عنه إلا "لاحتمال نفعه" فى المسـتقبل . وآستعان به بعـد ذلك (بارا Barras) لحمـاية المؤتمر من الثائرين كما أسلفنا . ولم يمض على ذلك قليل حتى عين فى ٩ مارس سنة ١٧٩٥ قائدا عاما لجيش ايطاليا الذى أعدّ لغزوها وهو لم يبلغ من العمر إلا خمسا وعشرين سنة .

وفى مساء ذلك اليوم التـاريخى تزوّج بجوزفين بوهارنيه خليلة بارا وأرملة أحد أشراف فرنسا الذين ذهبوا ضحيـة مقصلة الثورة الفرنسية .

الفصل الثالث

الحملة الايطالية

لما وكل أمر هذه الحملة الى نابليون رأى أن يجعل قاعدته الحربية بين مدينتي نيس وجنوه على ساحل البحر الأبيض المتوسط ثم يزحف من هناك على سهول ايطاليا الشمالية ولكن جيوش النمسا وحليفتها سردينيا كانت منتشرة على الجبال التى توازى الساحل شمالا لتسد الطريق أمامه ولتمنعه من الزحف على تلك السهول .

ولم تكن تزيد قوة نابليون على ٤٠ ألفا من الشبان الفرنسيين حديثى العهد بالجندية والذين لا خير فيهم إلا أنهم كانوا شبانا أقوياء امتلأت قلوبهم حماسة ونشاطا . وهم فيما عدا ذلك ضائعون بين ملابس رثة ممزقة وأطعمة رديئة قليلة ومرتبات معطلة ضئيلة . ولم يكن فى خيول هذه الحملة كلها أكثر من مائة حصان تصلح للعمل . فكان فى تولية شاب حديث السنّ مثل نابليون على حملة مضعضعة مثل هذه الحملة ضرب من ضروب التفكه فى مراعاة النظير . وظن كثير من الناس أنه من خرق رأى الحكومة أن تقوم بمثل هذه الأعمال .

أما نابليون فان زيارته لتلك البلاد سنة ١٧٩٤ أعانته على القيام بواجبه خير قيام . كما أنه اتخذ ما كانت عليه فرقته من سوء الحال وسيلة لاحراز النصر حيث أطمع رجاله فى وفرة الغنائم التى يطرحها النصر تحت أقدامهم وإليك أوّل خطاب وجهه الى جنده حين أشرف على سهول لمباردى :

”أيها الجند : إنكم والله لجياع عراة . وان الحكومة لمدينة لكم ولكنها لا تستطيع أن ترفع عنكم سوء حالكم . وأن صبركم على ذلك وتجلدكم لن يجديا كم غير الشرف . فلا كسب فيهما ولا نفع . وهاءنا أقودكم الى أخصب سهول العالم حيث المدن العظيمة والغنى الوفير بل حيث تجدون الشرف والعزة ولذات الحياة . فياجنود جيش ايطاليا . أو تنقصكم فى ذلك الشجاعة ؟ ! “ .

فقابل الجند هذا الخطاب بالهتاف وانسابوا من خلف قائدهم على النمساويين وكان أهل سردينيا فى حلف معهم كما أسلفنا ورأى نابليون أنه لا يقوى على مواجهة الخصمين متحدين فعمل على مقابلة كل منهما بمفرده . فأنزل ضرباته الأولى على قلب الجيش النمسوى حتى صدعه . ثم أسرع الى السردانيين فتعقبهم حتى كاد يبلغ حاضرة بلادهم (تورين) فبادروا بمهادنته ونزلوا له عن المعاقل العظيمة التى تعتبر مفتاح إيطاليا من هذه الناحية .

وكان فى عزم نابليون بعد فراغه من ايطاليا أن ينضم الى جيشى جوردان ومورو لمهاجمة النمسا فى الشمال . ولكنه علم أن النفوذ كان للارشدوق شارل عليهما حيث ردّهما الى ما وراء الرين . وبذلك استطاعت النمسا أن تبعث بنجداتها الى مدينة ما نتوا التى كان يحاصرها نابليون فى سهل (البو Po) فأخذ عدّته للقاء هذه النجدات وشتتها واحدة بعد واحدة وانتهى الحال بحامية ما نتوا أن فتحت له أبوابها فى فبراير سنة ١٧٩٧

ولما لم يبق أمام بونابرت مجال للقتال فى ايطاليا رقى بفرقته جبال الألب . وانحدر منها الى سهول النمسا الجنوبية . فارتد اليه الأرشدوق شارل والتحم معه فى عدّة معارك متتابعة كان النصر فيها جميعا لنابليون وما زالت تتقدّم جنوده حتى بلغ مدينة ليوبن (Leoben) وهى تبعد عن ڤينا ٨٠ ميلا فقط فتقدّمت اليه رسل النمسا فى طلب الهدنة . وعقدت بعد ذلك معاهدة كامپو فورميو (Campo Formeo) التى تقرر فيها أن تنزل النمسا لفرنسا عن البلجيك وولايات غرب الرين فى نظير أن تستولى هى على البندقية . وبلغت قيمة الأموال التى أرسلها نابليون الى حكومة الادارة خلال هذه الحملة خمسين مليونا من الفرنكات .

ولقد كانت هذه الحرب فاتحة عهد جديد فى تاريخ فرنسا فان الفرنسيين كانوا قبلها يحاربون فى طلب الحرية أو لنصرتها . فاذا هم فى هـذه يقضون عليها وينهبون أهلها ودعاتها غنيمة لغيرهم كما فعلوا بجمهورية البندقية — تلك الجمهورية التى لقبها الناس بحق "عروس الأدرياتيك" والتى كانت لها السيادة فى بحر الروم سنين عددا . على أن ناپليون لم يكتف منها بذلك . بل سلبها مآثرها وحمل منها الى فرنسا تحفها وطرفها وكان هذا دأبه بعد ذلك فى كافة غزواته . وهى هفوة منه جعلت فرنسا بغيضة الى كل الشعوب ونفرت منه الناس وجمعت حوله حزازات القلوب .

*

الفصل الرابع

الحملة المصرية

غادر نابليون فرنسا فى بدء الحملة الايطالية ضابطا نكرة لا يعرفه إلا أفراد قلائل من رجال الجندية ورجال الحكومة الفرنسية . ولكنه عاد اليها بعد انتصاراته الباهرة علما مشهورا لا يتحدث الناس إلا بما صنع ولا يتطلعون إلا حيث طلع . والتف حوله الشعب وخشى المديرون على نفوذهم أن يخسف أمام هذه الشخصية الساطعة فودّوا لو تخلصوا منه وأبعدوه عن فرنسا .

ورأى نابليون بدوره أن الحرب هى التى رفعته الى هذه المنزلة السامية . وأن الحرب هى التى تحتفظ له بها . فأطال التفكير فى التماسها . وجد فى البحث عن ميدان جديد يتسع المجال فيه لمواهبه وما كان يملأ صدره من الآمال .

وكانت انجلترا لا تزال على عدائها لفرنسا بعد أن انحل التحالف الأوّل وانسحبت الدول التى اشتركت فيه واحدة واحدة فعوّل نابليون على نزالها ولكنه رأى أن يحاربها فى مستعمراتها الشرقية وأن يبدأ بغزو مصر ليجعلها قاعدة حربية له يسير منها جيوشه إلى ولايات

الهنـد . ورأت الحكومة أن هـذا يحقق فكرتها فى إبعاد نابليون عن فرنسا فاستحسنت هـذا الرأى وبذلك اتفقت الآراء جميعها على القيام بهـذه الغزوة وأعدّت معدّاتها . ووكل أمر تنفيـذها إلى ناپليون .

وفى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ خرج ناپليون من ثغر طولون بجيشه ومراكبه سرا . لأن انجلترا بعد أن وقفت على نواياه أرصدت له "نلسون" أميرال البحر الانجليزى ليحول دون وصوله إلى مصر . ولكن زوبعة قامت فى ذلك اليوم اضطرت نلسون إلى العدول نحو الشاطئ قليلا . فانسابت مراكب ناپليون فى عرض البحر وبلغت " مالطا " ثم انتهت إلى الاسكندرية فى أوّل يوليه سـنة ١٨٩٨ حيث أعلن ناپليون احترامه للاسلام والمسلمين وأنه إنمـا أتى من قبل السطان لطرد المماليك ونصرة المصريين عليهم . فلم يلق مقاومة من الشعب . وكل ما أبداه المـماليك من المقاومة أن زعيمهم مراد بك حاول لقاءه فى شبراخيت كما حاول صدّه فى إمبابة نخاب اولا وثانيا . ودخل ناپليون القاهرة فى ٢٤ يوليه حيث جاءه نبأ (موقعة النيل) التى حطم فيها نلسون مراكبه عند "أبى قير" .

ولمـا رأى نابليون أنه انقطع بذلك عن فرنسا وجه جيوشـه إلى الشام لتعويض هذه الخسارة فاستولى على العريش وغزا ويافا

ثم حاصر عكا حصارا طويلا تكبد فيه خسائر فادحة واضطر في آخر الأمر إلى رفع الحصار .

ولقد بلغه فى ذلك الحين من أخبار فرنسا وارتباك حكومة الادارة وقيام الدول بتحالف ثان عليها ما جعله يفكر فى العودة اليها لا سيما بعد أن فشلت الحملة المصرية وضاع كل ما كان قد علق عليها من الآمال[1] .

غير أنه لم تكد تطأ قدماه أرض مصر حتى علم بوصول حملة عثمانية إلى أبى قير . فسار اليها من فوره و ردها على أعقابها ثم عهد الأمر فى الديار المصرية الى الجنرال كليبر أحد قواده . وسافر سرا فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس الى الاسكندرية . واستقل من هناك زورقا صغيرا حمله هو و جماعة ممن معه الى فرنسا فوصلها فى أكتوبر سنة ١٨٩٩

(١) كان نابليون يعجب بتاريخ الاسكندر المقدونى وكان يحلم بانشاء امبراطورية فى الشرق تضارع امبراطوريته .

*

الفصل الخامس

انقـــلاب برومـيـــر (١)

بينما كان نابليون يقوم بغزواته فى مصر وسوريا كانت الادارة تريد أن تثبت أن فى فرنسا غير نابليون قوادا أكفاء وساسة عظماء ينشرون نفوذها و يعلون كلمتها . فسيرت جيشا الى روما قلب حكومتها البابوية الى جمهورية بعد أن قبض على البابا نفسه وهو اذ ذاك فى الثمانين من عمره وأرسله الى فرنسا أسيرا حيث قضى نحبه سنة ١٧٩٩ م .

وكانت سويسرا بحكم متاخمتها لفرنسا قد تأثرت بمبادئ الثورة وقام أهلها بفتنة ضـد حكومتهم يسعون الى قلبهـا واقامة حكومة جمهورية فيها كحكومة فرنسا . فانتهزت الادارة هذه الفرصة واحتلت البـلاد السويسرية وقلبت نظامها الاتحادى الى نظام جمهورى . وكانت كذلك قد اتسعت إطماعها فى ايطاليا فاستولت على پيدمنت وتسكانيا ونابولى وحملت جنوا على اعلان الجمهورية .

(١) برومير اسم الشهر الذى يوافق شهر نوفبر فى التقويم الذى وضعه رجال الثورة .

ولكنها عجزت بعد ذلك عن الاحتفاظ بنفوذها فى هذه الدائرة الواسعة فما كادت الدول تحس ذلك منها حتى تألف ضدّها تحالف جديد دعت اليه انجلترا بقية أوروبا فاشتركت فيه :

(١) النمسا حبا فى أن تستعيد نفوذها فى ايطاليا .

(٢) وتركيا التى ضاعت مصر من يدها .

(٣) وروسيا التى لم يرقها تدخل فرنسا فى الشرق .

وتقدّمت جيوش المتحالفين ضدّ فرنسا فى كل مكان وألحقت بالجيوش الفرنسية خسائر فادحة كانت هى السبب فى اضطراب الادارة وتزعزع مركزها . والاسراع فى عودة نابليون من الشرق. وكان الرأى السائد بين الفرنسيين اذ ذاك أن نظام الادارة لا يتفق مع سياسة التوسع الذى تريده فرنسا لأن تشعب السلطة فى أيد كثيرة من شانه أن يربك الأمور لا سيما فى أوقات الحروب . ولذلك اتجهت الأنظار الى قلب هذا النظام .

وقام فعلا (الأبى سيايس Abbé Sieyes) أحد المديرين الخمسة بوضع مشروع جديد لحكومة فرنسا جعل السلطة التنفيذية فيه بيد قنصلين : أحدهما للسلم ، والآخر للحرب ، ومن فوقهما رئيس صورى لتمثيل البلاد تمثيلا سياسيا على أن يكون له حق عزل القنصلين الآخرين . أما هو فيكون أمر عزله فى يد مجلس

الشيوخ . ووزع السلطة التشريعية بين عدّة مجالس حتى لا تستأثر بها هيئة خاصة . فخصص مجلسا لوضع مشروعات القوانين وآخر لمناقشتها ودرسها . وثالثا للاقتراع على قبولها أو رفضها ثم جعل من وراء كل هؤلاء مجلسا للشيوخ يحتفظ أعضاؤه بكراسيهم مدى الحياة ليكونوا قوامين على هـذا الدستور وليكون فى بقائهم ضمان لبقـائه .

فلما وصل نابليون من مصر ورأى أن الفرصة متهيئة لاحداث الانقلاب الذى كان يمنى نفسه به ركز عزمه على أن يكون صاحب الشأن الأول فى نظام الحكم الجـديد . وكان طبيعيا أن يضع يده فى يد (سيايس) أقدر المشرعين الدستوريين فى فرنسا فى ذلك الوقت . فتم الاتفاق بينهما على قلب نظام الحكومة الحاضرة أولا . حتى ينفسح الطريق بعد ذلك لتنفيذ المشروع الذى وضعه سيايس .

وفى الثـامن عشر من برومير (٩ نوفمبر) بدأ سيايس بتقديم استقالته من عضوية الديركتوار وتبعه فى ذلك زميله ديكو (Ducos) وحُـمل بارا على الاستقالة كذلك . فسقطت الهيئة كلها . ودعى المجلسان الى الاجتماع والنظر فى معالجة الحالة ولكن ألقى فى روع مجلس النوّاب أن مؤامرة تدبر لأعضائه فى باريس فأغرى بذلك على قبول الانتقال مع مجلس الشـيوخ الى ضاحية سان كلو

(St. Cloud) وكان المقصود باخراجه من باريس فى الحقيقة أن يكون بعيدا عن حماية الشعب الباريسى وأن يقع مباشرة تحت تأثير الارهاب الذى قصده به نابليون حتى لا يعارض فى إحداث الانقلاب .

وسار نابليون بنفسه الى سان كلو فى كوكبة من جنوده المخلصين حتى دخل مجلس الشيوخ وهناك ألقى خطابا قال فيه ان نظام الحكومة الحالية أصبح عديم الفائدة وأنه ترك فرنسا زاهرة زاهية ولكنه وجدها عند عودته اليها ذابلة ذاوية وأن جنودها فشلوا فى جميع الميادين وأصابهم الخذلان وأنه هو وحده الذى صادفه التوفيق ولاحظته العناية . ثم دعا الى ضرورة تغيير نظام الحكومة .

وكان من المستمعين لهذا الخطاب بعض أعضاء مجلس الخمسمائة فحملوا فحواه الى زملائهم فى مجلس النواب وما كاد يدخل عليهم نابليون بعد ذلك حتى صاحوا فى وجهه :

« كروموِيل ! فليسقط المستبدون ! »

اشارة الى أنه يريد أن يفعل بهم كما فعل كروموِيل بالانجليز . ثم أوسعوه لعنا وسبا وأخذوا بخناقه ودفعوه الى خارج المجلس . فاحتمله أعوانه وخرجوا به من القاعة فاقد الصواب وكاد يدركه

وأنصاره الفشل لولا أن أمر أخوه اوسيان بونابرت (وهو إذ ذاك رئيس المجلس) باخلاء قاعة الاجتماع فدخل الجنود بسلاحهم وهجموا على النواب ففر هؤلاء أمامهم من الأبواب والنوافذ أيضا فى حالة ذعر وفزع شديد .

وفى مساء ذلك اليوم المشهود عاد من النواب خمسون عضوا من الموالين لحركة الانقلاب واشتركوا مع مجلس الشيوخ فى إصدار قرار بتشكيل حكومة مؤقتة من نابليون وسيايس وديكو لادارة شئون البلاد ريثما يتم وضع دستور جديد عهد تحضيره الى لجنة من المجلسين تعمل تحت إشراف الحكومة المؤقتة .

وعند ذلك تقدم سيايس بمشروعه الذى ظل حتى هذه الساعة سرا مطويا فى صدر صاحبه حتى أن نابليون نفسه لم يكن يعرف شيئا من تفصيلاته . ولكنه ما اطلع عليه ورأى توزيع السلطة فيه على النحو الذى سبق بيانه والذى لا يتحقق معه مقصده حتى قال : " ما أكثر ما أودعه سيايس من الخيالات ! فان به خيالا للسلطة التشريعية وآخر للسلطة القضائية وثالثا كهيئة الحكومة . وانى لأراه فى حاجة إلى شىء من السلطة المادية ! " .

وليس بخاف أين كان يريد نابليون أن يضع هذه السلطة المادية . فانه كان منذ البداية قد عقد النية كما أسلفنا على أن

يكون سيد فرنسا . فتناول المشروع بالتعديل والتبديل حتى أصبحت السلطة التنفيذية فى يد ثلاثة قناصل يتولى أحدهم الرياسة على زميليه ويكون له وحده حق اعلان الحرب وتوقيع المعاهدات وانتخاب الوزراء وكبار الموظفين و رآسة الجيش والإدارة .

أما السلطة التشريعية فأصبحت تتألف من ثلاث هيئات :

(أولاها) مجلس الشيوخ وكان عمله مقصورا على انتخاب أعضاء المجلسين الآخرين والاشراف على تطبيق أحكام الدستور .

(وثانيتها) مجلس التربيون (Tribunat) الذى اختص بدرس مشروعات القوانين والمناقشة فيها .

(وثالثتها) هيئة تشريعية جعل اختصاصها ابداء الرأى فيما يعرضه عليها مجلس التربيون من المشروعات . إما بالقبول وإما بالرفض .

* * *

وقد عرض هذا النظام على الأمة فوافقت عليه أغلبيتها العظمى وانتخب نابليون قنصلا أولا لمدة عشر سنوات . وعرض على سيايس أن يكون أحد القنصلين الثانيين ولكنه رفض أن يشغل مركزا صوريا لاسلطة لصاحبه ولم يقصد به نابليون إلا ذر الرماد فى العيون حتى لايتهم بأنه يعمل بمفرده . فعرضت عليه عند ذلك رياسة مجلس الشيوخ .

* * *

وهكذا عادت الحكومة فى فرنسا سيرتها الأولى . وانتهت مقاليد الحكم فيها الى رجل واحد . وانقشع غبار الثورة ومعاركها الدموية عن قصر التويلرى يسكنه نابليون وچوزفين بعد أن كان يسكنه لويس وماريتـه . وانهزمت أمام القنصل الأوّل وسلطته المطلقة مبادئ الحرية والأخاء والمساواة وامتلأت مناصب الحكومة بشيعته وأنصاره .

وأصبح النقد المباح جرما لا يغتفر فى حكومة نابليون الجديدة من أجله ينفى من فرنسا أمثال مدام دى ستايل (Mme de Stael) الصحفية القديرة التى جعلت دأبها مهاجمة استبداده والحملة عليه وعلى أعوانه .

ولم يعد يسمع من صوت فى فرنسا إلا ما كان صدى لارائه وأفكاره .

وأصبحت سياسة الدولة فى الداخل والخارج لا ترسم وفقا لما يحسه الشعب أو تتطلبه المصلحة العامة . ولكن لتكون أداة لتحقيق إطماع القنصل الأوّل وتأويل أحلامه .

* * *

خاتمة

على أن الحوادث التى مكنت لنابليون فى فرنسا بجعلته على رأس حكومتها أوّلا ثم أمبراطورا عليها فيما بعد لم تلبث أن تطوّرت فأسلمته هو وأمبراطوريته الى الفناء . وأعادت فرنسا من جديد الى أسرة (بوربون) .

فرجع لويس الثامن عشر ملكا عليها كما كان أجداده من قبل . وورثها من بعد موته (سنة ١٨٢٤) أخاه شارل العاشر الذى كان استبداده برعيته وخروجه عن الحدّ فى عدم الاكتراث بها سببا فى ثورة جديدة تعرف (بثورة سنة ١٨٣٠) أو ثورة (الأيام الثلاثة).

وجاء من بعد شارل هذا لويس فيليب بن (فيليب المساواة)، (Philippe Égalité) وأقام فى فرنسا حكومة ديمقراطية كانت جمهورية المعنى ملكية الاسم غير أنها لم تعمر طويلا . وقامت ثورة أخرى فى سنة ١٨٤٨ بسبب انحراف لويس فيليب عن مبادئه الديموقراطية الأولى وبذلك دخلت فرنسا فى عهدها الجمهورى الثانى وبقيت كذلك تحت رياسة لويس نابليون الى أن سوّلت له نفسه السير على منوال خاله نابليون الأوّل فقلب

الجمهورية الى امبراطورية ووضع على رأسه تاجها باسم (نابليون الثـالث) .

غير أن عهد هـذه الامبراطورية الثانية كان أكثر شؤما على فرنسا من عهد الامبراطورية الأولى فان البلاد ما زالت تخرج من حرب لتدخل فى أخرى حتى تورطت فى الحرب السبعينية التى انتهت سـنة ١٨٧١ بهزيمـة فرنسا وخلع نابليون واقامة الجمهورية الثالثة التى بقيت فى فرنسا الى اليوم .

* * *

وخليق بنا قبل أن نختتم هذه الرسالة أن نقف قليلا لنتساءل عما إذا كانت الثورة الفرنسية قد حققت غاياتها — ولا مندوحة لنا عند الاجابة على هذا السؤال من التذكير بأن الثورة قامت فى وجه حكومة مستبدّة ونظام اجتماعى فاسد . فأما الحكومة المستبدّة فقـد صارعتها الثورة حتى صرعتهـا ولكن الأمة الفرنسـية عانت فى هذا السبيل أشق الأهوال . فانها ما زالت تقيم الحكومة بعـد الحكومة حتى عرفت بالتجارب أن الفرد لا يمكن أن يكون موضـعا للثقـة وأن الأثرة لا تزال تجنح بأطهر النفوس وأشـدّها إخلاصـا حتى تميـل بها الى الاستبداد وان أليق النظم ما كانت الرياسة فيـه لأجل قصير لا تفرخ فيه الأطماع ولا تطير . فلجأت

الى نظام الحكم الجمهـورى حيث تتولى الأمـة جميع السـلطات وجعلت انتخاب رئيس الجمهورية لمدّة سبع سنوات فقط ولكنها حظرت أن ينتخب للرياسة أحد أفراد الأسرات التى توالت الملك فى فرنسـا . وبذلك عالجت أوّل أدوائها وأصبحت آمنة من هذه الناحية مادامت مستمسكة بهذا النظام .

وأما فساد المجتمع ونظام الطبقات فقد سبق الفصل فيه منذ المعركة الأولى حيث قررت الجمعية الوطنية انقضاء عهد الاقطاع . وقام العـامة فى الأقاليم بتطهير فرنسا تطهيرا عمليـا من أشرافها وأصحاب الامتياز فيهـا . و بنزع ملكية قطائعهم الواسعة وتمليكها للأمة لاستغلالها والانتفاع بما كان محبوسا عنهم من ثمراتها .

وخلاصة القول ان الثورة كانت نتائجها خطيرة عظيمة بقدر ما كانت ضحاياها كثيرة أليمة . ومما لا شك فيه أنها شقت بجهودها الداميــة طريقا طويلا قرب كثيرا بين الانسان ومثله الأعلى فى بعض النظم الاجتماعية والحكومية .

انظر الى المجتمع الفرنسى كيف كان قبل الثورة مو بوءا بطائفة من النظم العتيقــة الفاسدة . كنظام السخرة . ونظام الاحتكار . ونظام الامتيازات . والتفريق بين الطبقات . ثم انظر اليه بعـد الثورة كيف أصبح بريئا من شوائب هذا التأخر وكيف أقام أنظمته

الحديثة على مبادئ الحرية والاخاء والمساواة . وجعل قاعدة دستوره أن النـاس يولدون و يعيشون أحرارا وأنهم متساوون فى ما لهم من الحقوق وما عليهم من التكاليف . وأنه لا فضل لرجل على رجل آخر إلا بما تميزه به كفاءته .

وتأمل فى حكومة فرنسا قبل الثورة كيف كانت أداة لتحقيق الاطماع الشخصية وكيف انتشرت الفوضى فى ظل استبدادهـا فتناولت نظام التشريع ونظام القضاء ونظـام الضرائب وغير ذلك من النظم . ثم تأمل فيها كيف أصبحت بعد الثورة فى يد الشعب يديرها نوابه بمـا فيه صالح المجموع . وكيف كان هؤلاء النـواب فى مراكزهم رمزا (لسيادة الأمة) ومظهرا من مظاهر (الديمقراطية) التى هى اليوم غاية كل الحكومات ومطمح كل الشعوب !

من أجل هذا اكتسبت الثورة أهميتها . ومن أجل هذا قلنا إنها قاربت بين الانسانية ومثلها الأعلى فى المجتمع وفى الحكومة . ومن أجل هذا سيظل التاريخ يحفظ لضحاياها أنهم عبّدوا لأخوانهم من بعدهم هذا الطريق !

(مطبعة دار الكتب المصرية ٥٠٩/١٩٢٧ ـ ٢٢٠٠)